المنتظر

الكاتب: يوسف محمد بهنسي

رقم الإيداع: 16407 / 2018

ISBN: 978 - 977 - 798 - 130 - 9

دار الحلم للنشر والتوزيع والترجمة ©

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

E-mail: dar_el7elm@hotmail com

info.darel7elm@Gmail com

Tel: 00242216335 - Mob: 00201141824562

Sales Manager Mob :00201146644959

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وتعبر الآراء الوارده في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضروره
عن آراء الدار، كما أن جميع حقوق الطبع والنشر محفوظه للدار
ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صوره كانت
إلا بموجب موافقه خطية من الناشر..

المُنتَظَر

الكاتِب

يُوسُف مُحَمَّد بَهنَسي

إهداء

إلى والدي أجمل شيء في حياتي وهما من ساندني منذ صغري ومنذ أن بدأت في الكتابة وإظهار الموهبة التي بداخلي..

شكرًا جزيلًا لكما فلولا الله ثم وقوفكما بجانبي ما كان هذا الكتاب ليكتمل ولا حديثي أن يظهر للناس.

❁ ❁ ❁

إهداء

إلى من أنار حياتي كلها وجعل لها طعم جميل، وهو أول من قرأ هذه الرواية عند اكتمالها، وهو الذي جعل من هذه الرواية عظيمة وجميلة فقط عند قراءته لها.

"حبيبتي"

الفصل الأول

"رحيل الجد"

إنه بقدم واحدة لا يستطيع المشي أو الركض كالآخرين ولا يستطيع الاستمتاع بحياته كأي شخص عادي ومن يراه من الوهلة الأولى يظنه رجلًا عاجزًا تعيس سئم الحياة وما فيها وأصبح زاهدا في كل شيء، لكنه ليس هكذا تمامًا إنه يملك أشياء لا يملكها الآخرون يملك عقل وقلبا من المستحيل أن تعرف مدى قدراتهما، وروحه الجميلة النقية تجعله قادرًا على فعل أي شيء يريده حتى ولو كانت صعبًا أو مستحيلًا.. وابتسامته الساحرة التي لا تغادر شفتيه تجعل آلاف من الناس تقع في حبه إنه جدي ريتشارد من أجمل وأحب الناس إليَّ في هذه الدنيا وقدوتي فيها ومن أتمنى حقًّا أن أصبح مثله يوما ما.

أنهى لتوه طعامه واتجه ناحية الشرفة بكرسيه ذات العجلات الذهبية اللامعه ثم توقف أمامها وبدأ في فتح الستائر ويداه يملؤها الارتعاش ووجهه يملؤه الاشتياق والشغف وعندما رأى السماء أخذت رئتاه في جمع الهواء بسرعة كأنها تلتهمه وتتغذى عليه.. وأخذت خلايا وجهه وجسمه في الانتعاش وأصبح يسترد قوته ويسترد حياته كالغريق الذي أخرجوه توًّا من الماء أو كالمدفون في قبر مظلم ثم عاد فجأة إلى الحياة التي اشتاق إلى جمالها

وروعتها.. لقد مرت ساعات وساعات وما زال جالسا يراقب النجوم وسحرها يراقب السحب وهي تتحرك تحت ظل القمر، إن السماء بالنسبة له هي كل حياته، تدفئه بجمالها وسحرها ومنظرها الرائع الذي يطمئن القلوب ويجعله سابح في بحر من الخيال والسعادة لا يريده أن ينتهي أبدًا.. ولا يجرؤ أحد ما على مقاطعته لأننا سنقاطعه عن أجمل شيء يفعله في حياته ويستمتع به، لكنه متغير هذه الأيام لم يعد جدي المرح والسعيد دائمًا بل أصبح تعيسًا ومكتئب وهناك شيئًا يشغل عقله وتفكيره دائما وأحيانًا ألاحظه من بعيد يبكي ويكلم نفسه ويرتعش، وعندما يلاحظ بأنني أشاهده يتجه إلى غرفته مسرعا لكي لا يراه أحد وهو يبكي، فجدي دائما بالنسبة للجميع وخاصة لي رمز القوة والصلابة ولست معتادا أن أراه ضعيفا هكذا.

دائما ما يتجه إليها عندما يشعر بالضعف والضيق.. إنها حصنه المحتمي به دائما وقلعته التي لا يجرؤ أحد على اقتحامها وسلاحه الذي يواجه به آلام الدنيا وقسوتها إنها غرفته التي لم يدخلها أحد من أفراد المنزل إلى الآن أو حتى رآها من بعيد أو حتى فكر في الاقتراب منها فإنها محرمة علينا جميعا دخولها، ولا نعلم حقًّا ما يوجد بداخلها.

مستلقٍ على السرير أنظر إلى سقف غرفتي أفكر وأفكر ويشغل تفكيري موضوع جدي هذا لابد وأن أعرف ما الذي يحدث له وما هذا التغير المفاجئ.. لقد تكلم أبي معه ذات مرة لكنه تهرب من سؤاله بجواب "لا شيء" ومن المستحيل أن يكون لا شيء لذا لن أقف مكتوف الأيدي هكذا وأرى

أقرب الناس إليَّ يتألم ولا أستطيع أن أفعل شيء نعم أنا ما زلت صغيرا وعمري لا يتعدى العشر سنوات لكن لابد أن أفعل شيئا حيال هذا.. جف ريقي وازداد ظمئي من التفكير، فذهبت إلى الطاولة الملتصقة بالحائط لكي أشرب بعضا من الماء وأعود لأستكمل ما كنت أفكر به لكني سمعت صوتا صادرًا من غرفة جدي فعرفت بأنه مستيقظ إلى الآن، فالحاجز الذي بيني وبينه مجرد جدار خشبي ضعيف ورقيق يفصل بين غرفتينا و يمكنني أن أسمع من خلاله كل ما يدور في غرفة جدي كأنني معه تمامًا.. ثم راودتني فكرة جنونية بعض الشيء وهي بأن أذهب إلى جدي في هذا الوقت المتأخر وأتكلم معه قليلًا عسى أن أعرف ما الذي يجري له وأستطيع مواساته فيما يمر به وسأدعو من الله ألا يراني أحد وأن يسمح لي جدي بالدخول.

استنشقت بعضا من الهواء لكي أملأ به صدري وأخفف به توتري وقلقي.. اتخذت قراري وفتحت باب غرفتي وتسللت على أطراف أصابعي متقمصا شخصية اللص الذي إن رآه أحد ضاعت حياته كلها.. وخاصة إن رآني أبي لأنه سيجعل من حياتي جحيما وسيصبح أسوأ يوم في تاريخ حياتي.. وقفت أمام الباب خائفًا متوترًا جدًّا أخشى أن يرفض السماح لي بالدخول وبالتحدث معه لكنني حمست نفسي وقلت بداخل عقلي أن كل ما تفعله يا جيمس من أجل جدك فقط، من أجل أحب الناس إليك، فرفعت يدي لكي أطرق الباب لكني سمعت صوتا صادرا من خلفي فجأة، فالتفت بسرعة فرأيت أبي يخرج من الحمام ويتوجه إلى المطبخ.. يا إلهي ما الذي سأفعله

الآن لم أكن أتوقع هذا مطلقا لكني لم أجد شيئا أفعله سوى الوقوف مكاني كالصنم بلا حركة وأدعو الله ألا يراني، لكني حينها كنت خائفا جدًّا وتصبب عرقا من جميع أجزاء جسدي فإن أبي عقابه شديد جدًّا، ولكن بعد ثوانٍ معدودة خرج أبي من المطبخ وكان يترنح كالسكير من شدة تأثير النوم عليه ومن التعب وذهب إلى غرفته دون أن يراني.. فأخذت أنفاسي مجددًا وبدأ الهواء في إعادة خلايا جسدي للحياة مجددا وبدأ الدم يجري في عروقي والقلب يعود لعمله الطبيعي لقد شعرت لتوي بشعور مخيف وهو شعور الناجي من الموت تماما.. طرقت الباب سريعًا قبل أن يعود أبي أو أن يراني أي أحد، فرد على جدي بكل حزم وقوة:

- من الطارق؟

- فنطق لساني بكل تردد ورعشة، إنه أنا جيمس يا جدي أريد الدخول والتحدث إليك قليلًا أرجوك، إذا سمحت لي طبعا ثم انتظرت إجابته بكل قلق كأنني متيقن بأنه سيرفض دخولي وبعد صمت دام لدقيقة مرت وكأنها سنوات معدودة، رد بـ ادخل يا جيمس أنا أيضًا أريدك وأريد التحدث معك.. وحينها لم أصدق نفسي ولم أشعر بنفسي إلا وأنا ممسك بمقبض الباب وأفتحه بكل لهفة وسرور، لشيء جديد لم أره أبدًا ولم أكن أتوقع بأنني سأراه يوما، لقد كان دوما شيئا محرما علي

وعلى الجميع والآن أصبح مباحا، فلك أن تتخيل ما أشعر به الآن.. أنا قادم أيتها الغرفة التي حلمت دوما أن أدخلك.

فتحت الباب وكانت الغرفة مظلمة جدًّا فنظرت هناك فرأيت جدي جالسا عند الشرفة وكان ضوء القمر يعبر من خلالها ينير جزءًا صغيرًا من الغرفة وينير جسد جدي أيضًا ويجعله لامعا في الظلام هو وصلعته الكبيرة ووجهه المريح هذا.. فقال أضئ الأنوار يا جيمس وأشار إلى الجدار بجانبي فبدأت أتحسسه إلى أن وجدت الزر وضغطه وأضاءت الغرفة بأكملها ويا إلهي كأني تمامًا أضأت الجنة بعدما كان الظلام يملؤها..

الألوان الداكنة الجميلة في كل مكان من حولي والسقف المليء بالرسومات والزخرفات الرائعة التي لم أرَ مثلها في حياتي والصور تملأ الجدران والأركان، والتحف الفنية الرائعة في كل مكان كأنها قطع من الجنة والسجاد الناعم المصنوع بأيدي الملائكة وليست البشر، وأخيرًا المكتبة الكبيرة المليئة بالكتب والمخطوطات القديمة التي تستطيع أن تشم رائحة أوراقها وعبير حبرها وأن تشعر بروحها وما هو موجود بداخلها..

لم أرَ في حياتي أبدًا كهذا الجمال وأشياء مثل هذه بالتأكيد سوف تبهرني وتجعلني أنسى كل شيء حتى إنني نسيت جدي وظللت هكذا لدقائق أتفحص كل ركن من أركان الغرفة بعيني التائهة وابتسامتي التي تعلو شفتيَّ كالمجنون المذهول من كل شيء حوله..

فقاطع جدي خيالي واندهاشي وقال:

- أستظل واقفا عندك كثيرا؟

- معذرة يا جدي إن غرفتك جدًّا رائعة لم أرَ كجمالها في حياتي كيف جعلتها بهذا الجمال؟

- أعرفت الآن لماذا أقضي معظم أوقاتي هنا؟.. إنها جنتي الخاصة التي تعزلني عن العالم الخارجي هذا العالم الظالم، إن العالم قاسٍ جدًّا ويغير في الإنسان ويأكل كل ما هو جميل فيه كما يأكل الصدأ في الحديد ويضعفه وكما تغير الحرارة ألوان الصخور وتركيبها، ومهما كان يملك هذا الإنسان من طيبة وجمال وصدق وأشياء نبيلة ورائعة لا يملكها أحد غيره، سيغره العالم إلى الأسوأ وسيصبح كالآخرين تماما، لذلك كل شيء في هذه الغرفة يجعلني صافي القلب صافي الروح صافي الذهن، أنا هنا كالملك أستطيع أن أفعل كل ما يحلو لي وأستطيع أن أفعل كل ما أحبه وأشتهيه، أقرأ كتابًا، أكتب قليلًا، أراقب السماء ونجومها، أستعيد بعضا من ذكريات، أتامل كثيرًا، إنها مملكتي وجنتي.

ثم تدفقت دمعة من عين جدي كأن ذكرى مؤلمة هاجمت عقله فجأة ثم نظر إلى الشرفة وعم الغرفة السكوت وآلام جدي المتناثرة في الهواء وأحزانه التي أستطيع أن أشتمها وأشعر بها تداعب شعيرات أنفي فاقتربت منه وأمسكت يده ونظرت في عينيه بكل حب وعطف وشفقة على حاله وقلت:

- أنت متغير هذه الأيام يا جدي لم تعد جدي الذي أعرفه أنت تعلم بأني أحبك ويهمني أمرك لذا أرجوك أخبرني ما بك؟

- لا شيء أنا فقط أشعر ببعض التعب هذه الأيام وبعض الألم في صدري لذلك أنا متغير.

- لا تكذب عليَّ يا جدي أنا لم أعد صغيرًا أنا الآن في العاشرة من عمري وأصبحت رجلًا يعتمد عليه أخبرني ما بك لكي أستطيع مساعدتك.

فابتسم جدي ابتسامة رقيقة وضمني إليه بقوة وعانقني وقبل رأسي وقال:

- إنها الحادثة، كابوسها يراودني كل يوم في منامي، يأتي كأنه أسد ويحاول خنقي بمخالبه والتهامي بأنيابه الحادة وسيأتي يوم وسأموت داخل كابوسي من شدة الخوف، أحيانا أرى الحادثة تدور أمام عيني كالشريط بكل تفاصيلها وأحداثها كأنها تحدث لي مجددا وأحاول جاهدًا أن أوقفها لكنها لا تتوقف، أصرخ من داخلي وأبكي لكي تتوقف ولكنها لا تفعل، إن قدمي تقطع كل يوم بنفس الألم الذي شعرت به أول مرة ولم أعد أستطيع الاحتمال، لقد كنت في الماضي أحتجز ألمي في قفص بداخلي بعيدا عن حياتي ولكن مع الوقت صدأ حديد هذا القفص وخرج ما بداخله ليلتهمني ويعذبني ولقد نجح في ذلك، لن يستطيع أحد فهمي أو احتمال شعوري ولو لدقيقة واحدة لأن شعوري لا يوصف ولا يحتمل وهذا كل ما أستطيع أن أخبرك به.

وتحدثنا بعدها لساعات كان ينصحني فيها ويرشدني إلى أشياء أفعلها في شبابي ولكني كنت صغيرا ولم أكن أستطيع استيعاب كل هذا.

وفجأة طرق أبي باب غرفتي صائحًا هيا يا جيمس انهض أنا أنتظرك في الأسفل.. فأمرني جدي بالرحيل فورًا والعودة بعد المدرسة فنهضت سريعًا ولكنه أمسك يدي ونظر في عيني بكل حب وعانقني بشدة وكانت عينه تقول سأشتاق إليك كثيرا، ثم اتجهت نحو الباب وقبل أن أفتحة ناداني جدي فنظرت إليه وقال بصوت يملؤه التردد والخوف: إن عدت يا جيمس ولم تجدني لابد وأن تقرأ هذا الكتاب في الوقت المناسب مهما حدث وستفهم حينها كل شيء وحاول أن تسامحني على ما فعلت وما سوف أفعل أنا لست بهذه العظمة التي تتوقعها يا جيمس أنا خذلتك وخذلت نفسي وخذلت أعظم شيء في حياتي ولكني متأكد بأنك ستكون أفضل مني أستطيع رؤية هذا داخلك أنا آسف يا بني، والآن أذهب إلى غرفتك سريعًا قبل أن يعرف والدك.

ثم وضع هذا الكتاب الغريب الذي أوصاني بقراءته على السرير وهو يبتسم لي.

خرجت من غرفته وأنا أفكر في كل كلمة قالها، إن كلامه يبدو كالأحجية بالنسبة لي أحاول تركيبها في عقلي لأستخرج شيئًا مفيدًا لكني لا أستطيع فهم أي شيء من الواضح بأن عقلي غير قادر على استيعاب وفهم ما قاله لي.

توقف باص المدرسة أمام المنزل لقد عدت من المدرسة بعد يوم طويل من التفكير في كلام جدي.. فنزلت منه ركضًا إلى الداخل، ذهبت إلى غرفتي ورميت الحقيبة على السرير ورميت الحذاء على الأرض ولم أغير حتى ملابسي واتجهت سريعا لغرفة جدي لأفهم منه هذا الكلام الذي قاله لي في الصباح وأرى هذا الكتاب وما بداخله..

طرقت باب غرفته وانتظرت قليلا لكنه لم يرد، فطرقت مرة أخرى ولكن بلا إجابة أيضًا فتذكرت ما قاله لي عن الكتاب عند عودتي ففتحت الباب ودخلت ورأيت الشرفة لا تزال مفتوحة وجدي جالس نفس الجلسة ولكن لا أرى سوى ظهره فبدأت أخطو نحوه وأنا كلي تساؤل كيف لم يسمعني فوصلت إلى الكرسي والتففت حوله لكي أراه وأرى وجهه فرأيته مغمض العينين ووجه يميل إلى الاصفرار وشكله ينم على أنه مرهق ولم ينم منذ أيام فقررت أن أخذ الكتاب وأرحل بهدوء كي لا أزعجه وأدعه يرتاح وعندما يستيقظ آتي إليه، فأخذت الكتاب من على السرير وذهبت لتقبيل رأسه أولًا قبل ذهابي، فتعرقلت بقدم الكرسي وسقطت أرضا وكأني تماما سقطت في بركة ماء فنظرت حولي فوجدت دماءً كثيرة تملأ المكان فنظرت إلى يدي فوجدتها هي الأخري مليئة بالدماء فنهضت سريعا وذهبت لجدي وبدأت أحركة بيدي بقوه لكي يستيقظ ويرى هذا لكنه لا يريد الاستيقاظ فأمسكت يده فشعرت بأنها مبتلة فوجدتها هي الأخرى مليئة بالدماء فسقطت أرضا من هول المنظر وصرخة صرخة سمعها كل من في المنزل وبدأت أصرخ

وأصرخ وأنا مغمض العينين كأني أحاول نسيان هذا المشهد المرعب لكن للأسف لم ولن أستطع فلقد أصبح جزءًا مني الآن..

فسمع أبي صراخي فتوجه نحو الغرفة ودخل بسرعة فوجدني جالس على الأرض في ركن من الأركان مذعورا، فاقترب من جدي ورأى ما رأيته تماما، فتوقف مكانه بلا حراك لقد صعق مما رآه للتو حتى أنه نسي كل شيء نسي صراخي ونسي نفسه وأصبحت عيناه فقط هي من تعمل وسائر جسده متوقف عن العمل فجثا على ركبتيه وبدأ يقول لم يا أبي والدموع تملأ عينيه..

فزحفت إليه بسرعة لأختبئ في أحضانة مما أراه فأنا ما زلت طفلا صغيرا ومنظر كهذا وخاصة لجدي سيؤلمني كثيرًا وسيصبح من أكثر الذكرى ألما في حياتي.. ولكن صدر أبي كان يواسيني وأنفاسه الحزينة المختلطة بدموعه جعلتني أنسى الدماء وأنسى رائحته البشعة ولو لوهلة.. ولكن عقلي لا يريد الاستيعاب أو التصديق بأني فقدت لتوي أجمل شيء في حياتي.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

"سأحطم هذا الباب"

أشعر به دائما حولي أشعر به يحميني من هذا الكون ويهمس في أذني دائما بالحب أشعر برعشته داخل جسدي تحفز خلاياي وتعطيها أملا للتكاثر والعيش حتى إن قلبي ينبض باسمه منذ ولادتي وعروقي وشراييني منحوت عليها اسمه، إن عشقي له لا يقدر بثمن، وسأظل أعشقه مهما اسودت الدنيا ومهما مالت بي الحياة، إنه جزء مني لو انفصلت عنه يذبل جزئي الآخر ويموت وهو من يحرك روحي ويعطيها الاستقرار، وهو الذي يحملني داخله حيًّا أو ميتًا إنه أعظم شيء في حياتي وسأفعل أي شيء لأجله حتى وإن كان الثمن روحي الغالية وكل ما أملك.

عمري الآن خمسة عشر عاما ولن تصدقوني إن أخبرتكم أن وفاة جدي ورحيله عني ما زالت تؤثر عليَّ إلى الآن في كل شيء في حياتي.. فعندما رحل انقلبت حياتي رأسا على عقب، لم أعد مثل سابق عهدي بل تقمست شخصيته وأصبحت مثله تماما صامتًا دائما ووحيدًا في غرفتي أقرأ لساعات وساعات دون ملل حتى أنني ورثت منه شيئين الأول الكتابة وكنت بارعًا فيها ومبدع مثله، والثانية حبي الشديد للوطن وانتمائي له، وكان حلمي أن أصبح جنديا في جيش بلادي لكي أشعر حقًّا بأنني أستطيع حمايته بجسدي وأيضًا

بعقلي.. فأحيانا كنت أظن نفسي بأنني الوحيد على هذا الكوكب الذي يحب وطنه هكذا ومستعد أن يضحي بحياته لأجله، كان شعورا غريبا لا أفهمه شعورا قويا تجاه وطني لا أحد يملك هذا الشعور مثلي أنا وأريد أن أفهم لماذا أنا ولماذا هذا الشعور القوي؟

في كل شيء كان يفعله جدي كنت أفعل مثله تماما، كنت أشعر حينها بالسعادة وأشعر بالحياة كنت أشعر بأن هذا مصيري وهذا طريقي ولا سيما عند وقت الكتابة كنت أشعر فيه بأنني طائر في سماء من السعادة لا حدود لها ولا أريد التوقف عن التحليق أبدًا بل أريد إكمال حياتي هكذا.

أغلقوا غرفة جدي ومنعوني من دخولها منذ وقت الحادث وإلى الآن وبعد مرور خمس سنوات لم أدخلها لكن شكلها وألوانها وتحفها ما زالوا محفورين في كل خلية من خلايا ذهني، وعبيرها الرائع ما زال يسكن شعيرات أنفي.. لقد زعموا بأنني إن دخلت الغرفة سيؤثر هذا سلبًا عليَّ وعلى صحتي حتى الكتاب الذي تركه لي منعوني من رؤيته ووضعوا أي شيء يتعلق بجدي في المنزل داخل هذه الغرفة، كأنهم يحاولون أن ينسوني إياه وحجب ذكرياته عني.. لكنهم لا يعرفون بأن جدي لا يغيب عن تفكيري لساعة واحدة إن صورته دائما في عقلي وصوته دايما يحدثني ولمساته ما زلت أشعر بها على جسدي حتى أن قبلاته لي ما زالت رائحتها على جبيني.. إن الذكريات هي أقوى شيء في الحياة أقوى من ألف باب أغلقوه، وأقوى من ألف غرفة منعوني من دخولها وأقوى من الدنيا نفسها.. نحن نعيش ونتغذى على

ذكرياتنا، لا يمكنهم إبعادها عني، إنها جزء مني وجزء من روحي فأنا كل ما أملكه في حياتي هي الذكريات وأجمل ذكرياتي كانت مع جدي لذا لن يتمكنوا أبدًا من أن ينسوني إياه.

جالس في غرفتي على مكتبي الصغير تحت ضوء المصباح ممسكًا قلمي أحاول إنهاء قصة أعمل عليها ولكي أكون صريحا بعض الشيء إنها قصة وطنية فأنا أحب الكتابة دائما عن الوطن، لا أعرف لماذا لكني أشعر بالسعادة عندما أكتب مثل هذه القصص.. وكنت في قمة تركيزي وقمة خيالي وسعادتي وفجأة أسمع أمي تدق الباب وتخبرني بأنه موعد العشاء فأترك قلمي وأغلق مصباحي وأوقف عقلي عن التفكير وأذهب لتناول العشاء.. وكالعادة إنه عشاء عائلي ممل، يتكلم فيه أبي عن عمله قليلًا ثم تتكلم أمي هي الأخرى مثله ثم يسألوني كيف كان يومي في المدرسة فأخبرهم بإجابتي المعتادة "جيد" فيبتسموا ويكملوا حديثهم عن العمل، حتى أن أختي الصغيرة إيميلي ذات الثانية عشر من عمرها لا تأكل معنا على الطاولة بل تأخذ طعامها وتصعد إلى غرفتها لتأكل بمفردها وتستمع لموسيقاها الهادئة التي لا تتوقف أبدًا فصوت الموسيقي أهون من كلام والداي الممل جدًّا.. وهذه هي عائلتي لا يوجد بيننا ترابط كبير كأي أسرة عادية فكل ما يفكر فيه والداي هو العمل، وأختي الاستماع لموسيقاها والخروج مع أصحابها وقضاء وقتها في المرح واللعب، وأنا طبعا العزلة والوحدة، والنظر إلى السماء الدافئة لساعات دون ملل، وطبعا الكتابه.. لا يوجد شيء يجمعنا، إننا كالفندق

تماما كل يقطن في غرفته الخاصة مع مشاكله وأسراره الخاصة دون اطلاع الآخر عليها أو معرفة أي شيء تجاه الآخر، وصدقا إن كل واحد منا يبحث عن أحد ليتشارك معه أسراره ومشاعره لكنه يريده أن يكون مثله تماما وأن يفكر مثل ما يفكر، لا نتقبل بعضنا باختلافاتنا لذلك لا يستطيع أحد منا الوصول للآخر أو مشاركته في أي شيء مع أن غرفنا تكاد تكون متلاصقة..

ولكن صدقا أقرب شخص إليَّ في هذا المنزل هي أختي نعم إننا لسنا متقاربين من بعضنا ولكننا نعتني ببعضنا البعض قليلا ونصبح سعداء ونحن سويًّا إنها حقًّا من تهون عليَّ هذا المنزل الملل وهذه الأوقات الصعبة.

ذهبت لغرفة والدي لأطلب من أبي بعضا من المال لأشتري كتبًا جديدة.. وقفت أمام الغرفة فسمعت أبي يكلم أمي وكان صوته عاليا بعض الشيء فاستطعت سماعه من الخارج وكان يقول:

- سارة لقد تغير جيمس كثيرا منذ وفاة أبي لم يعد مرحا ومبتسما كالسابق بل أصبح وحيدا وصامت لا أعتقد إن كان ظني صحيحًا لكنه أصبح مثل أبي تماما في كل شيء حتى إنه مبدع في الكتابة مثله ويفعل جميع الأشياء التي كان يفعلها أبي، فردت أمي عليه بكل عصبية:

- إن جيمس لا يشبه أباك يا ألبرت في أي شيء، أبوك كان مجنونًا وانتحر لقد كنت أخاف الجلوس معه في غرفة واحدة وكان دائمًا يلوم نفسه على

هذا الحادث إنه غبي مجنون لذا أرجوك لا تقل ذلك على جيمس مجددا إنه لا يشبه أباك في أي شيء.

يا إلهي أمي تتهم جدي بالجنون وأبي وافق على ما قالته ولم يعارضها حتى.

وحينها لم أشعر بنفسي إلا وأنا في غرفتي أبكي مما سمعته عن جدي فأنا أتألم عند سماع أي شيء سيء عنه، أعلم إنه انتحر لكني كنت أبرر هذا داخلي بأنه كانت له ظروفه الخاصة ومن الممكن إن قرأت هذا الكتاب الذي أوصاني به أستطيع فهم لمَ فعل هذا وأعذره، وأقسمت في داخلي بأنني لن أسمح لهم بأن يقولوا أي شيء عن جدي مرة أخرى وغرفته هذه التي منعوني من دخولها لسنين إنها أفضل مكان أكون فيه قريبًا من جدي وبعيدًا عنهم وسوف أدخلها ولن يمنعني أحد.

استيقظت في منتصف الليل إنه الموعد المحدد فهذا ما لأشرب تماما، غيرت ملابسي ونزلت إلى الأسفل لأشرب بعضًا من الماء وأخذ أنفاسي ثم اتجهت إلى جدار كان يعلق أبي عليه مطرقة جميلة وقوية إنها كالتحفة الفنية تمامًا، ولا يدع أحدا يلمسها أو حتى يقترب منها فأخذتها من مكانها وصعدت لأعلى ووقفت أمام غرفة جدي.. لقد اتخذت القرار ولا رجوع في ذلك لقد سئمت هذه الحياة ويجب عليَّ تغيير هذا، رفعت المطرقة بكل حزن وأسف وبعض من الخوف وضربت مقبض الباب بكل ما أوتيت من قوة فسمع كل البيت هذه الضربة القوية فخرج أبي من غرفته مذعورا وأمي

تلحق به لا تدري ماذا يحصل فضربت الضربة الثانية فانكسر المقبض وسمع أبي الصوت مرة أخرى فحدد مصدره وعرف إنه من أعلي فصعد بسرعة هو وأمي.. فرآني وأنا ممسك بالمطرقة وأسدد للباب الضربة الثالثة فأنا أريد تكسيره تمامًا فمنعني أبي وأخذ مني المطرقة وقال بكل عصيبة وغضب ما الذي يحدث؟ ماذا تفعل؟ هل جننت يا جيمس؟

- لا شيء يا أبي أنا أحاول دخول غرفة جدي التي منعتوني عنها طوال هذه السنين.

- أنت تعرف بأن هذا..

وقبل أن يكمل كلامه قاطعته بكلمة "هراءات" فنظر إلى نظرة غريبة إنه لا يصدق ما يسمعه فأنا لم أحادثه هكذا من قبل.

- هراءات يا أبي كل ما تقوله بلا معنى بلا فائدة، إنك تفعل هذا دائما وتمنعني دائما لأنك تعرف بأني كنت أحبة أكثر من أي شيء في حياتي وكان دائما قريبا إليَّ حتى أكثر منك أنت، وأين كنت أنت؟ كنت دائمًا في العمل ولم تكن تدري ما الذي يحدث حولك حتى إن العمل أنساك أباك وجعلك تظنه بأنه رجل مجنون مختل عقليًا وانتحر أنت حتى لم تفكر لماذا فعل ذلك؟ ماذا كان يفتقد في حياته؟ أكان يفتقدك يا أبي أكان يفتقد الابن الصالح المخلص الذي يقف مع أبيه في أي محنة تقابله أخبرني؟.. لماذا لا ترد على؟

ثم ضربت الباب بقبضة يدي من شدة غضبي فبكت أمي وبدأت دموعها في الظهور فنظرت إليها وقلت أتبكي عليَّ؟ لا تبكي عليَّ يا أمي بل على الرجل

الذي نعتيه بالغبي المجنون الذي يلوم نفسه دائما أليس هذا ما قلتيه عن جدي يا أمي إنه حقًّا يحتاج إلى أسفك الآن لأنه لم يكن هكذا أبدًا.. ثم أخذت المطرقة من يد أبي دون أن يتحرك أو حتى يقاومني وبدأت أحطم الباب قطعة قطعة وهما واقفان مكانهما يتفرجان عليَّ بلا حراك أظن أن كلامي وفعلي هذا كانا قاسيان جدًّا عليهما وجعلهما في حالة صدمة غير مصدقين ما أفعله الآن.. وبعد أن حطمت الباب وفتحته رميت المطرقة أمام أبي وقلت له جملة لم ولن أسامح نفسي عليها أبدًا لأنها كانت أقسى شيء خرج من فمي تجاه أبي.. قلت له هذه هي المطرقة التي طالما حافظت عليها ومسحت التراب من فوقها ومنعتنا من لمسها الآن حطمت باب الرجل الذي طالما أهملته وتركت غبار الحياة يملؤه ويغطيه.. ثم دخلت الغرفة وتركتهم خارجا فنزلوا وعادوا إلى غرفتهم والحزن يملؤهم والدموع تكاد أن تفجر عيني أمي.

فنظرت إلى الغرفة لأول مرة منذ خمس سنوات وكانت كما هي تمامًا لم يتغير فيها أي شيء، كل شيء في مكانه حتى إن رائحتها لم يغلبها التراب وهيبتها لم يضيعها الظلام والعتمة.. ذهبت إلى كرسي جدي ورفعت القماشة من فوقه وجلست عليه ثم أغمضت عيني قليلا لكي أستشعر المكان.. ولكن وبعد ثوانٍ معدودة بدأت عيني بفتح أبوابها لتدفق منها الدموع وفمي بدأ بإصدار صوت الأنين الحزين المليء بالألم وبدأت دقات قلبي في الصياح وكنت أتحسس الكرسي وقطرات الدماء الجافة عليه وأنا مغمض العينين وفي هذه

الحالة.. فكان جلده ناعمًا جدًّا كأنني أتحسس يدي جدي المليئة بالعروق البارزة، كنت أشعر بأنفاسه حولي كنت أسمعه يهمس في أذني، حتى أنني ارتعشت عندما شعرت بيده توضع على كتفي وعلي قلبي لتواسيني وتهدئني، تمنيت حقًّا حينها أن أفتح عيني وأجده واقفا أمامي يبتسم ويخبرني بأنه لن يتركني مجددًا أبدًا ولكن عندما فتحت عيني لم أجد سوى غرفة مظلمة مليئة بالغبار والألم وبعض من رائحة الدماء، والتي لا تعني لي أي شيء بدون جدي ولكن يكفيني بأنني شعرت به وشعرت بأنفاسه داخل الغرفة لقد كنت أحتاج هذا الشعور منذ زمن.

وبعد ساعات من الجلوس على الكرسي ذهبت لكي أغسل وجهي وأفيق من حالتي هذه.. فكببت الماء على رأسي ونظرت في مرآة الحمام على وجهي وكانت تتساقط منه قطرات المياه يا إلهي كم أنا تغيرت وملامحي تغيرت حتى أن قلبي تغير فتذكرت حينها ما قلته لأمي وأبي وخجلت من نفسي كثيرًا وحزنت، لذلك لن أنتظر إلى الصباح وسأذهب وأعتذر فورًا على ما بدر مني الليلة..

دققت باب غرفتهما فلم يرد أحد فاضطررت أن أفتح الباب بنفسي ففتحت الباب ودخلت فرأيتهما نائمين ولا يشعران بأي شيء ولكني كنت أشعر بحزنهما الذي يملؤ الغرفة فأضات نور الغرفة فاستيقظت أمي وعيناها متورمتان من شدة البكاء لترى ما يحدث واستيقظ أبي أيضًا وعندما رأوني شعرت بالحزن في أعينهما وخاصة عين أبي.. فجلست على

كرسي أمامهم وقلت بلا أي مقدمات: لقد كان كل شيء بالنسبة لي لقد كان هو الشمس التي تنير سماء حياتي وتعطيني أملًا للعيش لقد كان البسمة، لقد كان الأمل، لقد كان القدوة، لقد كان الشغف، إنه جدي أعظم رجل في حياتي، فجأة اختفى منها بلا أي مقدمات وجميعكم ظننتموه انتحر لأنه كان مجنون لكني لم أكن أفكر هكذا لأن جدي لم يكن مجنونًا، ولم يكن يلوم نفسه دائما يا أمي فنحن من يجب أن نلوم أنفسنا كل يوم لأننا لم نحاول أن نعرف ما الذي كان يمر به وما الذي كان يؤلمه وما الذي أفقده طعم الحياة هكذا، صبرت كل هذه المدة وأنتم تمنعونني عنه ولم تكونوا تعرفون بأن هذا دمرني لأنه لا يمكن بهذه البساطة أن تنزعوا مني شيئًا كان معي طيلة حياتي، لقد سمعتكما وأنتما تتكلمان عنه اليوم ولم أتمالك نفسي عندما سمعت هذا الكلام عن جدي، أنا آسف إن كنتم تريدونني خارج هذا المنزل بعد الذي حدث ولكني سأفعل هذا وأخرج من حياتكم تماما لأنني سببت لكم اليوم ألمًا كبيرًا وأنا آسف على هذا.

نهض أبي من فوق السرير واتجه إليَّ وأمسك بي وعانقني بشدة ثم أتت أمي خلفه وفعلت المثل ثم قال لا يمكننا العيش بدونك فأنت ابننا وما نعيش لأجله نحن آسفون على ما فعلناه تجاه جدك وتجاهك ثم ابتسم، فابتسمت أنا أيضًا وعانقته بشدة وانتهى هذا اليوم المتعب الشاق داخل أحضان أمي وأبي ويا لها من نهاية لهذا اليوم!

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

"البداية"

منذ أن تعلمت الكتابة وأحببتها وعرفت بأنها مصدر سعادتي وإلهامي في هذه الدنيا وأنا لا أكتب إلا عن الوطن، وعظمته، ومكانته داخل الإنسان وكل ما يشغل تفكيري هو الوطن و قضاياه حتى أنني كنت أحاول في كتاباتي أن أضع حلولًا وأناقش كل المشاكل التي يتعرض لها، بمعني أصح إنه كان جزءًا مني وكان كل حياتي وتفكيري فمن المستحيل أن أصفه مهما كتبت من كلمات وروايات ومقالات لأنه أعظم شيء على هذه الأرض ودائما العظمة صعبة في أن توصف.

لقد تدمر حلمي في أن أصبح جنديا من جنود وطني العظيم وضاعت آمالي كلها بعد هذا الحلم وخاصة في بلادي أنا لأنه لم أكن أتوقع أبدًا بأنني أستطيع تحقيقه فقط إذا كنت أملك المال الوفير أو المنصب الكبير.. لذلك قد يئست كثيرا وزهدت الحياة وخاب أملي كثيرا في أن أصبح الشخص الذي طالما حلمت به ولم أعد أريد شيئا من الدنيا.. إلا شيئا واحدا فقط هو الذي من الممكن أن يعيد لي الحياة ويعطيني الأمل لكي أعيش وأرى الدنيا بشكل مختلف إنها أمنية أتمناها من داخل قلبي كل يوم في كل ساعة في كل دقيقه، وما زال قلبي يدق ورئتاي تعمل وتمسكي بالحياة يزداد على أمل أن

تتحقق هذه الأمنية.. وهي بالفعل حدثت وتحققت ولكن لن تعرفوها إلا في وقتها وليس الآن ولكنها حقًّا أجمل وأعظم شيء حدث لي في حياتي.

بحثت عنه في كل مكان في الغرفة، بحثت بين الكتب والمخطوطات، بحثت في الأدراج وفي الحقائب القديمة والصناديق، بحثت بين التحف وخلف الصور، بحثت بين والنقوش والزخرفات في السقف وعلي الحائط لكنني لم أجده لقد بحثت في كل مكان ولكني سئمت وتعبت من البحث عنه، أخر مرة رأيته فيها كان داخل الغرفة وكان ملطخا بالدماء.. فسألت أبي عنه فهو آخر من رأى الغرفة قبل أن تغلق.. لكنه قال بأنه لا يعرف أي شيء عنه وأنه لم يره مطلقا ولا يعرف عما أتحدث، ولكني شعرت من نبرة صوته بأنه يكذب عليَّ وبأنه يعرف أين مكان الكتاب ولكنه لا يريد إخباري ولا أدري هل أنا على حق أم لا لكنني شعرت بهذا.

عمري الآن عشرون عاما لقد كبرت بسرعة ولم أشعر بالوقت والعمر لقد مرَّا سريعا جدًّا كلمح البصر.. وأنا الآن في إحدي أكبر جامعات الدولة، وبعد أن ضاع حلمي في أن أكون جنديا أردت مهنة قريبة من الجندي ولو بقليل حتى، ولم أجد في نظري سوى المحاماة وإن سألني أحدكم لماذا تخصصت في هذه الكلية بذاتها؟ الإجابة سهلة وبسيطة المحامي يستطيع الدفاع عن الناس أيضًا وحماية حقوقهم والدفاع عن الوطن من أي فساد كان وهو دائما كان الشوكة في حلق كل ظالم.. ولهذا اخترت أن أكون محاميا لا أكثر ولا أقل.. لكنني وللأسف طردت من الجامعة لعام كامل لأنني حينها كنت

رئيسا لاتحاد الطلبه فالقيت خطبة شديدة بعض الشيء عن الفساد في المجتمع وعن أمور سياسية وتكلمت عن رجال الأعمال الفاسدين وذكرت بعض أسمائهم وشبهتهم بالسرطان الذي ينقض على الدولة ويتغذي عليها وعلي أبنائها إلى أن تهلك تماما وبالطبع قد أغضبهم هذا كثيرا وعاقبوني بالطرد.. وتأخيري سنة كاملة عن الجامعه.

أصبحت في حالة من الضياع وفقدان النفس والأمل لم أعد أكتب..لم أعد أقرا.. كل ما أفعله هو الدخول إلى غرفة جدي والمكوث فيها، والنوم لساعات وساعات بلا أية فائده وعندما أستيقظ في أي وقت أذهب إلى الحانة المجاورة حيث الفتيات الجميلات والخمر والموسيقي وجميع أنواع المخدرات.. وهناك أشعر بأنني ملك لا أشعر بأي هموم أو مشاكل أنسى كل شيء وأدخل في بحار من الهلوسة والأحلام المؤقتة الزائفة.. ثم أعود إلى المنزل بالكاد أفتح عيني ولا أستطيع حمل جسدي ولا أذكر أي شيء.. و أعاود الكرة كل يوم وهكذا أصبحت حياتي الآن حياة ضائعة باهته لا يوجد بها ألوان الأمل، وألوان الحلم الجميل.. يا الله كل ما أحتاجه فقط هو هذه "الأمنية" أن تتحقق لكي تعيدني إلى الطريق الصحيح.

استيقظت من نومي في وقت متأخر وارتديت ملابسي وذهبت سريعا إلى الحانة لأقضي فيها ليلتي الجميلة بلا أية أفكار أو هموم وشربت كالمعتاد ولم أعد أرى شيئا أو حتى أشعر بشيء.. شربت كثيرا جدًّا هذه الليلة وتوقف عقلي عن العمل تماما.. وقبل أن يغلقوا المكان طلب مني رئيس الحانة

حساب ما شربته فأخرجت من جيبي المحفظه ورميتها على الطاولة ليأخذ منها ما يريد ثم طلبت كاسًا أخيرًا قبل الذهاب..

لكن الرجل رفض وأخبرني أن الاموال غير كافية ثم طلب مني باقي الأموال.. فصحت في وجهه بأنني أريد كاسا آخر ورميت الكاس الذي بيدي ليسقط أرضًا وينكسر، ثم نادى رجال أمن الحانة الذين يحمونها من أشكالي البائسة والغبية والفاقدة للأمل والمستعدة أن تفعل أي شيء من أجل كأس آخر من النبيذ..

وعندما أمسكوني ليخرجوني لم أكن في وعيي حينها فأمسكت زجاجة النبيذ التي كنت أشرب منها وكسرتها على رأس أحدهم ليتركني.. فاخذوني خارج الحانة وأوسعوني ضربًا مبرحا لن ينساه عظام جسدي ولن أستطيع نسيان هذا الألم أبدًا ثم رموني بعيدا في أول الطريق.

بدأت الأمطار تتساقط وتداعب وجهي وتنظفه من آثار الكدمات والدماء المتناثرة عليه وتعطيني بعض من القوة والتركيز لكي أنهض وأعود للمنزل وبعد قليل عندما استجمعت قوتي وتركيزي نهضت وحملت جسدي وعظامي المحطمة ومشيت إلى المنزل بكل صعوبة..

وعندما وصلت صعدت إلى غرفتي زحفًا على الأيدي والأقدام مثل الكلب اللاهث العطش ولكنه ليس باحثا عن الماء أو طعام ولكن باحثا عن سرير لكي يؤويه ويعافيه من آلام جسده القوية.

وقفت أمام باب غرفتي وأمسكت المقبض فرأيت أختي إيميلي جانبي تنظر إليَّ بكل حسرة وتقول لمَ تفعل هذا يا جيمس؟.. لكني لم أعرها اهتمامًا فآلام جسدي تمنعني عن التحدث أو الشعور بأي شيء.. فأمرتها بالابتعاد عن طريقي وتركي وشأني لكنها أمسكت عنقي ودفعتني إلى الجدار وقالت لي بكل شفقة وحب وخوف عليَّ وكانت الدموع تملأ عيناها:

- أين جيمس أخبرني، إنه لم يعد أنت لقد تغيرت كثيرا أين جيمس الذي بداخلك؟ أين جيمس وإرادته الحديدة وعزيمته التي لا تتحطم؟ أين جيمس الذي أسقطته الحياة ألف مرة ولكنه نهض وصبر وأكمل طريقة؟ أيأتي الآن ويسقط ولا ينهض مجددا لا تفقد الأمل أرجوك.

- أنتِ لا تفهمي أي شيء ابتعدي عن طريقي ودعيني وشأني.

ثم دفعتها بقوة لتسقط أرضًا ثم نظرت إليها بعدم اهتمام وكأن عيني تأبى أن تصدق ما تراه لكي لا يضعف قلبي فهذا هو تأثير الخمور على البشر إنها تضيع المشاعر وتقتلها وتجعلك باردا كالحجر وها قد فعلتها الآن وكسرت قلب أختي الوحيدة.. ثم دخلت غرفتي باحثا عن السرير الذي سيؤوي جثتي الهامدة هذه الليلة.

أيقظتني أمي لأتناول الفطور معهم.. فنهضت وأنا جسدي كله مليء بالكدمات والعظام المكسورة ولا أستطيع الشعور به.. فنزلت الدرج بكل صعوبة وبطء لا أستطيع المشي على قدمي نهائيا.. جلست على الطاولة بكل

هدوء لم تخرج من فمي ولا كلمة واحدة، ليس بإرادتي ولكن فمي لا يستطيع التحدث من شدة الألم.. فلاحظ أبي الكدمات على وجهي ولكنه تجاهل الأمر لأنه يعرف أو عرف ما الذي حدث لي.

وضعت أمي الطعام على الطاولة ثم جلست أمامي وعندما نظرت إليَّ وإلى وجهي صرخت وقالت بسرعة وبكل خوف ماذا حدث لوجهك يا جيمس؟

- لا شيء وأنا أقود الدراجة أمس سقطت على وجهي وهذا سبب هذه الكدمات.

فنظرت إليَّ تلك النظرة التي توحي بعدم تصديقها لي ثم هزت رأسها والدموع تكاد أن تنفجر من عينها على ما حدث لي، لكنها منعتها من ذالك.. ثم استجمعت قواها وقالت لي بكل حزن لمَ لم تحضر عيد ميلاد أختك أمس؟

- أكان أمس يا أمي لمَ لم تخبريني؟

- كل عام أنت من يذكرنا وتأتي لأختك بهدية وتنظم عيد الميلاد وتجعله جميلا ومبهجا لكنك لم تفعل ما الذي حدث؟

لم أجب عليها ونظرت إلى طبقي وتألمت كثيرًا على نسياني هذا ثم تركتهم ونهضت فلم أعد أريد أن آكل بعد ما فعلته ليلة أمس مع إيميلي.. فنظروا إلى بعضهم البعض وبدأت أمي في البكاء عليَّ وعلى حالي وعلى الضياع الذي

وصلت إليه.. صعدت إلى غرفتي حزينا أفكر في مشاعر أختي الآن وكيف أنني سببت لها جرحًا كبيرا لا أعلم كيف سوف أتعامل معه.

قرر أبي فعلها اليوم وإعطائي ما كان يخبئه عني منذ سنوات ولكنه كان ينتظر الوقت المناسب.. لقد شعر بأنها اللحظة المناسبة بأنه يجب عليه إنقاذي في هذا الوقت وإلا ضعت إلى الابد، ذهب إلى مكتبة وفتح درج من أدراجه لم يفتحه منذ سنوات عديده وأخرج منه صندوق قديم ومسح من فوقه طبقات التراب المتراكمة ثم حمله بكل ثقة واتجه إلى غرفتي وطرق الباب فسمحت له بالدخول، فدخل وجلس بجانبي على السرير وهو يراني أتألم في كل حركة أفعلها.. فوضع الصندوق بجانبه ثم نظر إليَّ وقال:

- جيمس هل يمكنك أن تخبرني لمَ لم تعد تحلم بعد الآن، لقد كنت دائما حالما بأشياء جميله أين هي، هل انتهت وضاع كل شيء أم تبقى أي شيء تعيش لأجله وتريد تحقيقه.

- أنت تعرف يا أبي لقد تمنيت دائما أن أخدم وطني وبأن أصبح مثل جدي شخصا قادرا على فعل أي شيء لوطنه ولكنني اكتشفت أخيرًا بأنه ليس أنا هذا الشخص وليس بمقدوري فعل شيء.

- حسنا ومن أخبرك بأنك لست هذا الشخص، إن هذا الشعور الذي تشعر به من صغرك متوارث في عائلتنا وجدك كان سبب هذا وعندما أتى الدور عليَّ خفت وقررت أن أعيش حياتي على أن أفعل هذا، ولكن الآن قد

حان دورك وأنا أعلم بأنك أفضل مني وأفضل حتى من جدك فأنا أرى هذا في عينك منذ الصغر، خذ هذا الصندوق وأثبت ذلك، أثبت بأنك تستطيع فعل أي شيء لأجل وطنك وستكتشف حينها إن كنت هذا الشخص أم لا، لكنني واثق بأنك ستفعلها، ولكن احذر، إن كنت حقًّا تستحق حماية وطنك وحبه داخلك يجب أن تكون شخصا يعرف حقًّا من يكون.

وضع الصندوق أمامي وخرج من الغرفة وهو يبتسم لي وتركني وأنا لا أفهم أي شيء مما قاله.. فعدلت جلستي وأمسكت الصندوق لأفتحه وأرى ما فيه.. وكانت مفاجأة كبيرة لي لم أكن أصدق ما أراه وكأن عيني لا تريد التصديق، إنه كتاب جدي الذي أوصاني بقراءته قديما، يا إلهي إنه الآن بين يدي أخيرًا وأستطيع قراءته.

تحسست الكتاب وكان ملمسه جدًّا جميل وكانت رائحته غريبه لا تعرف حقًّا إن كانت رائحة دماء أم رائحة الزمن الذي احتواه وزاد من قيمته وعظمته أم رائحة التراب الذي يملؤه.. ثم فتحته وبدأت أتجول بين صفحاته لكني لم أجد سوى صفحات فارغة بيضاء فبدأت أقلب فيه مرة أخرى ولكني وجدت صفحتان فقط مكتوب فيهم نص بعنوان "بداية الرحلة" فتعجبت من هذا الاسم وهاتين الصفحتين ولكني بدأت أقرأ لكي أجاوب على هذه الأسئلة التي تدور في ذهني.

وكان مكتوبًا فيهما:

لقد كان لي صديق قديم ذهبت لزيارته في الشرق الأوسط وخاصة في المغرب العربية وكان يريدني أن أزوره منذ زمن وكان يلح عليَّ بشدة فذهبت في رحلة صغيرة مع الجيش إلى هناك، كانت زيارة للتدريب بين الجيشين وكانت فرصة جميلة أيضًا لرؤية صديقي وكانت هذه الإجازة لمدة أسبوع واحد فقط، سافرت للمغرب الجميلة وكانت حقًّا بلدة رائعة.. في أول يومان كنا نزور فيها جميع الأماكن المعروفة والشواطئ والاستمتاع بالطقس الدافيء الجميل وتجربة المطاعم والأكلات الشعبية هناك..

وفي اليوم الثالث ذهبنا أنا وصديقي للتسوق فذهبنا لأكبر سوق هناك وأقدمهم على الإطلاق لأشتري بعضا من الأشياء التذكارية وبعض الملابس المغربية الجميلة..

وبينما نحن نتسوق أخبرني صديقي بأن هناك ساحر عظيم يقطن في هذا السوق يحقق لك أي شيء تريده مهما كان ولقد جربه شخصيا في بعض غاياته وأمنياته وقد ساعده حقًّا، وبأنه يجب عليَّ أن أجلس معه وأجربه فوافقت، وذهبت إليه من باب التجربة والمتعة فقط وليس أكثر، وعندما ذهبت وجلست معه طلبت منه شيء صعب قليلا لأري ما يستطيع أن يفعل وكأني كنت أستهزئ به ولا أصدقه، وهي أمنية غريبة بعض الشيء فهي ليست ملموسة كباقي الأمنيات السخيفة، بل معنوية وهنا تكمن صعوبتها ويكمن التحدي الأعظم وفي نفس الوقت إنها أمنيتي منذ زمن، فطلبت منه مقابلة "الوطن" وبأن يختبرني لأثبت لنفسي أن كنت أحبه حقًّا وبأنني

أستحق العيش على أرضه وأستحق أن أكون جنديا من جنوده والدفاع عنه أم لا فأنا أوشكت على الانتهاء من خدمتي في الجيش ولكني لم أفعل شيئا حقيقيًّا لوطني إلى الآن فكل ما أفعله هو ارتداء البدلة العسكرية والذهاب لعملي مبكرا، والعودة منه في آخر النهار كباقي الأعمال تماما بلا أية فائدة وبلا أي اختبار حقيقي لي، أنا أعلم بأنه طلب صعب لأن الوطن ليس مخلوق له روح لأطلب هذا ولكني أتمنى أن يتجسد لي في شخص أو روح لكي أشعر به وأتحدث معه أتمنى هذا حقًّا..

وعندما أخبرته عن أمنيتي وانتهيت، ابتسم ابتسامة رقيقة فهمت منها أنه قبل التحدي وبأنه يستطيع تحقيقها لي، ثم نظر في عيني وقال: ومن قال لك بأن الوطن ليس لديه روح كباقي المخلوقات، ثم أخذ ورقة وقلم وكتب فيها بعض الجمل الغريبة وأخبرني أن أقرأها عنما أعود لموطني ثم سيختبرني الوطن اختبارًا صعبًا جدًّا في مكان غير مكاننا وزمانا غير زماننا وأن الاختبار مليء بالآلام والمعاناة والعذاب والأوقات الصعبة ويجب عليَّ أن أتحمل كل ما سأمر به وأنه لا يعود من هذا الاختبار إلا فقط من يستحق العودة، ثم نظر إليَّ وقال مهما سوف يحدث لك تذكر أنك أنت من طلبت هذا وأنه يخصك أنت فقط، فلا تلوم أي أحد عليه، سأجعلك تقابل وطنك ولكن يجب أن تكون جديرا بالثقه لتقابلها ويجب أن تكون زعيما وقائدا قادرا على تحمل كل ما يواجهك هناك، ولن تختبر فقط إن كنت وطنيا أم لا بل ستختبر إن كنت إنسانًا أم لا فان كنت إنسانًا حقًّا ستصبح حينها وطنيا

حقًا، وعندما تنتهي ستقابل الروح وستحقق ما تتمنى ولكن لكل شيء شروط وشرط هذه الأمنية هي بأنها سوف تتوارث عبر العائلة إلى الأبد عن طريقك أنت لذا أي ذكر سيحمل دمك سوف يولد بهذا الشغف وهذا الحب وهذه الأمنية داخله وكل شخص بحسب قدرته وحبه وشجاعته، لذا سوف يخير أن يدخل هذا الاختبار ويشهد كل ما ستشاهده وستعيشه وإما أن ينسحب ولا يقرأ ويمضي في حياته، وأنت بنفسك من ستوصي على هذا هل توافق على هذا الشرط أم لا؟

- نعم أوافق.

وآخر شيء قاله لي كان: "تذكر جيدا أن ما يحدث لك هناك يحدث لك هنا".. وغادرت من عنده وأنا لا أصدق ولا أفهم شيئا نعم إنني حقًا كنت أتمنى هذا طوال حياتي ولكنها كانت أمنية خيالية أراها تتحقق في منامي فقط من المستحيل حقًا أن يقابل الشخص وطنه ويتحدث معه وما هو هذا الاختبار وكيف سيكون جميع هذا الأسئلة دارت داخل عقلي ولكن هناك شيء داخلي كان يحثني على التجربة.

لذلك كنت أريد العودة إلى وطني بفارغ الصبر، وبالفعل عندما عدت وقرأت الجمل تغيرت حياتي كلها رأسا على عقب وسترى هذا بنفسك قريبا وستعرف ما الذي حدث لي في النهاية.. أما الآن فقد حان وقتك يا جيمس فأنت مثلي تماما وورثت كل صفاتي، تحب وطنك جدًا وحلمك هو حلمي ومستعد أن تضحي بأي شيء لأجله فما أجمل أن تقابل وطنك وجها لوجه

وتتحدث معه كأنه شخص، وتخبره بكل ما تشعر به صدقني إنه أجمل شيء في هذه الحياة لذلك أهدي لك هذه التجربة الخطيرة وأنت أيضًا ستهديها بعدي وأنا واثق بأنك ستفعلها لقد رأيت هذا في عينك منذ ولادتك وعرفت بأنك ستكون الأفضل وتثبت حقًّا للوطن بأنك تحبه، ولكن إن كنت خائف أن تفعلها أو تغيرت بعد موتي وتغيرت فيك الأشياء الجميلة التي تركتك بها، لا تفعلها أرجوك واتركها لمن بعدك ولا تقرأ الجمل لأنك إن قرأتها وأنت لست واثقا من نفسك ولست واثقا من وطنك صدقني سوف تؤذي نفسك وستتمنى بأنك لم تفعلها.

وقبل هذه الجمل كتب جدي جملة صغيره كأنه كان يوصيني آخر وصية وكانت هذه الجملة "ثق به فإنه دائما حولك ودائما يحميك" فنهضت من على الكرسي وذهبت للمرآة ونظرت إلى نفسي وشكلي وحالي وأيقنت داخلي، بأني أحتاج هذا الآن أحتاج إلى أن أعرف من أنا وهل لازلت أسعى وراء حلمي أم لا، نعم إنني لست جنديا كي أدافع عن وطني، وحتى مهنة المحاماة هذه أصبحت فاشلا فيها ولكنني سأفعل أي شيء لأدافع به عن وطني وأنال هذا الشرف العظيم شرف مقابلته وأثبت حقًّا لنفسي أنني أستحق العيش على أرضه.. فرفعت الكتاب وقرأت الجمل، لقد كانت صعبة وغير مفهومة على الإطلاق ولكني لم أهتم فعقلي الآن تائه يفكر بأشياء كثيره، ثم ذهبت لأستلقي على السرير أنتظر ما سوف يحدث لكنني لم أستطع مقاومة النوم..

وبالفعل غلبني النوم حقًّا فأنا ما زلت متعبا ولم أكن أعتقد أبدًا أنه سيكون آخر نوم لي في هذا العالم!

إنه أنا جيمس ريتشارد وهذه قصتي وروايتي وكل شيء بها حقيقي وليس خيالًا على الإطلاق، لقد شعرت بكل شيء، وممرت بكل شيء قد كتبته، لذلك أحببت أن أتشارك معك آلامي أيها القارئ ومعاناتي للوصول إلى حلمي العظيم وهذا الشرف الأعظم لذا أرجوك إن وصلت عيناك إلى هذه السطور وهذه الجملة يجب عليك حينها أن تكمل القراءة لأن كل ما هو قادم فهو شيء لا يمكن نفسيره ولا تصديقه ولا لأي شيء خلقه الله أن يستوعبه ولكني سأحاول بقدر الإمكان أن أنقله لك كما شعرت به ومررت به تماما فإن كنت تريد أن تريح عيناك وعقلك قليلا قبل أن نبدأ ففعل ذلك الآن لأننا على وشك خلق عالم جديد يحتاج إلى التركيز والانتباه، وفي داخل هذا العالم ستبدأ الرحلة ويبدأ الاختبار.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع

"داخل القبيلة"

أشعر بألم حاد في رأسي وسائر جسدي، وأشعر بحرارة شديدة تكاد أن تحرق أطرافي، أشعر بأنني عطش جدًّا، وأشعر بأنفاس كثيرة حولي تخنقني، فحاولت أن أفتح عيني لكن ضوء الشمس يمنعها فحاولت وحاولت إلى أن استطعت فتحهما بعد معاناة، وتغلبت جفوني على ضوء الشمس ثم رأيت الكثير من الناس يلتفون حولي وينظرون إليَّ نظرات عجيبة نظرات خوف ممزوجة بالقلق والدهشة فنهضت من مكاني بسرعة كالمجنون أركض بعيدًا عنهم وبدأت أنظر حولي وأتلفت يمينا ويسارا، فرأيت أبقارا وخرافًا تمشي وبيوت خشبية وأكواخ صغيرة وأطفال يلعبون ويركضون ونساء هنا وهناك ورجال يحملون الرماح والأسلحه، وكلاب تنبح عند النيران المشتعلة، فبدأت أقول في نفسي من هؤلاء؟ وأين أنا؟ وما هذا المكان؟ فاقترب مني رجل عجوز ووضع يده على كتفي وهو يقول اهدأ اهدأ ولا تخف إنك الآن بخير، لقد سقطت على رأسك من ارتفاع كبير ولابد بأنك تعب جدًّا ثم أمسك يدي ليهدئني قليلًا.. وقال ستكون بخير الآن دعني أتفحص رأسك.. وبدأ يمسك رأسي ويتفحصها فوجد بها جرحا كبيرا وكانت الدماء تتساقط على عيني ووجهي، فنادى على فتاة تدعي إليزابيث لكي تأتي وتعالجني وتوقف هذا

النزيف الحاد.. نعم إنني أتألم كثيرا وبي جرح كبير لا يتوقف عن ضخ الدماء خارج جسدي ولا أذكر أي شيء ولا أذكر حتى من أنا وينتابني الخوف من كل شيء حولي، ولكن رغم كل هذا عندما رأيتها كأني قد رأيت شيئا أفقدني الشعور بكل شيء، لقد نسيت كل شيء حولي فجأة وسكتت جميع الأصوات وتوقفت جميع الصور وعيني لم تعد ترى إلا وجهها فقط ووجسدها الذي يتراقص كموج البحر تحت ضوء القمر وصوتها الناعم الذي يشبه ألحان الموسيقي وعينيها الزرقاوتين الممزوجتين بالسحر الأسود الذي يربطك بها إلى الأبد وشعرها الأشقر الذي ينساب على وجهها كأنه حصن يحميها ومملكة تتوجها لتكون الملكة بداخلها وبشرتها التي تلمع في الشمس وتتغلب على ضوئها.. كنت أتفحص كل شيء فيها وأحفظه بدقه خوفا أن أنساها كما نسيت كل شيء فأنا لا أريد أن أنسى هذا الجمال الذي سحر عيني وسحر كل شيء في.. أخذتني من يدي كالطفل الصغير الذي يمشي خلف أمه بلا أية مقاومة، وكنت في شدة فرحي لأنها تمسك يدي وتسحبني خلفها وأنا لا أفعل شيء سوى التحديق فيها والاستمتاع بملامستها.. أدخلتني كوخًا صغيرًا وأجلستني على كرسي ثم جلست أمامي وفي يدها قطعة من قماش وبعض من الخيط وبدأت تضمد لي الجرح وتخيطه وأنا لا أفكر في أي شيء أو أشعر بأي شيء فأنا الآن أحدق في نهديها المتلاصقين ببعضهما كأنهما ثمرتان لم أذق طعمهما طوال حياتي وأتمنى حقًا أكلهما، وأشعر الآن بأنني جائع جدًا ولم آكل منذ ألف عام لك أن تتخيل كيف هو شعوري الآن.. ورائحتها

الذكية هذه جعلت كل خلاياي تتخدر ولا أشعر بألم الجرح ولا ألم خياطته.. فقلت لها هل لي أن أسالك بعض الأسئلة؟

- تفضل أسال ما شئت.

- أنا لا أتذكر اسمي ولا أتذكر أي شيء عني هل تعرفين من أنا؟ هل تعرفين اسمي؟

- نعم أنت جيمس، لقد تربينا في نفس المكان سويًا فأباك كان صديق أبي وكان رجل طيب وكان اسمه ألبرت.

- هل لي عائلة؟ إذن أين هم؟

- لقد ماتوا جميعهم يا جيمس أنت الآن الوحيد المتبقي من عائلتك.

- هل تعني بأنني وحيد هنا وليس لي أحد.

- لا أنت لست وحيد فنحن دائما كنا بجانبك وكنا نساندك فأهل القبيلة هنا يحبوك كثيرا وأنت تحبهم وتعتبرهم عائلتك.

- حسنا إذا كنتِ فردا من هذه العائلة فأنا بالفعل راضٍ كل الرضا.

- فابتسمت ابتسامة جميلة جعلت قلبي ينبض بسرعة.. ثم قالت لي لقد انتهيت والآن نم قليلا لترتاح وعندما تستيقظ ستكون بخير وستذكر كل شيء حتى أنك ستتذكرني وستتذكر بأنني كنت أقرب الناس إليك وابتسمت ابتسامة أخرى جعلتني أريد أن أقبلها بشدة لكني خفت أن ألتهم شفتيها الورديتين.. ثم خرجت وتركتني في هذا الكوخ الصغير فوضعت جسدي على

السرير وأنا أشعر بتعب شديد ولكن كلما فكرت في هذه الفتاة وبأنني كنت صديقها المقرب تتخدر خلايا جسدي وتعطني الإحساس بالراحة والاستقرار الجسدي والنفسي.

أسمع أحد ينادي باسمي من بعيد فاستيقظت من نومي فوجدته والد إليزابيث وكان اسمه أرنولد لقد سمعت بعض الأشخاص ينادونه بهذا الاسم.. ولكنه لم يكن يعرف بأنه قاطعني عن إليزابيث التي كنت أحلم بها منذ قليل فأنا لا أملك ذكريات أخرى لأحلم بغيرها سوى هذه الذكرى الجميله.. فقال لي:

قبل أن أتكلم أو أفعل أي شيء هل تتذكرني؟ هل تتذكر هذا المكان؟ هل تتذكر ما كنت عليه أنت يا جيمس؟

- لا للأسف، لا أتذكر سوى ما حصل صباحا.

- يا إلهي أنت نسيت كل شيء ولم تعد تتذكر الماضي في وقت لا يجب فيه النسيان أبدًا ولا يجب حدوث شيء كهذا.

- ما الذي يحدث؟ هل هناك مشكلة ما؟

- سأشرح لك كل شيء بالتفصيل لكني سأشرح لك الجزء المهم من حياتك فقط والذي ولدت لأجله وستموت لأجله إنه أهم من أي شيء في حياتك.

- حسنا أرجوك أخبرني ما هو هذا الشيء المهم في حياتي؟

- حسنا اسمعني سأحكي لك من البداية.. ولدت قبيلتنا منذ خمسمائة عام وكان يحكمها ملك ظالم يستعبد الجميع ولا يفكر إلا في نفسه وسلطته وأعوانه لقد كان أنانيا جدًّا ولا يعرف أي شيء عن العدل بين الناس، لقد تركنا نموت جوعا ولم يكترث بنا أو حتى بأطفالنا كان يعيش لنفسه فقط.. وعندما مات خشينا أن يأتي ملك ظالم مثله ويفعل معنا ما فعله هو فذهبنا إلى الساحر وكان من أقدم الرجال وأكثرهم حكمه في القبيلة وأردنا منه المساعدة في اختيار الزعيم الجديد وبأن يكون محل ثقة ويستطيع أن يحكم بيننا بالعدل والمساواة ويفني حياته في حب هذه القبيلة والخوف عليها.. فأخبرنا بحل وحيد لا ثاني له وهو بأن نأخذ أفضل أربعة رجال في القبيلة ونرسلهم في رحلة خطيرة رحلة في مكان ما وسط الصحراء لكي يخوضوا اختبارا صعبا جدًّا هو من سيحدد الزعيم الحقيقي لهذه القبيله وهو من سيطمئنا بأن القبيلة في يد إنسان حقيقي.. لقد كان يلجا القدماء الى هذا الحل لمعرفة زعيمهم المقبل، وكانت تفلح فالرجل الذي يعود سالم من هذا الاختبار كان يحكم القبيلة بالعدل والمساواة ويفديها بروحه ودمه وكانت تملأه الحكمة لحل أي شيء، فأخذنا باقتراحه وأرسلنا رجالنا إلى هناك ولكن لم يعد من هناك أحد أبدًا لذلك كنا نقيم هذه الرحلة وهذا الاختبار الصعب كل خمسة أعوام ليتوفر في قبيلتنا أبطال جدد وشباب، وطوال المائة عام السابقين لم يرجع أحد أبدًا ولم يحكمنا زعيم حقيقي إلى الآن.. لقد كنا نضع زعيم مؤقت يدير شئون القبيلة ويحكمها إلى أن يأتي

الزعيم المنتظر ويخلص القبيلة من الضياع والفقر والتفكك وها أنت الآن واحد من أفضل الرجال الذين رشحناهم للذهاب إلى هناك.. أعلم أنك خفت الآن بعد هذا الكلام لكن يجب عليك أن تعلن موافقتك أو رفضك غدا أمام الزعيم وأمام الساحر وتثبت حقًّا بأنك تحب القبيلة أو لا، وإذا لم توافق سيكرهك أهل القبيلة للأبد لأنك فضلت نفسك وحياتك على مصلحة وطنك ومصلحة القبيلة كلها وحينها ستلعن نفسك كل يوم ألف مرة لأنك لم تذهب إلى هناك.. أنا أعلم بأنك نسيت الماضي ولم تعد تذكر أي شيء لكن حب الوطن في داخلك لم ولن يتغير أبدًا وهذه الرحلة هي التي ستحدد مصيرك ومصيرنا جميعا.

- حسنا أخبرني فقط كيف نسيت كل شيء هكذا؟ وهل كنت متحمس لهذا الاختبار قبل نسياني لكل شيء؟

- نعم لقد كنت متحمسًا جدًّا وموافق على أن تضحي بنفسك وكل ما تملك لأجل القبيلة ولأجل وطنك، أما بالنسبة لكيفية نسيانك إنها تافهة بعض الشيء، عندما أخبرتك بأننا اخترناك بأن تكون واحدا من الأربعة المختارين فرحت كثيرا وقررت أن تصارع ذئبا كبيرا أمام القبيلة كلها ليعرفوا مدى قوتك وجاهزيتك ولتبث فيهم روح الأمل وروح الوطن وبالفعل صارعته وقتلته أمامنا كلنا وقطعت رأسه وأخذتها إلى أكبر شجرة في القبيلة لتعلق الرأس عليها ليراها كل المارين.. وأثناء نزولك انزلقت قدمك وسقط على رأسك وحدث ما حدث.

- هل كنت أحب هذه القبيلة؟

- هذه الإجابة لا يعلمها إلا قلبك وروحك ولكني واثق بأنك تحبها وبأنك ستوافق على الخوض في هذا الاختبار، أراك غدا صباحًا.

خرج وتركني أفكر، هناك حرب داخل عقلي لا أدري ماذا أفعل.. في كلتا الحالتين الأمور سيئة إن وافقت من المحتمل أن أموت هناك وألا أعود وإن لم أوافق سيلعنوني أهل القبيلة وسأكون في أعينهم خائفا جبانا وأفضل الموت حقًّا على العيش هكذا.. خرجت لأشتم بعضا من الهواء النقي فرأيت نيران مشتعلة تلتهم بعض الأخشاب هناك ولا أحد يجلس عندها فذهبت وجلست هناك لأتدفأ وأفكر قليلًا.. وبعد قليل رأيت إليزابيث تخرج من كوخها ويتطاير شعرها الناعم خلف ظهرها وتتوجه إليَّ مباشرة، فأتت ووقفت أمامي وقالت هل تسمح لي بالجلوس معك.

- وكيف أمانع أن تجلس بجانبي أجمل شيء رأته عيني إلى الآن.

فابتسمت وجلست بجانبي وكنت فرحا بعض الشيءً لأني أجلس بجوارها.. وبعد قليل أردت إخبارها بكل ما يدور في عقلي فأنا حقًّا أحتاج إلى شخص ما لأتحدث إليه وهي أنسب شخص لذلك فقلت لها أريد أن أتكلم معك قليلًا.

- كلي آذان صاغية.

- لقد استيقظت في مكان لا أعرف ما هو ولا أعرف أي شيء حولي، حتى إنني لا أعرف من أنا نسيت كل شيء، نسيت من كان يكرهني، نسيت من كان

يحبني حتى أنني نسيت أفضل وأجمل شيء كنت أتذكره وهو أنتِ، وفجأة يخبرونني بأنهم اختاروني لأجري اختبارًا مصيريًّا سيحدد مستقبل القبيلة وهذا الاختبار لم يعد منه أحد أبدًا وإن رفضت سيلعنوني ويكرهونني وأعيش طوال حياتي أتمنى الموت، ولا أدري إن كنت حقًّا أحب هذه القبيلة أم لا؟ ولا أدري ماذا فعل؟

فاقتربت مني ولامس كتفها كتفي ونظرت في عيني وأمسكت يدي وقالت أسيفرق معك الماضي لو تذكرته؟ أنا أعرف ماضيك جيدا يا جيمس، لقد كان مؤلم جدًّا ولا أظنك تود أن تتذكره أنت أفضل من أي أحد هنا لأنك ولدت من جديد، عقل جديد وقلب جديد وذكريات جميلة ليست مؤلمة وحياة أفضل، صدقني الماضي لا يهم إطلاقًا بل مستقبلك وما ستصنعه فيه.

فشعرت بشيء غريب شعرت بأن قلبي يلامس قلبها فاقتربت مني وقالت أنا معك ولن أتركك أبدًا مهما حدث فأنت لا تعرف مقدار حبي لك وفجأة لامست شفتاها شفتاي وشعرت حينها بأنني لا أريد شيئا في حياتي سوى أن تدوم هذه القبلة للأبد ثم قالت:

هل تعلم بأننا كنا سنتزوج قريبا لكن ما حدث هذا وما يحدث أجبرنا على تأجيل الزواج.

ثم تركتني وذهبت وحينها قررت بأني أن كنت سأبدأ حياتي من جديد إذن سأبدأها وأنا بطل وليس وأنا جبان أخشى الموت.

سأشارك في الاختبار ولن أخذل أهل القبيلة سواء نسيت الماضي أم لا فهذا مصيري وهذا وطني.

استيقظت من نومي فجأة وشعرت بأنني ظمان ولم أشرب منذ سنوات فاتجهت إلى الماء وبدأت أشرب وأشرب وكانت النافذة مفتوحة فنظرت إلى القمر والنجوم، وكأني أعرف هذا المنظر جيدا كأني أتذكره كأنني كنت أحبه وأعرفه كأنني أملك معه ذكريات كثيره لكنني لا أذكر أي شيء منها فتركت الماء من يدي وجلست أمام النافذه قليلا أتأمل هذا المنظر البديع.. يا إلهي لقد كنت أعشق هذا المنظر في الماضي وحتى عندما فقدت ذاكرتي ما زلت أحبه.. حقًّا إن ما تربى عليه قلبك ونضجت عليه روحك من المستحيل أن تنساه ومن المستحيل أن يتغير حتى مع مرور الزمن أو اختلاف الظروف.

الفصل الخامس

"على المنصة"

طلعت الشمس وجاء اليوم المنتظر الذي سيحدد أشياء كثيرة والذي سيعرف فيه أهل القبيلة قراري وموقفي من الذهاب في هذه الرحلة.. أتى أرنولد ليقظني لأستعد جيدا لمقابلة الساحر والزعيم فارتديت ملابسي ودعوت ربي سرًا أن يقف بجانبي ولا يتركني أبدًا.. وعندما وصلنا كانت القبيلة كلها هناك حتى إليزابيث كانت تقف بين الجموع لقد أتت لتراني في هذه اللحظة الصعبة.. فصعدت إلى المنصة الخشبية ليراني الجميع وصعد معي اثنان آخران وأظن بأنهما المختاران والمرشحان لهذا مثلي.. فلقد عرفتهما من تحية الناس لهم ومن الخوف والقلق في أعينهم ولكن تبقى واحد لكي نصبح أربعة لكني لم أهتم ولم أشغل تفكيري كثيرًا فكل ما أفعله هو النظر في عين إليزابيث لتمدني بالقوة والشجاعة للثبات في هذه اللحظة، وبعد ثوانٍ معدودة سمعت صوت بوق كبير لا تستطيع أن تعرف مصدره ثم هلل الناس وارتفع صياحهم ففهمت أنها علامة وصول الزعيم.. ثم تأهب الجميع لاستقباله وصعد إلى المنصه ثم صعد الساحر خلفه وعندما رأيت الساحر تعجبت والتفت إلى أرنولد وقلت له: إن الساحر لا يبدو عليه العجز الشديد كما أخبرتني.

- إن السحرة يتوارثون من بعضهم المكانة والمنصب والعلم وهذا هو ساحرنا الآن..

أظننت أنه نفس الساحر الذي حدثتك عنه سابقا لقد مات منذ زمن بعيد إنه واحد آخر أيها الأبله والآن اصمت ولا تتكلم.. فصمتنا جميعا وصمت جميع الناس ننتظر الشخص المتبقي لكي تبدأ مراسم الاختيار.. وبعد قليل صاح الجميع فعرفت أنه وصل ثم صعد إلى المنصه ووقفف بجانبنا فالتفت لكي أراه وحينها شعرت بألم شديد في رأسي بعدما شاهدت هذا الشخص على أنه رجل عجوز وكان يبتسم لي وملامحه ليست غريبة على كأني أعرفها جيدا وأحفظها لكني لا أستطيع التمييز فجثوت على ركبتي أشعر بدوار شديد وفجأة لم أعد أرى شيئًا وسقطت أرضًا لا أعلم ما الذي يحدث لي.. حملوني وذهبوا بي إلى خيمة قريبة من المنصة ووضعوني فيها وأمرهم الساحر بأن يخرجوا ويهدئوا الناس ويخبروهم بأني سآتي قريبا وسأواصل مراسم الاختيار، وأنه مجرد تعب بسيط لا أكثر.. وبعد أن خرجوا من الخيمة أمسك قاروره صغيرة وفتحها ووضعها عند أنفي لتساعدني رائحتها المقززة على إيقاظي.

وبالفعل بدأت رائحتها في إزعاج شعيرات أنفي وخلايا عقلي فبدأت أفتح عيني رويدا رويدا ووجدت الساحر يقف أمامي فقلت له ماذا حدث لي؟

- لقد سقطت فجأة على المنصة مغشيًّا عليك وخاف الناس عليك كثيرًا وقلقوا هل أنت بخير؟

فنهضت من مكاني مفزوعا وقلت له لقد رأيت الشخص الرابع على أنه رجل عجوز أقسم لك لقد كان عجوزا.

- لا، إنه ليس كذلك يا جيمس.

- لكنني متأكد بأني رأيته.

فنهض وفتح لي جزءًا صغيرا من ستارة الخيمة لأنظر منها على المنصة فنظرت فلم أجد رجلا عجوزا لقد وجدت شابا عاديا أبيض اللون أشقر الشعر وذا عضلات لم يكن عجوزا على الإطلاق كالذي رأيته منذ قليل.. فجلست وأمسكت رأسي وبدأت أقول كيف؟ ماذا يحدث لي؟

- أنا أعلم يا بني.. لقد بدأت في استعادة ذكرياتك وهذا الذي رأيته منذ قليل هو شخص من ذاكرتك القديمة ولا تسأل كيف عرفت؟.. واعرف أيضًا بأنك سترى مثل هذه الأشياء كثيرا جدًّا إلى أن تستعيد ذاكرتك..لكن هذا سيضعفك يا بني وسيجعلك متوترًا وأنت تحتاج إلى نفسٍ مهيأة لخوض هذا الاختبار بدون أي ضغوط لذا يجب عليك أن تحبس هذه الذكريات في عقلك وإن ظهرت لك لا تعرها أي اهتمام ولا تصب تركيزك إلا على الاختبار والرحلة الصعبة فقط والآن اخرج إلى هؤلاء الناس وطمئنهم وأعطهم أملًا يتمسكون به ولا تخذلهم أبدًا يا جيمس.

بدأ الزعيم بإلقاء كلمته على الناس وأنا لم أكن في هذا العالم بل كنت في عالم الذكريات أتذكر لحظات وأوقات غير مرتبة وأماكن وصور غير

معروفة وكنت أحاول إخراجها من عقلي وعدم التفكير فيها لكني لا أستطيع لذلك يجب على أن أتحمل وأصبر لأكمل الطريق فلابد أن هذه أول عقبة لي في طريقي ويجب أن أتخطاها.

أنهى الزعيم كلمته ثم توجه إلينا ووقف أمامنا وقال لقد حان وقت السؤال والاختيار فسكت الجميع وعم الهدوء المكان.

وبدأ الزعيم في سؤال أول واحد منا وهو جوناثان.

وقال له: هل أنت موافق على أن تضحي بنفسك وكل ما تملك لأجل هذا الوطن وأن تذهب في رحلة ستحدد مصيرك ومصير القبيلة أجمع لكي تثبت حبك للوطن وتثبت بأنك جدير بخلافة هذه القبيلة؟

- نعم يا سيدي أوافق.

فصاح الناس فرحة وبهجة ثم انتقل إلى الشخص الآخر.

وكان اسمه جوزيف فوافق أيضًا ثم انتقل إلى آدم الذي خانتني عيني ورأيته رجل عجوز ووافق أيضًا ثم أتى إليَّ وأتت اللحظة التي ينتظرها الجميع وسألني نفس السؤال الطويل هذا فنظرت إلى الناس وإلى إليزابيث بينهم لقد شعرت وقتها بشعور غريب لقد شعرت من داخلي بأنني أريد هذا وأتمناه منذ زمن وبأنني أخيرًا حصلت عليه ثم نظرت إلى الزعيم وأعلنت موافقتي وبأن أكون خادما للوطن وخادما لأبنائه.. فصاح الناس وهللوا للأبطال الأربعة ففي كل مرة يقفون فيها مثل هذه الوقفه يولد فيهم الأمل في

عودة أحدهم في عودة الزعيم القادم الذي سوف يأخذهم إلى بر الأمان والحياة المنشودة.

قال الزعيم: سنقيم اليوم احتفالات بهذه المناسبة الرائعة ولكن وقبل كل شيء سنسمع من الأبطال آخر أمنية لهم لكي نحاول تحقيقها قبل ذهابهم في هذه الرحلة فسأل جوناثان أولًا فتمنى أن يظل مع زوجته كارلا وابنتيه روزلي وديانا إلى يوم الرحلة دون أي إزعاج، وجوزيف أراد أن يخرج في رحلة صيد أخيرة مع أصدقائه الصيادين ليودع مهنتة التي طالما أحبها، ثم قال آدم بأنه لا يريد أي شيء.. والآن قد حان دوري والناس كلها تنظر إليَّ تريد معرفة ماذا سأتمنى، فصمت قليلا أفكر وأفكر ولم أجد سوى شيئا واحدًا أتمناه حقًّا الآن فاستأذنت الزعيم ونزلت إلى الناس وذهبت إلى إليزابيث وأمسكت يدها وأخذتها من وسط الجموع وصعدت بها إلى المنصة ووقفت أمام الزعيم وقلت له: ليس لدي سوى طلب وحيد أتمنى تحقيقه حقًّا، أنا أريد أن أتزوج إليزابيث وأقضي معها آخر ليلتين لي في القبيلة فهذا أكثر شيئا أتمناه حقًّا في هذه الدنيا..فابتسم الزعيم وصاح الناس فرحا حتى هي فرحت كثيرا لأنها لم تكن تتوقع هذا على الإطلاق.. ثم نظر الزعيم إلى والدها وهو أرنولد ليعرف رأية فقال أرنولد دون تفكير أنا أتشرف بأن أزوج ابنتي لبطل من الأبطال فوافق الزعيم على طلبي وازداد الناس فرحا وصياحا.. ثم وقف الساحر أمام الناس ورفع عصاه التي يحملها ونظر إليهم وقال إذن ستكون الليلة احتفالًا بالأبطال وزواج جيمس من إليزابيث..

فعانقتها عناقا شديدا فرحا لأني سأتزوج هذه الجميلة هذه الحورية التي لم أرَ مثلها أبدًا حتى الآن.

نظرت لي في عيني وقالت لمَ فعلت هذا لماذا اخترتني مع انك فاقد للذاكرة ولا تتذكر ما الذي كان بيننا في الماضي حتى لا تتذكر إن كنت تحبني أم لا.

- عندما رأيتك أول مره لقد دق قلبي بسرعة كبيره وارتاح عقلي لملامح وجهك وكأنه كان يعرفك في الماضي وجسدي أراد بشدة أن يلامسك كأنه مشتاق إليك كأنه كان يعشقك ولا يستطيع العيش بدونك، والآن بدأت بعض الذكريات في العودة لي ولكني أريد أن أبني معك مملكة من الذكريات لا أريد غيرها حتى أنني لا أريد الماضي بل أريدك أنتِ وأريد أن نكون سويًا في المستقبل.

- وهل تذكرت أشياء من الماضي؟

- اممم أعتقد أنني تذكرت ابتسامتك الجميلة التي تسحر القلوب وتذكرت جمالك الذي لا تحتملة الأعين البشرية ثم لم أعد أرى شيئا آخر أو أعره اهتمام فذكرياتك داخلي تكفيني وتشبع عقلي وتمنعه عن النظر لأي ذكرى أخرى لا تكوني أنتِ فيها.

فضحكت ثم قبلتني وعانقتني بشدة وذهبت لتستعد لمراسم الزواج أما أنا فذاهب إلى الساحر إنه يريد أن يرى المختارين قبل الذهاب للرحلة وأن يجلس معنا مرة أخرى.

كان يجلس في خيمة سوداء ضخمة في وسط القبيلة تهابها من منظرها قبل أن تدخلها.. دخلت الخيمة ورأيت الثلاثة الآخرين والساحر جالسين في الداخل ينتظرونني فجلست وبدأنا نستمع إلى الساحر وقال: لقد أتيت بكم هنا الآن لكي أتكلم معكم قليلا عن رحلتكم وأخبركم بعضا من الأشياء الذي سوف تتبعونها هناك ليعود منكم البطل سالما إلى الديار.

- حسنا أخبرنا كلنا آذان صاغية.

- حسنا اسمعوا هذا الكلام وضعوه في خزانة عقولكم وطبقوه جيدا ولا تنسوه أبدًا، لقد اجتاز هذا الاختبار في الماضي وقبل ولادة قبيلتنا القليل من بين الآلاف والآلاف وعندما سألناهم كيف اجتازوه وعبروه.

لم يخبرونا سوى شيئًا واحدا وهو أنه يجب على المسافر في هذه الرحلة أن يفتح قلبه لروح الوطن ويدعها تتغلغل داخله وتصبح جزءا منه بل ويجعلها تتملكه ويجتمع هو وهي داخل جسد واحد وعندما يحدث ذلك سيقابلها ويتكلم معها وحينها سيصبح مستعدا لأن يكون زعيما وسيجد نفسه عائدا إلى دياره..

ولكن احذروا بأن هذه الرحلة صعبة جدًّا أكثر حتى مما تتصورها عقولكم، سوف تذهبون في هذه الرحلة وستضع لكم روح الوطن اختبارات صعبة جدًّا وستلعب بأفكاركم ومشاعركم وضعفكم لكي تعرف من منكم يستحق حقًّا أن يكون الزعيم، وهذا ليس كل شيء فإن الاختبارات ليست

كلها عن الزعامة فقط بل عن حياتكم أيضًا وعن كل ما ستمرون به وأنت زعماء أقوياء لذلك إنه ليس هينا أو سهلا ولكن من يحب وطنه ومستعد لفعل أي شيء لأجله سيجتاز ألف اختبار دون أن يخاف أو يقلق "ثقوا به فإنه دائما حولكم ودائما يحميكم"..

لا أدري لكنني أظن بأنني سمعت هذه الجملة مسبقا لكن هذا لا يهم الآن، المهم بأنني أيقنت داخلي بأن هذا الاختبار ليس سهلا وأنني يجب أن أبذل قصارى جهدي لأثبت للوطن من أكون..

قال الساحر:

- حسنا حان الوقت الآن لاختيار الزعيم، ستختارون فيما بينكم قائد يوجهكم هناك كي تصبحوا متفقين في أي شيء يقوله والآن من تختاروا؟.

فقال آدم: أنا أختار جيمس ثم قال جوناثان:

وأنا أيضًا أختار جيمس،

ثم قال جوزيف:

أنا أيضًا، فابتسم الساحر وقال:

لقد اخترتم الرجل الصحيح ثم قال إن الوطن هناك معكم في كل مكان حاولوا أن تجدوه وتثقوا به وصدقوني عندما تفعلوا ذلك سيصبح كل شيء أفضل ومن يقابل منكم الروح فليبلغها سلامي وحبي إليها.

لم أكن أعرف بأنهم يثقون بي هكذا ليختاروني زعيمهم هناك لابد أنني كنت في الماضي شخصا لا يستهان به.

ذهبت لكي أستعد جيدا لهذا اليوم.. فاليوم هو زواجي على أجمل امرآه خلقها الله على هذا الكوكب..

جاء وقت الحفل وأنا أقف أمام المنصة التي سيقام عليها مراسم الزواج أنتظر عروستي الجميلة، وفجأة بدأ الناس في الصياح والتهليل فعرفت بأنها وصلت.. ثم ظهرت من بين الجموع ورأتها عيني وميزتها من بينهم وحينها توقف كل شيء داخلي عن العمل والحراك إلا عيني هي التي كانت تراقبها بشدة وتحاول تصديق المنظر الذي تراه الآن..

لقد كنت أراها تشبه حورية في بحر مظلم لا ينيره الضوء المنبعث من وجهها.. إنها حقًّا كالجنة وها أنا أدخلها الآن بقدمي ولكني للأسف أشبه آدم الذي حرم من الجنة ونعيمها بسبب تفاحة صغيره وها أنا الآن سأحرم من الجنة من أجل شيء لا أعرف أصلا ما هو، يا إلهي إني أتمنى حقًّا أن أقضي معها باقي عمري.

انتهينا من كل شيء، انتهينا من المراسم والحفل والرقص وكل الاحتفالات والأغاني وذهبنا إلى كوخنا لنكمل باقي اليوم ولأكمل أنا حلمي الذي لا أحلم بغيره وهو النوم بجانب هذه المرأة الجميله التي لا يستطيع أي رجل على وجه الأرض مقاومتها..

دخلنا كوخنا وأغلقت الباب خلفي وكانت إليزابيث متألقة في فستانها الرائع فجلسنا على السرير بجانب بعضنا ثم أمسكت يدها ونظرت في عينها وقلت: أنا أحبك يا إليزابيث، نعم إنني لم أقض معك مزيدا من الوقت بذاكرتي الجديدة ولا أذكر أي مواقف بيننا أو ذكرى سعيدة تجمعنا لكنني متيقن أنني في الماضي كنت لا أحبك فقط بل كنت أعشقك أيضًا.. ثم نهضت من على السرير وانتزعت فستانها لكي أرى أجمل تحفة فنية على الإطلاق لقد كان جسدها، هذا الجسد المتناسق لدرجة غير معقولة وكل منطقة به كانت أجمل من الآخرى فبدأت أتحسسه بيدي وكأن عقلي يريد التاكد بأن هذا الجسد حقيقي وليس من وحي خيالي، ثم خلعت أنا الآخر ملابسي وصعدنا معا فوق السماء بعقولنا وإحساسنا.. ثم قضينا هذه الليلة سويًّا وكانت من أجمل ليالي عمري على الإطلاق.. ومكثنا في أحضان بعضنا طوال الليل لا نريد شيئا من الحياة سوى أن نبقي سويًّا وأن تتدفأ أجسادنا ببعضها وأن لا تمر هذه اللحظة الجميلة أبدًا.

وفي اليوم الثاني والليلة الثالثة لي في هذه القبيلة، أنام في أحضان أجمل عروس على الإطلاق فأنا لم أرَ الشمس منذ يومين منذ أن تزوجتها فأريد أن أشبع حواسي وجسدي منها لأنني لا أعلم هل سأراها مجددا أم لا.

أنظر إلى ملامح وجهها وهي نائمة سأشتاق إليها كثيرا هذه الفتاه إنها أكثر شخص شعرت معه بالسعادة أو بمعني أصح أنا لم أشعر قط بالسعادة إلا معها لأني لا أعرف غيرها ولا أتذكر شيء سوى هذا الجمال،وبلا أي إرادة أو

تحكم دمعت عيني فجأة وسقطت قطرة على خدها الناعم، فاستيقظت ورأتني أبكي فمسحت دموعي بكفها الرقيق وقالت لي ما بك؟ لماذا تبكي يا حبيبي؟ لماذا تبكي أيها البطل؟

- أخاف ألا أعود وأحرم نفسي منكِ ومن رؤتيك مجددا سأشتاق إليك كثيرا وكل قطعة من جسدي ستشتاق إليكِ أيضًا.

- حتى إن لم أرك ثانية يا جيمس ستظل محبوسا في قلبي إلى يوم موتي، وعندما أموت سأشاركك الجنة وسنعيش إلى الأبد سويًّا دون خوف من أن نترك بعضنا البعض، لا تقلق عليَّ سأكون بخير وسأنتظرك لأنني أعلم بأنك ستفعلها وأثق بك ثقة لا محدودة ثقة عمياء وأشعر بأنك ستعود لي مرة أخرى وستعود إلى أحضاني مجددا.

الفصل السادس

"لقد بدأت الرحلة"

أتى أرنولد ليوقظني من بين أحضان ابنته لأستعد للذهاب فقد حان الوقت الذي كنت أنتظره في الماضي بفارغ الصبر ولكن الآن لا أعلم إن كنت أريد الذهاب حقًّا أو لا.

جهزت نفسي وارتديت ملابسي واتجهت إلى غرفة بها مرآة متهالكة صغيرة لا أرى منها سوى من جزء صغير جدًّا، لكنني كنت أريد أن أنظر إلى نفسي وشكلي، فمن الممكن أن تكون آخر مرة لي أن أرى فيها نفسي وملامحي، ولكنني كنت أتأمل نفسي بشدة كنت أريد أن أهيئ نفسي جيدا لهذه الرحلة فلقد كنت أنظر إلى شعري البني الداكن وجسمي الممتليء بالعضلات وبشرتي السمراء الجميلة، وكأني كنت أقول إلى نفسي بأنني يمكنني أن أفعلها وبأن شكلي هذا لا يهم في أي شيء حتى وإن كنت أقوى رجل في العالم، المهم هو قلبي وقوته على التحمل وقدرته على البقاء، ثم قاطعني أرنولد وأخبرني بأن لا أحمل معي أي شيء فحقيبتي مجهزة وبها كل شيء أحتاجه ولا تنتظر سوى البطل الذي سوف يرتديها.. ودعت إليزابيث وقبلت رأسها وعانقتها بشدة عناقا قد يكون الأخير ونظرت في عينيها لأشبع من جمالها فاقتربت مني وخلعت سلسلتها التي كانت تنير رقبتها وكأنها تماما خلعت نجمة من نجوم

سمائها ووضعتها حول عنقي وهمست في أذني وقالت سأنتظرك لكن لا تتأخر عليَّ ثم قبلت شفتيَّ وبدأت عيناها في الدموع وكدت أنا أيضًا أن أبكي لكني تمالكت نفسي واستجمعت قواي وخرجت من الكوخ وتركتها وتركت جزء من روحي معها بل أنني تركت روحي بأكملها هنا.

كان المئات من الأشخاص يقفون أمام الكوخ يريدون توديعي فمررت بينهم كأنني لا أعرفهم ولا أراهم، أحاول تصفية ذهني من جميع الأفكار التي تراودني الآن ولكن ما قاطعني وجعل عقلي يفيق مما هو فيه هو بأنهم كانوا يلمسون كتفي وجسدي كأنهم يباركونني أو يعطونني القوة والأمل والدافع للبقاء هناك على قيد الحياة ولكن حقًّا قد شعرت حينها ببعض المسؤولية وبعض الإيمان بنفسي بأنني لابد وأن أتحلى بالقوة.. وبعد أن انتهت هذه الصفوف البشرية وجدت الزعيم والساحر والثلاثة المختارين، وعندما اقتربت منهم قال جوناثان: لقد تأخرت كثيرا يا جيمس.

- أنا آسف لقد كنت تعبا جدًّا ولم أشعر بالوقت.

ثم رد عليَّ آدم بكل سخرية: نعم لقد كان زواجه منذ يومين وهذه كانت الليلة الأخيرة كيف لا يكون متعبًا.. ثم ضحك وضحكوا جميعهم وأنا قد ابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم أعطاني أرنولد حقيبتي وقال ارتديها ثم تكلم الساحر وقال إن بها بعض من الملابس وكثير من الطعام والشراب لتساعدكم في رحلتكم ثم قال إن مدة الرحلة هي خمسة أيام فقط ولكن

بالنسبة لنا نحن أما بالنسبة لكم أنتم ليس لها وقت محدد فمن الممكن أن تمتد لأيام وأسابيع وشهور وكل ما تمر به من وقت هناك هو مجرد خمسة أيام لا أكثر ولا أقل، لقد أحببت أن أخبركم لكي لا تقلقوا على أنفسكم هناك وتحسبوا أنكم لن تعودوا.

انطلقنا وذهب معنا الساحر لأنه هو الوحيد الذي يستطيع تحديد المكان ومعرفته.. وكانت رحلتنا مشيا على الأقدام بدون ركوب أي دابة تسهل علينا الطريق وإن سألتم لماذا لأنه يجب عليما استشعار قيمة هذه الرحلة والتعب في الوصول إليها وفي نفس الوقت تهيئة النفس جيدا.

نمشي لساعات وساعات نجوب الصحراء الحارة بقيادة الساحر الذي كان يعرف أين يذهب حقًّا، كأنه كان يأتي هنا كثيرا أو كأنه كان يعيش فيها قبل ذلك.

لقد أوشك غروب الشمس على احتلال الصحراء، فقرر الساحر أن نخيم هنا الليلة ونكمل السير غدا فجمعنا الحطب والصخور أو بمعني أصح كان هناك البعض منها في حقائبنا لظروف مثل هذه ثم أشعلنا النيران وجلسنا حولها لنتدفأ ولنأكل بعض من الطعام الساخن ليدفئ بطوننا.. وفي ظل تحديقنا للنيران كان الصمت يعم المكان كانت عقولنا تفكر في أشياء كثيرة تتضارب داخلها.. فتكلم الساحر وقطع تفكيرنا وقال أعرف أنكم خائفون وقلقون جدًّا من عدم العودة ومن عدم رؤية أهلكم مجددا، لقد

أتيت إلى هنا ثلاث مرات في الماضي ولكن وفي كل مرة كنت أجلس نفس الجلسة وفي نفس المكان كنت أنظر في أعينهم كما أنظر في أعينكم الآن ولكنني لم أكن أرى البطل وكنت أوقن داخلي بأنهم لن يعودوا ولن أراهم مجددا ولكن هذه المرة أرى شيئا غريبا أرى شيئا مختلفا في أعينكم لم أره من قبل وأشعر بأن أحدكم سيكون البطل وسيعود ليحكم هذه القبيلة بيد من حديد وأنا شعوري لا يخطئ أبدًا..

أخمدنا نيراننا وذهبنا في نوم عميق لكي نستجمع قوانا التي فقدناها على مدار اليوم ولكن صدقوني لقد كانت أسوأ ليلة أنام فيها.. استيقظت على ضوء القمر والجميع نيام أستطيع سماع صوت أنفاسهم الخائفة تملأ المكان، فشربت بعضا من الماء ونظرت إلى السماء المليئة بالنجوم المنيرة التي تحيطنا من كل اتجاه ونظرت حولي لأرى الظلام والهدء، ثم عدت إلى مرقدي أفكر بأنني إن لم أنجح في هذا الاختبار كيف سأعود وكيف أنني سأخذل كل من أعرفهم؟ وكيف سأخذل وطني ولكني تذكرت جملة أتت من تلقاء نفسها داخل عقلي وهي "ثق به فإنه دائما حولك ودائما يحميك" فأخذت نفسا عميقا وأقسمت بأنني سأبذل قصارى جهدي لكي أعود من هذا الاختبار سالما.

رأينا صخرة كبيرة هناك فسمح لنا الساحر بالجلوس عندها والاستراحة وعندما جلسنا سأله آدم وقال: متى سنصل؟ لقد تعبت من المشي هكذا، فرد الساحر بكل سخرية:

- لو تعلم ما ينتظرك هناك لفضلت المشي ألف عام بدون توقف ولكن لا تقلق لقد اقتربنا كثيرا.

ثم انطلقنا مرة أخرى بين الرياح وبين الكثبان الرملية التي تظهر فجأة وتختفي فجأة، وبعد ساعتين من المشي توقف الساحر أمام أرض كبيرة مستوية مختلفة عن باقي الصحراء فلقد كانت أرض مرصعة بالأحجار اللامعة حتى لونها كان مختلف قليلا عن باقي الصحراء فتوقفنا عندها لكي نلتقط أنفاسنا.. وقف الساحر عند بدايتها ثم أمسك عصاه وأغمض عينيه وبدأ يتحسس الأرض وترابها وأحجارها ثم فتح عينة وقال لقد وصلنا ارجعوا إلى الخلف قليلا.. فرجعنا إلى الوراء ثم رسم بعصاه خطا طويلا على هذه الأرض الغريبة ثم جثا على ركبتيه ووضع يده في الرمال وبدأ يتمتم بكلام غريب لم نفهمه وفجأة اهتزت الأرض من تحته ومن تحتنا أيضًا ثم نهض من الأرض بسرعة وعاد إلى الوراء ليقف بجانبا، وفجأة بدأ جسم غريب بالصعود من داخل هذا الخط الذي رسمه ومن داخل هذه الأرض الغريبة، وكان شيء حديدي ضخم وكان يرتفع أكثر فأكثر إلى أن حجب علينا ضوء الشمس من ضخامته وحجمه وبعد أن تساقطت من عليه كل الرمال عرفنا حينها بأنها بوابة حديدية ضخمة وكانت صدئة بعض الشيء وشكلها يوحي بالرهبة والخوف، لقد ارتعبت حقًّا عندما رأيتها.

قال الساحر لقد وصلتم، والآن ستكملون الطريق لوحدكم وقبل أن يكمل كلامه فتحت البوابة على آخرها ثم قال: تذكروا أن الوقت بعد هذه

البوابة مختلف عن وقتنا هذا فكلما طالت بكم المدة داخلها لا تقلقوا ولا تفزعوا وثقوا بالوطن، والذي سيخرج منكم حيا سيجد الزعيم بانتظاره فأنا أوصلكم إلى هنا والزعيم هو من سيأخذكم.. ثم أمرنا بالدخول والمشي إلى الأمام دون النظر إلى الخلف لمدة لا تقل عن عشرة دقائق.. سلمنا عليه وقبلنا يده لكي نحصل على بركته ثم عبرنا البوابة بكل حذر تاركين خلفنا كل شيء لا نفكر إلا بكل ما سناقبله.. وكنا نمشي بكل خوف وتوتر وقلق.. وبعد أن مشينا قرابة الربع ساعة وبعد أن انتهت الدقائق نظرنا خلفنا فلم نجد البوابة ولم نجد الساحر وكأنهما اختفيا تماما.. والآن وأخيرًا لقد بدأت الرحلة.

أول شيء فعلناه وفكرنا فيه هو أن نخرج من حقائبنا بعضا من الحطب فنحن نريد الاستعداد لأول ليلة مخيفة على هذه الأرض الغريبة.. جلسنا حول النيران خائفين مرعوبين من كل شيء حولنا حتى من ظلنا فقال جوناثان والآن ماذا سنفعل؟

فجاوبتة: لن يحدث شيء سوف ننتظر وسوف نكون مستعدين لأي شيء نقابلة سويًا فقط تحلو بالصبر والثقة.. فسكت الجميع ووجهوا نظراتهم إلى الحطب المشتعل فكل واحد منا بداخل رأسه عالم يفكر فيه.. أما أنا فكنت أحدق إلى القمر وفي يدي سلسلة إليزابيث، أتمنى فقط لو أعانقها وأنم في أحضانها مثل ما فعلت في الليلتين السابقتين وكأن جسدي اعتاد على رئحتها واعتاد سماع صوت أنفاسها.

أشعر بحرارة شديدة تحتي كأن الرمال تحولت إلى لهب يلتهمني من الأسفل وحرارة الشمس الشديده تحرق وجهي وجلدي وأشعر بعطش شديد لم أشعر به مسبقا وكأن الشمس امتصت من جسدي الماء وتركتني في جفاف قاتل.. فاستيقظت وتحسست الرمال بجانبي باحثا عن حقيبتي لكي أشرب بعضا من الماء وأروي جسدي الخالي من السوائل لكني لم أجدها فنهضت من مكاني مفزوعا أتفقد المكان ولكنني لم أجد الحقائب الآخرى فقلت بصوت عالٍ مليء بالخوف والفزع والعطش الشديد انهضوا بسرعة لقد اختفت حقائبنا.. فنضهوا مفزوعين على خبر كهذا لا يصدقون ما يسمعون فبدأوا بالبحث عنها في كل مكان فإن بقينا هنا ليوم واحد مع هذه الحرارة القاتلة وبدون قطرة ماء بالتاكيد سوف نهلك..

وبعد بحث دام لما يقارب الساعة تعبنا وجلسنا نفكر ماذا سنفعل؟ وكيف سنعيش هنا من دون قطرة ماء؟ فنظر إليَّ آدم نظرة عجيبة وقال أنت من أيقظنا لابد أنك الذي خبأتها فنظروا إليَّ جميعا ينتظرون ما سأقوله وما سأدافع به عن نفسي فنهضت من مكاني بكل غضب وقلت إن كان كلامك صحيح أيها الأبله فأين سأخبئها في هذا المكان الكبير؟ كيف سأخبئها وسط هذه الرياح وهذه الرمال؟ هل يوجد أية صخرة أو شجرة أو علامة لكي أخبئها عندها أيها الغبي؟

فوضع يده على رأسه وكأن الندم والخوف يملؤه ثم قال لي:

- أنا آسف يا جيمس عندما اختفت الحقائب لم أستطع أن أفكر في أي شيء سوى أن الموت أمامي ومع هذا الحر الشديد الذي يأكل في رأسي أخرجت كلاما لا أعرف كيف فكرت به أصلا أرجوك سامحني.

لكنني لم أرد عليه والتفت لهم وقلت:

- نحن الآن في نفس المكان سويًّا وما سيحدث لأي منا سيؤثر علينا جميعا لذا يجب علينا أن نكون يدا واحدة في وجه كل شيء نتعرض له لكي نستطيع البقاء والعيش مع أي شيء يقابلنا.. ننظر إلى بعضا البعض والعرق ينصب منا ظمآنين جدًّا وحرارة الشمس تشتد أكثر فأكثر لا نعرف ماذا نفعل نكاد أن نسقط أرضًا من شدة التعب فنهض جوزيف من على الأرض بكل ضعف وقال لا يمكننا الجلوس هكذا والانتظار كأننا ننتظر الموت تماما لابد وأن نفعل شيئا فرد آدم وماذا عسانا أن نفعل؟

- سنمشي إلى أن نجد أي شيء ينقذنا حتى وإن لم نجد فمحاولة النجاة أفضل من انتظار الموت.

- حسنا إنها فكرة جيدة سأذهب معك وماذا عنكم؟

فوافقنا جميعا على المحاولة وإيجاد أي شيء نستطيع من خلاله أن ننجوا.. وبعد ساعة من المشي والبحث تحت آشعة الشمس سقطنا بين الرمال واحدا تلو الآخر فالحرارة أنهت علينا تماما.. ممددين على الأرض بين الرمال كالميتين، بلا أي أمل أصبحنا ننتظر الموت بلا أي مقاومة وبينما أنا

أتألم جدًّا ولا أستطيع الشعور بأي شيء حولي أمسكت الرمال بقبضتي وأغمضت عيني وقلت في نفسي أنا آسف أيها الوطن أنا آسف أيتها الروح لم تتح لي الفرصة لأثبت نفسي أمامكِ سامحيني ثم دمعت عيني وكانت الدموع تجف على خدي من شدة الحرارة..

ولكن شيئا ما وقوة داخلي جعلتني أنهض وأجثو على ركبتي وأنظر حولي كأن جسدي يرفض الاستسلام للموت فرأيت شيئا من بعيد وسط الحرارة الشديدة والغبار المتناثر، إنه جسم غريب هناك، أعتقد بأنها أحجار متراصة فوق بعضها، إنها تشبه البئر تماما فنهضت من مكاني ونظرت جيدا لأتحقق مما تراه عيني فمن الممكن أن تكون هلوسة ما قبل الموت، ولكنها حقيقة لقد شعرت بذلك داخلي فصرخت بصوت عالٍ إنه بئر إنه بئر فانتبه الجميع ونهضوا وبدأوا ينظرون حولهم كالمجانين وعندما رأوه مثلي ركضوا إليه كخيول الصحراء حتى أنا لم أكن أعرف كيف كنت أركض بهذه السرعة مع كل هذا التعب الشديد..

وعندما وصلنا إليه وقفنا أمامه وكان كبيرا جدًّا وواسعا كأنه فوهة بركان أو حفرة كبيرة جدًّا وعميقة وليست بئر إنه حقًّا أكبر بئر رأيته في حياتي.. اتجاه الشمس لا يسمح لنا برؤية ما بداخله فكان مظلم للغاية فاقترحت أن نرمي احجارًا لنعرف أن كان هناك ماء أم لا فقال جوزيف ليس لدينا وقت لهذا لا أستطيع الانتظار فصعد على حافة البئر وقال يجب

أن نغامر بحياتنا لأجل العيش، فاندهشنا جميعا مما يفعله وحاولنا إقناعه بالنزول من الأعلى والتصرف بعقلانية ولكنه رفض ونظر لنا نظرة المجنون ثم قفز داخل البئر دون تردد على أمل أن يلامس الماء وجهة ولسانه الجاف كالحطب وبالفعل سمعنا صوت ارتطام كبير وبعدها بدأ بالصراخ من الأسفل وصوت يقول بكل فرح: إنها مياه إنها مياه اقفزوا بسرعة.. فقفزنا نحن الثلاثة معا كل ما نفكر فيه هو الماء البارد الذي سينعش أجسامنا الجافة والتعبة والتي كانت على وشك أن تذبل وتموت.

تعامدت الشمس فوق البئر تماما فأصبح منيرا وجميلا ودافئا من الداخل وكل مايمكنني فعله داخله هو الاستمتاع بالمياه الجميلة وتصفية ذهني من أي شيء يمكن أن يعكره..

جلسنا في البئر لساعات مستمتعين بالمياه الرائعة دون ملل فلا نريد الصعود والتعرض لأشعة الشمس الحارقة مجددا ولكننا ومع الوقت بدأنا نتعب فاردنا الصعود والخروج من هذا البئر ولكن لم يكن هناك أي شيء يساعدنا على الصعود لقد نسينا هذا الموضوع تماما قبل أن نقفز إلى هنا كأن العطش قد أوقف تفكيرنا عن العمل فبدأنا نفكر ماذا سوف نفعل؟ فقلت لهم حان الوقت لكي نعمل معا، انظروا حولكم لتروا أن كان هناك أي شيء يمكننا الصعود من خلاله إلى أعلى، ثم تفرقنا وكل منا ذهب إلى اتجاه مختلف للبحث فأنتم لا تعرفون مقدار حجم هذا البئر، وبعد فترة من

البحث المتواصل نادا علينا جوناثان بصوت فرح لقد وجد شيئا فاتجهت نحوه ونظرت فوجدت أحجار يمكننا الصعود عليها ومن العجيب تماما إنها متراصه بإحكام كأنها موضوعة هنا لكي نستطيع الصعود من خلالها كالسلم تماما ولكني لم أشغل بالي كثيرا فبئر عجيب بهذا الحجم من الممكن أن تتوقع أي شيء داخله.. وبدأ جوزيف بالصعود، ونجح في ذلك بالفعل وخرج من البئر بسلام وعندما صعد قال بصوت مندهش:

يا إلهي يجب أن تروا هذا إنه شيء لا يصدق! اصعدوا بسرعة..

فبدأنا بالصعود واحدًا تلو الآخر لنرى ما الذي أدهش جوزيف لهذه الدرجة وعندما صعدت ورأيته إنه بالفعل شيء لا يصدق ولا بخطر على بال أحد تظنه من الوهلة الأولى بأنه خيال ولكنه حقيقيًّا جدًّا كأي شيئا حولنا.. وأول سؤال أتى إلى بالي فجأة هو كيف صعد هذا الشيء هكذا وسط الصحراء دون أن نشعر به أو حتى نراه؟.

إنه جدار ضخم جدًّا بمعني الكلمة تنظر يمينًا فلا تجد له نهاية وتنظر يسارا فلا تجد له نهاية وتنظر إلى الأعلى فتشعر بأن رقبتك تكاد أن تنكسر من ضخامة وعظمة هذا الجدار ولا تستطيع حتى أن تصل بعينيك إلى نهايته كأنه يمتد إلى الشمس ويلامس أطرافها..

فاقتربنا منه ووقفنا أمامه عاجزين عن قول أي شيء مذهولين مما نراه،

وكان لونه بنيًّا داكنًا وحبيبات الرمال تلتصق به لتعطه لونا ذهبيا داكنا في غاية الجمال فوضعت يدي لأتحسسه وحينها شعرت بشعور غريب لا يمكنني وصفة، شعور لم أشعر به من قبل شعور جديد على قلبي وعقلي شعور أذهل كل حواسي، وجعلني كالطفل تماما عندما يتعرف على شيء جديد لأول مره، وحقا إنني لا أريد من هذا الشعور أن ينتهي.. وكان الجدار باردًا جدًّا رغم كل هذه الحرارة الحارقة التي تلتف حوله، فجلسنا وأسندنا ظهورنا عليه ليخفف علينا هذا الحر الشديد وليبردنا قليلا وينعش أجسادنا الجافة.

الفصل السابع

"الفأس الفضي"

إنه اليوم الثاني لنا في هذا المكان، ولم نأكل أي شيء ولم يدخل إلى بطوننا سوى الماء، لا نشعر بأجسادنا وليس لدينا أي طاقة حتى على الكلام فقط نجلس عند الجدار نراقب الشمس وحرارتها ونراقب الصحراء الذهبية ورياحها ونفكر في الأشخاص الذين اشتقنا لهم وهذا كل ما نفعله الآن وما نستطيع فعله.

أشرقت شمس اليوم الثالث وبطوننا أصبحت تصدر أصواتًا عالية تخيف هذه الصحراء الواسعة ومن يسمعها من بعيد يظن بأن هناك وحوش تقطن هذه الصحراء من شدة الصوت، وبدأت تؤلمنا بشدة.. وفي لحظة من لحظات اليأس رأيت شيئا يقف هناك بين الرمال لونه أصفر ذهبي لامع وله أربعة أقدام فأغمضت عيني جيدا ثم فتحتها لأتاكد مما أراه ويا إلهي إنها بالفعل غزالة صغيرة كما رأت عيني وليست هلوسات.. فنبهت الجميع لها وأمرتهم بألا يتحرك أحد لكي لا نخيفها وترحل وترحل معها أمانينا في تذوق الطعام مرة أخرى.. وظللنا هكذا لدقائق بلا حراك وهي تقترب منا أكثر فأكثر كأنها لا ترانا كأننا تلونا بلون الجدار وأصبحنا أحجارًا داخله وجزءا منه.. وكنا ننظر إليها بكل شراسة نريد الانقضاض عليها

بأسناننا وتمزيقها إربا وهي حية ولكن للأسف ظهر شيء من وراء البئر فجأة يتسلل بحرص شديد لم نكن نتوقعة أبدًا لقد كان يتربص للغزالة منذ وقت ولكننا لم نكن نراه.. إنه ذئب أسود ضخم مثل الأسد في حجمه وضخامته يحاول اصطيادها وافتراسها ولكنها لاحظته وشعرت به فركضت بسرعة رهيبة لتنجو بحياتها وركض خلفها مسرعا يحاول اللحاق بها.. وبسرعة شديدة نهض جوزيف وآدم وجوناثن وركضوا ناحية البئر بسرعة ليحتموا داخله.. وبعد أن قفزوا داخله بقيت أنا وحيدا ملتصقا بالجدار ليس لدي القوة على النهوض أو الركض ولكني يجب أن أحاول وإلا سأموت.. فنهضت من مكاني بصعوبة شديدة وتقدمت خطوة واحدة عن الجدار فتوقف الذئب فجأة وترك الغزالة وغير اتجاهه وعاد للركض نحوي بسرعة للإمساك بي فرأيته قادم بسرعة هائلة فتسمرت مكاني من هول الموقف ثم سقطت أرضًا والتصقت بالجدار أنظر إليه وهو يأتي مسرعا ولعابه يتطاير من فمه من شدة الجوع.. كأني تماما أنتظر الموت وأنتظر النهاية، فأغمضت عيني لكي لا أشعر بشيء ولا أشعر بألم الافتراس ولكي أرتاح من هذا العذاب وهذا المكان.. ولكنه عندما وصل إليَّ توقف فجأة، لقد كنت أشعر بأنفاسه تصطدم في وجهي وكنت أشتم رائحته النتنة ورائحة الموت المنبعث منه ولكنه لم يكن يفعل شيئا.. وبعد فترة لم يحدث لي أي شيء.. ففتحت عيني ونظرت إليه فرأيته ينظر حولي كأنه لا يراني كأنه يبحث عني ولكنه لا يجدني وكنت أنظر في عينيه السوداء المليئة بالغضب والجوع ومن الغريب أنني لم

أكن أرى صورتي فيها كأنني اختفيت من هذا العالم ولم أعد موجودًا.. فتركني بعد فترة وركض بعيدا عني إلى أن اختفى تماما فنهضت بسرعة من مكاني وركضت إلى البئر وقفزت فيه لكي أرى الآخرين وأطمأن عليهم وأطمأنهم على نفسي ليعرفوا بأنني ما زلت حيًا.. وبعد قليل قرر جوناثن أن يصعد ويري إن كان المكان خالي أم لا، وبالفعل صعد الأحجار وأخرج رأسه من البئر بكل خوف لكي يرى، وفجأة صرخ بشدة وسقط في الماء بسرعة.. ثم انقض الذئب بكل شراسة على البئر وأدخل يده ورأسه فيه وبدأ يخدش البئر من الداخل بأنيابه المميته كأنه يحذرنا أو يخبرنا بأنه سوف يلتهمنا وبأننا لن نخرج من هنا أحياء وكانت رائحتنا ورائحة خوفنا تجعله يتضور جوعا ويصبح أكثر شراسة..

وفجأة عاد إلى الوراء واختفى تماما ولم يعد موجودا.. فقال جوزيف لابد أنه ذهب أو ينتظرنا في الخارج لكي نصعد.. ثم بدأنا نسمع صوتًا غريبًا كأنه صوت ركض وأقدام تقترب وفجأة قفز النمر في البئر بكامل جسده، وكانت أنيابه اللامعة تعكس ضوأها على وجوهنا الخائفة والميتة ليسبح معنا داخل البئر فالتصقنا في جدرانه بسرعة لنبتعد عنه وهو كان يحاول الوصول إلينا ولكن من حسن حظنا أنه لم يكن يعرف السباحة أو بالأحرى لا يحب الماء ولكن الجوع ورائحتنا الشهية أجبرته على القفز والتضحية بحياته من أجل الطعام، انتظرنا قليلا لنرى ما سيحدث لكنه فجأة اقترب من جوزيف وكاد أن يمسكه وبدأ في اللحاق بنا ومحاولة اصطيادنا ففكرت

بسرعة ثم غطست إلى الأسفل وإلى أعماق هذا البئر وبالفعل كما توقعت لقد وجدت القاع وكان مليئًا بالأحجار فبدأت أتحسسها بيدي فالظلام حالك في الأسفل ثم جرحت يدي بصخرة كالسكين تماما، حادة جدًّا فحملتها بسرعة وصعدت لأعلى ونجحت في هذه المهمة وفي هذا الأمر.. نظرت إلى أصحابي بسرعة فوجدت أن النمر قد أمسك بآدم وبدأ في العراك معه وكان على وشك التهامه في المياه ولكنني انقضضت عليه بسرعة وطعنته بالصخرة في عنقه طعنات كثيرة متتالية للدفاع عن صديقي وعن نفسي من الموت المحتم.. وبعد قليل ترك الذئب آدم وبدأ في السقوط إلى داخل أعماق البئر بعد أن نزف الكثير من الدماء ولكنني أمرتهم بسحبه من الماء بسرعة وإلا ستلوث دمائه الشيء الوحيد الذي يجعلنا على قيد الحياة إلى الآن وهو البئر.. سحبناه من الأسفل ووضعناه على أكتافنا وصعدنا به بكل صعوبة فلقد كان ثقيل جدًّا ولكننا أخرجناه بأعجوبة وتوفيق من الرب.

إنه جدار غريب جدًّا كأنه وضع هنا من أجل التخفيف علينا، يصبح باردًا صباحا ليخفف علينا الحرارة ويصبح حارا في الليل لكي يدفئنا ويحمينا من برودة الصحراء.

الجو بارد جدًّا والرياح شديدة وكانت يدي تلامس الجدار لكي يمدني بالحرارة لتبقي جسدي دافئًا لكنني أشعر بشيء غريب تجاه هذا الجدار شيء لا يمكنني وصفة بمجرد الكلمات.. دائما أحب الجلوس عنده ولا أريد الابتعاد عنه وأن أكون دائما قريبا منه وعندما أشعر بأني لست على ما يرام

أو أشعر بألم في جسدي أو ضيق في قلبي أو هم أفكر فيه، بمجرد أن أضع يدي عليه أنسى كل شيء ويذهب الألم والضيق وأشعر بأنني في حالة جيدة ويعود إلى الأمل مجددا والإيمان أن هذا الجدار لساحر وهناك شيء مريب حياله وأتمنى أن أعرفه.

إنه اليوم الرابع على قدومنا لهذا المكان ونحن نشبه الميتين تماما ليس لدينا أي طاقة ولا نملك سوى الماء في أجسادنا ولا نعلم إذا كان الوطن يختبرنا أم لا، أم أنه سوء حظ، لم نعد نعرف أي شيء ولم نعد قادرين على فعل أي شيء ولكننا ننتظر اختباره بفارغ الصبر فكل منا يريد النجاح وإثبات نفسه والعودة إلى بيته سريعا والخروج من هذا المكان ولكن كيف هذا مع كل هذا الضعف الذي يملؤنا.

قررنا الذهاب للبئر لنشرب قليلا من الماء فنحن نفعل كل شيء سويًّا وفي نفس الوقت لكي لا نترك أحد بمفردة ويحدث له أي شيء، وأنا إلى الآن لم أخبرهم عن كيفية نجاتي من الذئب وكيف أنه لم يرني وأظن بأني سأبقيها معي سرًا إلى أن أعرف كيف حدث هذا؟ وكيف لم يرني؟ وكيف نجوت بهذه السهولة؟

قفزنا كالعادة في الماء وبقينا فيه قليلًا لنستمتع بالمياه، وبعد ساعة تقريبا قررت الصعود وانتظارهم في الأعلى بجانب البئر فلم أعد أحتمل مجهود السباحه.

تسلقت الأحجار وصعدت للأعلى ونظرت إلى الجدار فرأيت شيئا عجيبا مذهلا فناديتهم بسرعة فصعدوا ليروا ما هذا الشيء الذي جعلني أناديهم هكذا وبهذه اللهفة وعندما صعدوا وجدوا جدارا صغير من الذهب الخالص يلمع كالشمس أمام الجدار وكان صغيرا لدرجة أنه لا يحتمل إلا اثنين فقط ليجلسوا عنده.. فذهبنا إليه لنراه عن كثب وعندما وصلنا بدأوا يتحسسوه مذهولين من شكله الرائع وملمسة الناعم وكان عرضه لا يتعدى العشرة أمتار وطوله لا يتعدى المترين كان صغيرا جدًّا ولكن شكله كان جميلا جدًّا.. فوضعت يدي عليه وكان ملمسه رائع جدًّا وناعم لكنني لم أشعر بنفس الشعور عندما لامست الجدار الآخر سابقا.. وإضافة على هذا إنه حار بعض الشيء فنظر جوزيف وآدم إلى أنا وجاناثن وقالوا سنمكث مع هذا الجدار الذهبي هذه الليلة فشكله وملمسه أفضل من هذا الجدار الحجري القديم المليء بالرمال، فقلت لهم حسنا افعلوا ما تشاؤوا.. أما أنا وجوناثن مكثنا مع الجدار الآخر الذي ارتاحت له عقولنا ولم نعد نريد تركه أبدًا.

قال لي جوناثان: أريد إخبارك بشيء ما ولكن لا تسخر مني أرجوك.

_أترى أننا في موقف جيد يدعونني للسخرية تكلم ولا تقلق لن أسخر منك.

- عندما لامست هذا الجدار الذي نسند ظهورنا إليه الآن أول مره، شعرت بشعور غريب لا يمكن وصفه وكأنني أول مرة أشعر به ولكن عندما

لاسمت هذا الجدار الذهبي لم أشعر بشيء على الإطلاق لم أشعر إلا بأحجار من ذهب حارة لا تساوي شيئا في هذه الصحراء، لقد تعلقت بهذا الجدار يا جيمس ولم أعد أريد تركه أبدًا.

- يا إلهي أنت تشعر كما أشعر تماما نحن الاثنان متشابهان، أنا أيضًا شعرت مثلك عندما لامسته ولكن جوزيف وآدم لم يروا سوى المنظر الجمالي لهذا الجدار الذهبي اللامع ولم يشعرا بالآخر وما يستطيع فعله مثلما شعرنا نحن صدقني سيندمان على بقائهم هناك هذه الليلة.

أنا وجوناثن نجلس عند الجدار الضخم وجوزيف وآدم عند الجدار الذهبي لكننا كنا قريبين جدًّا من بعضنا ونري بعضنا البعض ولكن آراءنا مختلفة وشعورنا مختلف.. وعندما أتى الليل أسندنا ظهورنا للجدار لنتدفأ به وكنت أنظر إليهما هناك وكنت أرى شيئا غريبًا كأنهم غير مرتاحين أو لا يستطيعان التأقلم وكنا نسمع أنا وجوناثن أصوات أسنانهما وأنفاسهما الخائفة والباردة طوال الليل، على ما أعتقد أنهما لا يشعران بالدفء هناك.. وبعد فترة أتيا إلينا مسرعين لا يستطيعان المشي من شدة البرد وعندما وصلا رميا أنفسهما أمام الجدار ولامساه طالبين منه الدفئ والحرارة وعندما سألناهما عن سبب عودتهما بهذه السرعة قالوا: إنه جدار رائع وناعم ومنظره يوحي بالجمال لكنه بارد جدًّا في الليل وحار في النهار إنه بلا معنى وبلا فائدة إنه مجرد أحجار ذهبية متراصة فوق بعضها لا أكثر ولا أقل، ليس كهذا الجدار الرائع الذي نتدفأ به الآن.

استيقظنا في يومنا الخامس ولم نجد الجدار الذهبي لقد اختفى تماما دون أثر والشيء الوحيد المتبقي معنا دائما هو هذا الجدار العظيم الذي لا أستطيع وصف شعوري تجاهه.. تمر ساعات وساعات من الألم والضعف وضياع الأمل وربط بطوننا من شدة الجوع فإننا لخمسة أيام لم نأكل إنها معجزة أننا على قيد الحياة إلى الآن..

وفجأة سمعنا أصوات عجيبة كأنها أصوات طيور فنظرنا لأعلى حولنا فوجدنا طائرين يتعاركان في الهواء ثم هبطا على الأرض أمامنا ليكملا عراكهما وكان صوت صياحهم يهيج بطوننا ويجعلها ثائرة جائعة فسقط طائر منهم أرضًا ليس قادرًا على التحرك لقد جرحه الطائر الآخر بمنقاره الحاد وحلق وتركه وحيدا أمام أربعة اسود مفترسة جائعة، وكان يتقلب في مكانه يريد الطيران ولكن لا يستطيع فنهضنا من مكاننا وذهبنا إليه وعندما وصلنا عنده نزعت ردائي وانقضضت به عليه وأمسكتة وفرحنا كثيرا لأنه سيكون لدينا عشاء حتى ولو ليوم واحد ولكن هذا العشاء سيحينا لأيام قادمة..

وكان طائر غريب لم أرَ مثله في حياتي كان لونه أزرقًا لامعًا وجناحاه كبيرين أكبر من حجم جسمه ومنقاره حاد جدًّا وطويل، وفجأة ونحن نتأمل هذا الطير هناك شيء اصطدم في جوزيف وسقط أرضًا فصرخ جوزيف وتألم كثيرا وجرحت ذراعه فنظرنا لهذا الشيء المصطدم به فوجدناه طائرا آخر، وفجأة بدأت الطيور تحلق من حولنا لا نعلم من أين أتت وتصطدم في

أجسادنا بمنقارها الحاد، ثم سمعنا صوت أجنحة في كل مكان حولنا فنظرنا ناحية البئر فوجدنا سرب ضخم من نوعية هذه الطيور تحلق نحونا بمستوى قريب جدًّا من الأرض فركضنا إلى الجدار بسرعة لنحتمي به، وجلسنا عنده وقلت لهم لا تخافوا وأمسكوا بأيدي بعضكم البعض وادعوا الله أن ينجيكم وتمنوا من الوطن أن يساعدكم.. اقتربت الطيور كثيرا وكادت مناقيرهم الحادة أن تلامس وجوهنا ولكنهم ارتفعوا في آخر لحظة وحلقوا بموازاة الجدار والمسافة بينه وبينهم هي مساحة وجهنا الخائف الملتصق به فقط.. لقد كنا مندهشين لما يحصل وغير مصدقين فأمسكت ردائي بسرعة ورفعته بيدي وقبل أن ينتهي سرب الطيور هذا انقضضت به عليهم لأمسك بعض منهم.

وبعد أن انتهى كل شيء نظرت إلى داخل ردائي فوجدت به خمسة طيور.. نعم أنهم طيور قليله جدًّا لكنها ستحينا لأيام وأيام ولكن السؤال الآن والشيء الأهم من كل هذا كيف سنأكلهم بدون طهي أو حتى أن تلامس أجسادهم النار، أعتقد أن هذه ستكون مشكلة.

أول شيء فعلته بعد أن ذهبت هذه الطيور هو بأنني جثوت على ركبتي ووضعت رأسي على الجدار وشكرت هذا الروح التي ساعدتنا أكثر من مره وأنقذتنا من هذه الطيور التي كادت أن تفتك بنا.

ننظر إلى الطيور بعد أن كسرنا أعناقها وقتلناها لأن صياحها أزعجنا كثيرا..

والآن لا نعرف كيف سنأكلهم هكذا فنحن لا نملك الحطب ولا نملك أي شيء على الإطلاق ولكني تذكرت شيئا مهما في هذه اللحظة تذكرت عندما يئسنا من وجود الماء وجلسنا ننتظر الموت بلا أمل نهضنا وبحثنا وتعبنا وفي آخر لحظة وجدنا الأمل ووجدنا البئر، إن هذا المكان يريدنا أن نجد الأشياء بأنفسنا ونتعب في الحصول عليها لا انتظارها واليأس من عدم وجودها، إنه يريدنا أن نتحلى بالإيمان دائما وألا نيأس مهما حدث ونتيقن بأن الوطن دائما حولنا ودائما يحمينا، ومن الواضح بأني بدأت أفهم وأتأقلم مع هذا المكان جيدا.. فنهضت من مكاني وقلت لهم لابد أن نبحث عن أي شيء يمكننا إشعال النيران من خلاله، فإن كنتم تريدون العيش يجب أن تتعبوا وتكدوا في البحث وتأمنوا بأنفسكم وتأمنوا بالوطن.. فبدأنا بالبحث هنا وهناك عن أي شيء عن أي أمل، وبعد بحث دام لما يقارب الساعة ونصف سقط آدم أرضًا لم يعد قادرا على الاحتمال فقد أكلت معدته نفسها ولم يعد قادرا على الوقوف مرة أخرى وبدأ ياخذ أنفاسه بكل صعوبة وكأنها النهاية.

وأثناء نومه على الأرض شعر بشيء عجيب ظهر فجأة فحجب عنه ضوء الشمس ففتح عيناه ووجد شيئا لم نكن نتوقعه أبدًا فنهض بسرعة وبدأ يناديا فنظرنا إليه وركضنا نحوه ونحو هذا الشيء بسرعة وعندما وصلنا وقفنا أمامه متعجبين مندهشين منه فقال آدم لا أدري كيف صعد هذا

الشيء هنا فجأة! أنا لم أره مسبقًا فقلت له لا تسأل ولا تنتظر الإجابة فهذا المكان به تظهر الأشياء وتختفي دون أن يشعر أو يعلم أحد.

إننا نقف أمام نخلة طويلة جدًّا لكنها نحيفة بعض الشيء ومليئة بالخشب الذي نحتاجه تماما والذي من الممكن أن يشعل هذه الصحراء بأكملها فوضعت يدي عليها لألمسها ويا إلهي لقد شعرت نفس الشعور عندما لامست الجدار لأول مرة وعندما لامست أحجار البئر أيضًا ولكنني لم أعر لهذا العشور اهتمام، لأنني لا أفهم هذا الشعور، ولا أفهم لماذا أشعر به؟ وماذا يعني؟ ولما أحب أن أشعر به؟.. رجعت إلى الخلف قليلا لأستطيع رؤية النخلة كاملة وبوضوح فرأيت شيئا يلمع من بين الرمال أسفل النخلة تماما ولكنني لم أكن أستطيع رؤيته جيدا فركضت نحوه بسرعة وأدخلت يدي في الرمال وأخرجته.. لقد كان فأسا فضيًا يلمع بشدة حتى أنني كنت أرى انعكاس صورتي عليه، فعلمت أن كل شيء وضع بترتيب محكم تماما.. و كل شيء وضع هنا لكي يساعدنا ويسهل الأمور ويبقينا على قيد الحياة.

وبدأنا بالمحاولة فبدأ آدم أولًا بضربها ومحاولة قطعها ولكنه كان يضرب بلا أية فائدة دون حتى أن يخدش النخلة وظل يحاول لبضع دقائق إلى أن تعب وسقط أرضًا وأعطاها لجوزيف وكان مثله تماما بلا فائدة كأنه كان يداعب النخلة وليس قطعها مع إنها نحيفة وشكلها يوحي بالضعف إلا أنها كانت قوية جدًّا.. فنهض جوناثن وأخذ الفاس من يد جوزيف وقال له دعني أجرب هذه المرة ثم ضرب ضربة قوية فانغرس الفأس في النخلة فتعجب

جوزيف وآدم كثيرا، كيف له أن يفعل ذلك؟ فعاود الكرة مرة أخرى ولكنه بلا أية فائدة فالشق الذي أحدثة جوناثن في النخلة لا يريد أن يزداد أبدًا.. وفجأة سقط أرضًا لا يستطيع أن يكمل لقد تعب كثيرا وفقد كل طاقته فنهضت أنا لقد حان دوري للتجربة.. وأمسكت الفأس ونظرت إلى انعكاس صورتي فيه وإلى وجهي المليء بالعرق وقلت في نفسي لن يعيقنا هذا عن النجاة وسأحاول بكل ما أوتيت من قوة ثم ضربت ضربة قوية فانقطعت النخلة بأكلمها وسقطت أرضًا.

فبدأت أقطعها على شكل حلقات صغيرة وأحولها إلى حطب بسهولة وكان الجميع مندهش مما فعلته ومما أفعله الآن وكيف أتيت بهذه القوة مع كل هذا الضعف الذي يتملك جسدي.. وأنا حقًّا لا أدري كيف فعلتها.

كنت أقطعها وأعطى القطع لجوزيف فإنه صياد ماهر ويستطيع إشعال النيران بسهولة فكل ما يشغل تفكيرنا الآن هو الطعام وليس أكثر.

نتذوق اللحم ونسند ظهورنا على الجدار، إنه شعور رائع حقًّا كأننا في الجنة تماما ومع أن هناك آلاف من الأفكار تشغل تفكيري وهموم داخلي من الممكن أن تملأ هذه الصحراء بأكملها إلا أنني لم أدعها تعكر صفو هذه اللحظة الجميلة.

نظرت إلى السماء والنجوم اللامعة وقلت لهم لقد وصلنا لكل شيء هنا سويًّا وما زلنا على قيد الحياة سويًّا ولا نعلم ما الذي يخبئه لنا الغد ولكن

مهما كانت صعوبته سوف ننتصر عليه لذا لا تخافوا أو تقلقوا من أي شيء ما دمنا سويًّا لو واجهنا الهلاك وجها لوجه ونحن معا صدقوني سننتصر عليه وأمضينا هذه الليلة والأمل يملؤها واللحم يملؤ أفواهنا ومعدتنا.

أنظر إليه ليلا أشعر تجاهه بشعور غريب لا أستطيع تفسيره إنه هو الذي يجمل هذا المكان ويهون عليَّ عذابه وآلامه ، إن هذا الجدار ليس مجرد أحجار متراصة فقط بل إنه يمتلك روحا جميله ويمتلك سرا خاصا لا أستطيع كشفه ولا أدري إن كان كلامي هذا عبارة عن بداية جنوني وبداية تأثير عقلي بهذا المكان الغريب أم أنه صحيح تماما.. أنا لم أعد أدري أي شيء سوى شيئا واحدا فقط وهو بأن هذا الجدار ليس جدار عادي.

أرى كرسي ذات عجلات ذهبية ويجلس فوقه رجل عجوز بقدم واحدة ويقف بجانبه طفل صغير يسأله ويقول: جدي ما هو الوطن؟ فيبتسم الجد لهذا الطفل الصغير ويقول له هو من يكون دائما حولك ودائما يحميك ، ثم يضع يده على كتف هذا الطفل الصغير ويقول أفهمت الآن يا جيمس.. فاستيقظت سريعا على صوت أنفاسي العالية وصوت الصحراء المخيف لا أدري إن كان هذا مجرد حلم بسيط أم إنها ذكرى حقيقة لي؟

الفصل الثامن

"بدأت أشك"

هلت شمس اليوم السادس واتجهنا ركضا إلى البئر لنبلل أجسادنا الجافة ونروي عطشنا الشديد.. وقف جوزيف على حافة البئر وقفز وعندما سقط في الماء صرخ صرخة شديدة فتوقفنا ولم يقفز أحد، ثم ناديت عليه لأعرف ما الذي حدث له فقال بصوت متألم انزلوا عن طريق الأحجار ولا تقفزوا وستروا بأنفسكم فنزلنا سريعا لنرى جوزيف ونطمئن عليه وحينها رأينا منسوب المياة في البئر قد قل بصورة مرعبة لذلك عندما قفز جوزيف ارتطمت قدماه بالأرض وأصيبت بالتواء شديد في قدمه ولم يعد قادرا على أن يمشي عليها..

وقفنا نفكر لا نعرف ماذا نفعل لابد وأن شيئا ما ابتلع هذه المياه، ونحن لا نملك أي شيء لكي نحتفظ ببعض الماء فيه، فقال جوناثن ماذا سنفعل الآن، فرد عليه آدم وقال لا شيء فقط نشرب ونملؤ بطوننا على آخرها ثم نصعد ونفكر لنجد حلا لهذه الورطة وبالفعل أخذنا بنصيحته ملأنا بطوننا بالمياه وصعدنا من البئر نحمل على أكتفانا جوزيف المصاب.. وضعنا جوزيف بجانب البئر وبدأنا نفكر كيف يمكننا الاحتفاظ بأكبر كمية ممكنة من المياه قبل نفاذها ثم قال آدم بكل خوف يجب أن نفعل شيئًا إن المياه

تنفذ منا، قل أي شيء يا جيمس أسنظل جالسين هكذا مكتوفي الأيدي والشيء الوحيد الذي يحيينا ويبقينا على قيد الحياة ينفذ منا ولا نستطيع فعل شيء له؟

- لا أعرف ماذا نفعل لا يوجد حل لهذا ولكن اصبروا قليلا لنرى ما سيحدث عسى أن تحل من تلقاء نفسها.

ثم صمتنا جميعا وبدأنا نفكر في مستقبلنا الغير معروف والهالك الذي سنواجهه بدون ماء في هذا المكان.

رأيت شيئا يتحرك من بعيد فنهضت من مكاني ونظرت وتمعنت جيدا فوجدتهم فرسان قادمين من بعيد يمتطون الأحصنة فانتبه الآخرون ورأوهم أيضًا فاقترح آدم أن نطلب منهم العون فمن الممكن أن يساعدونا.. وحينها بدأ يدور في ذهني أسئلة كثيرة وأولها وأهمها من أين أتت هذه الفرسان؟.. تقدم آدم إلى الأمام لاستقبالهم وعندما اقتربوا منا استطعت تحديد عددهم وكانوا سبعة فرسان يمتطون أحصنة سوداء ووجوههم مغطاه بأقنعة سوداء كملابسهم وشكلهم يوحي بالخوف والرهبة ولم أشعر حولهم بالطمأنينة على الإطلاق.. وصلوا ونزل أحدهم من على حصانه ويحمل عصا بيده واقترب من آدم فمد له آدم يده ليرحب به والفارس رحب به أيضًا ولكن على طريقته الخاصة لقد ضربة على رأسه بالعصا ضربة قوية فسقط آدم مغشيًا عليه ثم هجموا علينا جميعهم، فركضنا بسرعة كل

واحد منا باتجاه وهم خلفنا بكل سرعتهم القصوى وبدأوا باصطيادنا كالفئران، فأمسكوا جوزيف المسكين الذي لا يستطيع الركض أو المشي حتى وأمسكوا جوناثن بكل سهولة وسرعة.

وأما أنا فكان يركض خلفي رجلان ولكنني قد تعبت من الركض فتوقفت فجأة ونظرت إليهم فتوقفوا هم أيضًا وبدأوا يقتربوا مني بكل حذر وهم يحملون العصا بأيديهم فوضعت قبضتي في الرمال لأمسك بعضها ورميتها على واحد منهم فسقط أرضًا لا يستطيع رؤية أي شيء أما الآخر فهجمت عليه بشراسة وأسقطة هو الآخر بسهولة ولكن المساعدة قد أتت سريعا فأتي فارسان أخران بسرعة وانقضوا على من الخلف وأمسكوني ثم ربطوا يدي ووضعوني بجانب آدم وجوناثن وأسندوا ظهورنا إلى الجدار، أما جوزيف فكان هو الضحية.. بدأ واحد منهم بالتكلم وكان يتحدث بلغة غريبة غير مفهومة ولكن من الواضح على تعابير وجهة أنه منزعج وغاضب جدًّا وينوي قتلنا جميعا.. وبعد أن أنهى كلمته ذهب إلى حصانة وأخرج من الحقيبة التي كان يعلقها عليه سكينا كبيرا وعلى ما أظن هذا السكين هو الذي سيذبح به جوزيف.

أخذ حجارة من على الأرض وبدأ في ضربها وحكها مع السكين وهو ينظر إلينا وكان يبث الرعب في قلوبنا حقًّا وكنا نموت في كل مرة كان يلامس فيها السكين الحجر وبعد أن انتهى، وقف أمام جوزيف ورفع السكين إلى أعلى ونظر إلى واحد منهم كأنه ينتظر إشارته وحينها لم أكن أعرف ماذا أفعل ولم

أفكر سوى في شيء واحد فرجعت إلى الخلف قليلا دون أن يلاحظ أحد ولامست برأسي الجدار ونظرت إلى السماء وأغمضت عيني وبدأت أقول داخلي: أرجوك أيها الوطن أنا حقًّا أريد مساعدتك الآن أريدك بجانبي لقد ساعدتني كثيرا ولم تخذلني أبدًا أرجوك ساعدني وساعد أصدقائي..

أغمضت عيني لكي لا أرى مشهد الدماء ومشهد قتل جوزيف، ولكنني فجأة شعرت بشيء غريب لقد بدأت الرياح تلامس وجهي وشعرت بأن يدا توضع على كتفي لتطمئنني ثم شعرت فجأة بالسكينة والطمأنينة وعدم الخوف ثم شعرت داخلي بالأمان، لا أدري كيف؟ ولكنني لم أكن خائفًا على الإطلاق ففتحت عيني لأنظر إلى جوزيف فأعطى قائدهم الإشارة فأمسك الرجل قبضة السكين بقوة لكي يضعها في عنقه بكل قوة.. وفجأة سمعنا صوتا عاليا في السماء صوتا مرعبا جدًّا يخاف منه كل من يسمعه فنظرنا جميعا إلى أعلى فرأينا الرعد يشق السماء شقا والسحب تغطي السماء بأكملها والبرق كان ضوؤه أشد من الشمس وكل ذلك حدث في أقل من ثلاث دقائق ونحن لا نفهم أي شيء..

وفجأة وبلا أية مقدمات ضرب الرعد الصحراء وأصبح يلامس الرمال ويبعثرها في الهواء ويشق الأرض بقوته.. وكان المنظر مخيفا جدًّا فأنا لم أرَ في حياتي رعدا يلامس الأرض ويضربها بهذه القوة ثم ضرب الرعد رجلا من الرجال المقنعين وشقة نصفين فترك الرجل السكين من يده خائفا من هول المنظر ثم أمرهم قائدهم بأخذ طعامنا والذهاب بسرعة.. وبالفعل أخذوا

طعامنا المتبقي وامتطوا أحصنتهم وركضوا مسرعين خائفين.. وكان الرعد يلحقهم بسرعة وضرب منهم أكثر من رجل ولكنهم افترقوا سريعا وهربوا قبل أن يقضي عليهم جميعا.. فنهضنا وذهبنا لجوزيف لكي يفك قيودنا فهو الوحيد الذي لم يربطوه فهو من كان سيموت أولًا.. فأخذ السكين الكبير وفكني بسرعة من ربطتي ثم توقفت ونظرت إلى الفرسان وهم يركضون وكان مشهدا رائع جدًّا لقد كنت فرحا فيهم كثيرا لكن المشهد الجميل لم يكتمل.

لم يتبق منهم سوى فارسان فالتفا وعاودا أدراجهما وكانا قادمين نحونا ولكن الرعد قد ضرب واحدا منهم وقتله وحينها توقف هذا الفارس الأخير وكأنه قد عرف بأنه ميت لا محالة فنظرت في عينه بكل تحدي ولكنه فجأة أخرج رمحًا من خلف ظهره ووجهه نحوي فخفت كثيرا وقبل أن أركض رما رمحه وأطلقه وفي نفس الوقت ضربة الرعد.

كنت أرى لمعته في الهواء وانعكاس ضوء البرق عليه وكان يقترب مني بسرعة فقلت في نفسي بأن هذا الرمح سيصيبني، فأغمضت عيني وحينها شعرت به يمر بجانب شعري دون أن يمسني وكأنه الموت قد مر بجانبي ولم يرني، وفجأة تألمت كثيرا في كتفي وسقطت أرضًا من شدة الألم لقد شعرت بأن كتفي تمزق وهناك شيئا اخترقه.

فركضوا إلى سريعًا ونظروا إلى فوجدوا دماءً كثيرة تملؤ ذراعي وكتفي فخلعوا قميصي ليروا الجرح فوجدوا كتفي مصابا إصابة بليغة وينزف كثيرا

من الدماء كأنه قد ضرب بسكين فقطع أحدهم قطعة من ردائه وأظن أنه جوناثن فأنا لم أكن في وعي حينها، ووضعها على الجرح وبينما هم يحاولون وقف النزيف لقد كنت أنظر للسماء وحينها رأيت هلوسات وذكريات وأشياء لا أفهمها..

لقد رأيت غرفة جميلة مرتبة وكنت أسمع صوت موسيقى هاديء وأرى شابا صغيرا جالس على مكتبة يكتب وهو ينظر إلى النجوم والسماء الجميلة لقد كان حقًّا منظرا رائعا جعل كل جسدي يرتخي ولا أشعر بأي ألم.. ولكن انتهى كل هذا بمجرد أن سمعت صوت الرعد وسمعت صوت جوناثن وهو يقول ضعوه عند الجدار.. ثم شعرت بقطرة ماء تسقط على أنفي وشعرت بأخرى تسقط على جبيني ثم زادت القطرات وبدأت تتساقط بشدة وكنت أشعر بهم وهم يحملوني لقد كنت أشعر بكل شيء لكنني لا أستطيع رؤية ما يحدث.. وضعوني عند الجدار وألصقوني به لكي يدفئني طوال الليل ولكي أتعافى من هذا الجرح الغريب الذي أصابني فجأة.

أنظر إلى الجدار وقطرات المطر تتساقط عليه فألمسه بيدي وأشعر بذرات الرمال المبتلة وحرارته الدافئة وأفكر في هذا الجدار الغريب فعندما طلبت المساعدة من الوطن وضعت رأسي عليه هو وطلبت المساعدة منه.. لماذا أشعر بجانبه دائما بالراحة والأمان لماذا أشعر بأنه يغنيني عن كل شيء لماذا أشعر معه بالقوة المطلقة ولم أشعر بالضعف أبدًا ولا مرة وأنا بجانبه

وفجأة تذكرت مقولة أعرفها لا أدري كيف تذكرتها الآن ولكني أعتقد إنها تدل على شيء ما لست متاكدا منه لكني سأتأكد قريبا.

استيقظت صباحا وأنا ملتصق في الجدار.. فنهضت واعتدلت في جلستي وأول شيء فعلته هو تحريك كتفي ولكني لم أكن أشعر بأي ألم على الإطلاق فأمسكت كتفي وضغت عليه بقوة ولكنني لم أشعر أيضًا فخلعت قميصي لأرى الجرح فوجدته معافى تماما لا يوجد به سوى علامة بسيطة أو ندبة صغيرة من أثر الجرح الملتئم وليس أكثر فتعجبت كثيرا وقلت كيف؟ كيف حدث هذا؟ لقد كان جرحا كبيرا وخطيرا..

ثم نظرت إلى الجدار وقلت له هل ما ظننته عنك أمس صحيحا ثم وضعت يدي عليه وقلت يا إلهي من الممكن أن يكون صحيحا وفجأة ناداني جوناثان وركض إليَّ مسرعا وعندما وصل قال كيف حالك الآن؟

كيف حال كتفك؟

- بأحسن حال، انظر إليه كيف تعافي بسرعة لا أدري كيف حدث هذا؟

- إنه شيء مذهل لم أرَ في حياتي جرحا كهذا يشفي في ليلة واحدة.

- هناك شيء غريب يحدث ويجب أن أخبرك به.

- ليس الآن سنتكلم فيما بعد الآن أنهض وتعال معي إلى البئر لقد امتلأ تماما وعادت له المياه كسابق عهدها.

ذهبت معه إلى البئر وعقلي يكاد ينفجر من التفكير في هذا الجدار أريد فقط أن أتأكد إن كان كلامي هذا حقيقيًّا أم لا ولو تأكدت وكان حقيقيًّا حينها كل شيء سيصبح بخير.

صعدنا من البئر بكل انتعاش وحيوية جلسنا بجوار الجدار نفكر في هؤلاء الفرسان وبأنهم أن أرسلوا آخرين من الممكن أن يقتلونا وما الذي نستطيع فعله أمامهم فإنهم أكثر عددا وأكثر قوة.

وجلسنا في صمت وملل نفكر ونفكر فأخذ آدم أحجارًا من الأرض وبدأ يرميها على الجدار من شدة الملل والصمت الذي يغزو المكان وعندما كان يرمي كل حجرة عليه كنت أشعر بحكة بسيطة في صدري كأن شيء يلامسه فنظرت إليه وهو يرمي الأحجار فلاحظت شيئا غريبا أن مع كل حجرة كان يرميها وتلامس الجدار أشعر بهذه الحكة وفجأة رمى آدم حجرًا بقوة فألمني كثيرًا فنظروا إلى جميعا، وقال جوزيف ما بك؟

- ألم ترَ هذا لقد آلمني صدري عندما رمى أرنولد الحجرة بقوة.

فاستهزأوا وضحكوا كثيرا ما عدا جوناثن وكأنه يريد تصديقي فقلت لهم يجب أن تصدقوني ثم قلت لهم أقسم لكم أن هذا الرمح لم يمسني أنا لقد مر بجانبي لقد اصطدم في الجدار وحينها أصبت بهذا الجرح الكبير يجب أن تصدقوني فقال آدم بكل سخرية حتى وإن صدقناك ما الذي يعنيه كل هذا؟

- يعني إن هناك شيئا عظيما يحدث أريد أن أتأكد منه وعندما أتأكد سوف أخبركم به وسيسهل علينا هذه الرحلة كثيرا.

- وما هو هذا الشيء؟

- ما زلت لا أعرف.

ثم جلست أمام الجدار أنظر إليه وأقول داخلي بصوت يملؤه الرهبة والتمني لو أن ما أظنه حيالك صحيح سأصبح أسعد إنسان خلقه الله على وجه الأرض ثم نظرت إليهم، ونظرات السخرية والجنون تملؤ أعينهم ولكنني لم أهتم، ولن أهتم سوى بما يشعر به قلبي.

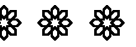

الفصل التاسع

"موجة الهلاك"

لا أشعر بحرارة الشمس ولا أشعر حتى بضوئها ففتحت عيني لأستيقظ وأرحب باليوم الجديد وأول شيء أراه وتقع عليه عيني هي الغيوم التي تملؤ السماء بكثرة حتى أن ضوء الشمس لا يمكنه المرور من خلال هذه الستائر العملاقة فتعجبت فهذه أول مرة نتعرض فيها لطقس مثل هذا داخل هذا المكان.. بعد أن تعرضنا له قبلا أثناء هجوم الفرسان علينا ولكنه لم يكن بهذه الصورة المرعبة، إنه يومنا العاشر أو الحادي عشر لم أعد أذكر الأيام والأوقات ولم يعد هذا اهتمامي على الإطلاق.

أخذ الفرسان طعامنا كله وأصبحنا نشعر بالتعب والإرهاق لذلك ذهبنا إلى البئر وقفزنا فيه لنستمتع بالشيء الوحيد المتبقي لنا في هذا العالم، ولقد تعافت قدم جوزيف تماما وأصبح يركض بها كالحصان ولا يشتكي من أي شيء لقد تعافى بسرعة مثلما تعافيت أنا.. شربت كثيرا وملئت معدتي بالمياه وأخبرتهم بأنني سأصعد وأنتظرهم في الأعلى فأنا أشعر بالتعب.. فلما صعدت وأخرجت رأسي من البئر حينها رأيت شيئا ذهلني وجعلني مندهشا لدقيقة كاملة لا أستطيع تصديق نفسي فخرجت من البئر وبدأت أمشي وأتساءل كيف أتت هذه المياه إلى هنا؟ إنني أرى الآن هذه الصحراء الضخمة تغمرها

المياه كأنني تماما أقف في محيط أو بحر كبير، لكن المياه ما زالت قليلة جدًّا بالكاد تغطي قدمي وتغطي مستوى الرمال فناديتهم سريعا ليروا هذا وعندما صعدوا فعلوا مثلي تماما ولم يصدقوا أنفسهم كيف تتحول هذه الصحراء الضخمة إلى محيط كبير!.. اتجهنا نحو الجدار للجلوس عنده والتفكير في أسوأ شيء ممكن أن يحدث لنا ونحن لا ندري ما الذي ينتظرنا؟ لكن الآن وحاليا يدور في ذهننا سؤال واحد فقط يقلقنا جميعا، وهو ماذا سوف يحدث أن زادت هذه المياه؟ فلن نستطيع السباحة لوقت كبير من شدة الإرهاق والتعب الذي يسيطر على أجسادنا.. وإن كان منهم أحد لا يستطيع السباحة حينها سنغرق سريعا دون أي مقاومة.

سمعت صوتا غريبا كأنه صوت شلال أو صوت أمواج لا أستطيع التحديد فنهضت ونظرت حولي فرأيت شيئا قادما من بعيد ولكنني لم أكن أراه بوضوح وحينما رأت عيني هذا الشيء وعرفت ما هو، قد تغير لون وجهي وشعرت بالدوار يا إلهي أنني أرى الموت قادما أمامي، إنها موجة ضخمة جدًّا تنافس الجدار في ضخامته.. قادمة نحونا وكانت تبتلع أي شيء تراه أمامها وقادمة الآن لابتلاعنا نحن، وعندما رأى الآخرون ذلك بدأوا يتخبطوا ويسقطوا أرضًا من هول هذا المنظر.. فسمعت صوتا آخرا قادما من خلفي فنظرت سريعا فرأيت موجة أخرى مماثلة قادمة وأصبحنا محاصرين من اليمين واليسار ننتظر الموت وليس موتة عادية إنها أبشع موته في الحياة إنه الغرق.. ولا أدري لماذا أنا خائف هكذا فأنا لا أخشى الموت فالموت كله واحد

مهما تعددت الطرق ولا يهمني كيف سأموت ولكن الذي يهمني حقًا هو أنني لن أكمل حلم حياتي وسأموت دون فعل أي شيء.

التصقنا ببعضنا البعض لا ندري ماذا نفعل كنا نسمع أصوات قلوبنا وهي تنبض بالخوف وكنا نرى الموجة وهي وقادمة ملاصقة للجدار وسرعتها كبيرة جدًا وكان يرعبنا ويقتلنا هذا المنظر المخيف.. لكني يجب أن أفعل شيئا لأخفف هذه المعاناة قليلا فقلت لهم لقد واتتني فكرة، من منكم يستطيع السباحة؟ فسكت الجميع وتكلم جوناثان وقال أنا.. فقلت لهم حسنا أنا وجوناثان نستطيع السباحة وأنتم فلا؛ لذا سنخلع قمصاننا وسأربط جسد آدم بجسدي وجسد جوزيف بجوناثن لكي نستطيع إنقاذكم ولكي لا ننفصل عن بعضنا مها حدث.. ففعلناها واستعددنا للمياه خائفين جدًا يكاد الخوف أن يقتلنا فأمسكنا أيدي بعضنا متأهبين لاصطدام الأمواج فينا.

تخيل بأنك واقف في صحراء وخلفك جدار كبير وإن نظرت يمينك ترى موجة هلاك قادمة نحوك وإن نظرت يسارك ترى مثلها تماما ولا يسعك أن تفعل شيئا سوى الانتظار وكلما انتظرت زاد ضعفك وقلقك حتى إيمانك بأنك ستنجو يقل في كل ثانية تمر وكلما تسمع صوت الماء يقترب يقشعر جسدك وينكمش كأنه يستعد لاستقبال الموت.. ثم تنظر لأعلى لترى ارتطام الموجتين ببعضهما وكأنهما يتقاتلان عليك وعلى من سيقتلك أولًا ثم تنطبق

عليك المياه وكأن السماء والأرض انطبقا عليك أخبرني كيف سيكون شعورك حينها.

فجأة لم أعد أشعر بشيء ولم أشعر بنفسي ولم يستيقظ عقلي وينتبه إلا وأنا داخل المياه وآدم مربوط بجسدي نتحرك يمينا ويسارا دون التحكم في أجسادنا كأننا نرقص مع المياه ولم أعد أسمع شيئا سوى صوت صراخي تحت الماء ولم أعد أرى شيئا سوى الظلام.. فدفعتنا المياه لأعلى حتى خرجنا على السطح هذا المحيط، ونظرنا يمينا ويسارًا لقد أبعدتنا المياه عن الجدار فبدأت أسبح نحوه وآدم متمسك بي خائف جدًّا لا يعرف شيئا عن السباحة وعندما وصلت للجدار والتصقنا به بدأنا ننظر حولنا بحثا عن جوناثن وجوزيف فوجدناهم قادمون من بعيد يسبحون ناحية الجدار بسرعة لنجتمع ولنكون مع بعضنا ولنواجه هذا الأمر سويًّا.

المياه هادئة والليل على الأعتاب ونحن ملتصقين بالجدار متمسكين به نحاول التحدث عن أي شيء لنخفف هذا الموقف قليلا وليمر الوقت بسرعة فقال جوزيف أنا لا أفكر في أي شيء الآن سوى هذه اللحظة الجميلة عندما ذهبت مع أبي في أول رحلة صيد لي وحينها اصطدت أرنبا كبيرا وقال لي أبي ستصبح صيادا ماهرا يا جوزيف فقط ثق بنفسك ولا تخف وأنا لا أسمع الآن سوى هذه الجملة في أذني وفي عقلي.. ثم قال آدم وأنا أفكر في أول فتاة ضاجعتها كانت أجمل فتاة قد رأتها عيني كانت بيضاء اللون وشعرها أحمر داكن وابتسامتها الرائعة الجذابة أستطيع تذكر كل ملامح وجهها وملامح

جسدها إلى الآن وكانت دائما تغني لي أغنية جميلة بصوتها العذب الرائع وها أنا الآن لا أسمع وأشعر بأنها تواسيني وتعطيني الأمل على البقاء.. ثم قال جوناثان وأنا أفكر في زوجتي وعندما طلبت الزواج منها وكان أفضل قرار اتخذته طوال حياتي لقد كانت مجنونة لكني أحببت جنونها وأحببت شغفها للحياة وأصبحت هي وبناتي جزء مني ولا أستطيع العيش بدونهم أبدًا.. ثم حان دوري أنا فقلت: أنا لا أفكر إلا في شيء واحد فقط هو تقبيل إليزابيث والمكوث في أحضانها ولو ليوم واحد فقط فلقد اشتقت إليها كثيرا وأعلم إنها اشتاقت لي أيضًا.. وظللنا نتكلم هكذا لساعات دون ملل عن أجمل ذكرياتنا.

لقد عم الظلام الشديد هذه الصحراء أو أقصد هذا المحيط الكبير ونحن ما زلنا عالقين في الماء.. لقد اشتدت الرياح كثيرا وهطلت الأمطار بغزارة شديدة وبدأت المياه تتلاعب بنا والرعد يتسابق مع الأمواج في كيفية إرهابنا وتخويفنا بصوته الجبار.

ظهرت موجة ضخمة من بعيد تقترب بسرعة كبيره.. حتى أنني استطعت أن أرى أنيابها الحادة تحتك مع المياه تريد التهامنا بكل شراسة، فتمسكنا ببعضنا متاهبين لصدمتها فضربتنا بقوة فغطسنا في الماء وابتعدنا عن الجدار ولكننا صعدنا مرة أخرى وسبحنا نحوه واجتمعنا ثانية ومن وقتها وقد بدأت الحرب بيننا وبين الأمواج وظللنا هكذا لما يقارب الساعة دون استسلام نحارب لأجل النجاة ولأجل ما قدمنا لأجله.

لم تعد لدينا أية طاقة لمواجهة موجة أخرى.. وآدم متمسك بي خائف وأنا تعب جدًّا ومرهق لم أعد أعرف هل أستطيع الصمود أمام واحدة أخرى أم لا فالتصقت بالجدار ووضعت يدي عليه وبدأت آخذ أنفاسي من شدة التعب والخوف ثم نظرت إلى يساري فوجدت موجة أخرى قادمه يا إلهي أن هذه الأمواج لا تنتهي أبدًا.. لكن هذه المرة كانت أضخم موجة تعرضنا لها.. نظرت للجدار ووضعت رأسي عليه وقلت هي لقد حان الوقت لتساعدني أنا أعرف بأنك من ساعدتني قبلا وأعرف بأنك ستساعدني الآن ولن تتخلى عني أنا لا أريد الموت أنا أريد أن أكمل الطريق لقد تحملت كل شيء مررت به ولن أموت هنا وبهذه الطريقة يجب أن أكمل ما قدمت لأجله أرجوك ساعدني أيها الوطن..

أغمضت عيني أنتظر ماذا سوف يحدث، أستطيع سماع دقات قلب آدم من شدة الخوف.. ضربتنا الموجة الكبيرة وغطسنا في الماء لا نشعر بشيء غير قادرين على السباحة والصعود للأعلى وكأنها النهاية، نهاية هذا المطاف الطويل المؤلم وكان البرق ينير السماء فجعلني ألقي نظرة أخيرة على الجدار قبل الموت وكنت متمسكا بالأمل لآخر لحظه ومتأكد بأن الجدار سينقذني.. وفجأة وأنا تحت الماء شعرت وكأن هناك موجة في الأسفل تدفعنا للأعلى بسرعة كبيرة كالصاروخ فخرجنا من الماء وارتفعنا في الهواء بعيدا عن المياه واحتككنا بالجدار وبدأنا نسقط فوضعت يدي عليه وأنا أصرخ هي هي، فتوقفنا فجأة وأصبحنا ثابتين مكاننا معلقين في الهواء فنظرت إلى يدي

فوجدتها بداخل الجدار كأنه أمسكها أو كأنها أصبحت حجرا من أحجاره وجزء منه ففرحت كثيرا وابتسمت ووضعت رأسي على الجدار وقلت شكرًا لك.

نظرت لأسفل إلى جوناثن وجوزيف وهم يعانيان من التعب الشديد فناديت عليهما بصوت عالٍ فنظرا إليَّ فقلت لهم انتظرا الموجة القادمة وسترفعكم إلينا فقط ثقوا في الوطن وبأنه سيرفعكما ثم ظهرت الموجة الجديدة من بعيد، وأثناء ظهورها خرجت سفينة من بين المياه أنارت المحيط كله بضوئها الرهيب وبياضها الناصع وكانت ضخمة جدًّا من المستحيل أن تضربها الأمواج أو حتى تؤثر بها ثم احتارا في الاختيار إما انتظار الموجة ويفعلا مثل ما قلته لهما أو يذهبا إلى السفينة الضخمة التي ستنجيهما من المياه.. فقال جوزيف لجوناثن هيا لنذهب إلى السفينة إنها أكثر أمانًا فرد عليه جوناثن بكل خوف لقد أمرنا جيمس بالبقاء وانتظار الموجة ويجب علينا فعل هذا إنه يعرف ما يقوله يجب علينا أن نثق في الوطن.

- حسنا أفعل ما شئت.

ثم فك القميص والرابط الذي كان بينه وبين جوناثن وانطلق ناحية السفينة لا يعرف السباحة ولكن المياه كانت تنقله إليها بسرعة كأنها تساعده.. وكان جوناثن يقف عند الجدار متمسكًا به خائفًا ينتظر الموجة

القادمة فبدأت أنادي: "يا جوزيف يا جوزيف" عد إلى هنا لا تترك الجدار أيها الغبي ولكنه لم يستمع إليَّ وكأن السفينة وهيبتها وعظمتها أعمت عينيه عن الحقيقة.. فنظرت لجوناثن وقلت له: ثق في الجدار وسيرفعك إلينا لا تخف لا تخف أبدًا، فضربته الموجة فغطس في الماء وصعد إلينا مثل الصاروخ وبدأ يحتك هو الآخر في الجدار ويهبط بسرعة ولكنه أمسك في قدم آدم وأصبحنا نحن الثلاثة في الأعلى الوزن ثقيل جدًّا على يدي ولكن لا يهم المهم الآن أننا بأمان.. جوزيف ما زال يسبح للسفينة بلا استسلام فهدأت الأمواج قليلا فوصل إليها وتسلق الحبال الطويلة المنسدلة منها وصعد على متنها وبدأ يلوح لنا وينادي هي هي وأنا أنظر إليه بكل حزن وأقول ماذا فعلت جوزيف لقد تركت الوطن من أجل سفينة عملاقة، يا ترى ما الذي سيحدث لك الآن..

بدأ الرعد يشتد في السماء وأنا لا أستطيع الاحتمال أشعر بأن يدي ستمزق وجوزيف ما زال يلوح لنا يريدنا أن نأتي إليه ولكني أرفض تماما فأفضل أن تتمزق يدي مئات المرات على أن أترك هذا الجدار.. وفجأة غضب الرعد جدًّا وبدأ يضرب المحيط الكبير وكنا خائفين جدًّا من منظرة الرهيب وعظمته فضرب الرعد السفينة بقوة فحطم شراعها ثم ضربها مرة أخرى بقوة أكبر فشقها نصفين وظل يضربها ويضربها إلى أن فتتها تماما ولم يتبقَّ منها شيء سوى بعض القطع الصغيرة المتناثرة في المحيط.. فدمعت عيني واختلطت الدموع بالأمطار وحزنت كثيرا على ما حدث لجوزيف وفجأة

بدأت المياه تقل بصورة كبيرة كأن الصحراء قد ثقبت من الأسفل لتبتلع هذه المياه وقبل أن تنفذ المياه تماما من الصحراء تحررت يدي من داخل الجدار وسقطنا نحت الثلاثة أرضًا فاقدين الوعي تماما لا نشعر إلا بالرمال المبتلة تحتنا.

فتحت عيني أشعر بدوار خفيف أتحسس وجهي المليء بالرمال الملتصقة عليه أحاول استيعاب ما حدث فأجد آدم وجوناثن ممددين على الأرض كالميتين تماما فنهضت لأذهب إليهما وأوقظهما وأثناء ذهابي لمحت عيني شيئا ملقى على الأرض هناك فنظرت فوجدته جوزيف فصرخت وقلت يا إلهي واتجهت نحوه بسرعة فمن الممكن أن يكون على قيد الحياة فاستيقظا على صراخي وبدءا يفيقا ويستعيدا وعيهما.. فأمسكته لأتفحصه بكل لهفة، عندي أمل ضئيل جدًّا أن يكون على قيد الحياة، فنظرت إلى وجهه فوجدت عينيه مفتوحتين ووجه أزرق وشكله ينم على أنه ميت لا محالة فجلست ووضعت يدي على رأسي وبدأت أبكي عليه لقد كان رجلا جيدا.. فأتيا مسرعين من خلفي لرؤيته متلهفين هم أيضًا ويمتلكان الأمل ولكن عندما رأياه فعلا مثلي تماما وتأثرا جدًّا فقال جوناثن وهو يجثو أرضًا بالطبع إنه ميت وكيف لا يكون وقد صعق أكثر من مرة.. فنهضت من مكاني قائلا إنه المسؤول عن موته هو الذي أختار الطريق الخاطئ ولكن ليس هذا وقت الكلام يجب أن ندفنه تكريمًا له لقد كان رجلا جيدا ومات وهو يحاول إثبات نفسه للوطن.. حفرنا بأيدينا لساعات وبعد أن انتهينا وضعناه في القبر الذي

حفرناه له بجانب الجدار، ونظرنا إليه النظرة الأخيرة وودعناه بأعيننا وقلوبنا وبدأنا بتغطيته بالرمال والحزن يمزقنا من الداخل على فراقة.. أسندت ظهري إلى الجدار لأرتاح قليلا من مجهود الحفر فجلس جوناثن بجانبي، ثم قال أريد أن أعرف شيئا منك وهو كيف التصقت يدك بالجدار؟ وكيف عرفت أن الموجة سترفعني إليك؟ وكيف تحملتنا نحن الاثنين هذه المدة كلها؟ كيف حدث هذا؟

- حسنا إن هذا الجدار ليس كما تتوقع إنه ليس مجرد أحجار نستظل بها أو تدفئنا ليلا أو تهون علينا الحرارة، لا إنه أهم من ذلك بكثير إنه الوطن يا جوناثن.

فجاء آدم وقال ألن تذهبوا إلى البئر قليلا؟ هيا بنا لنذهب فأنا لا أريد الذهاب بمفردي.

فقال له جوناثن أنا قادم معك يا جوزيف فأنا أريد تنظيف نفسي من هذه الرمال وأريد شرب بعضا من الماء.. فذهبا وتركاني أفكر، أفكر في معنى كلمة واحدة تدور في عقلي وهي كلمة الوطن فالوطن هو الذي يدخل قلبك من أول وهلة ويستوطن داخله وأنا شعرت بذلك، الوطن هو الذي تشعر بجانبه بأنك في أأمن مكان خلقه الله على وجه الأرض وأنا شعرت بذلك، الوطن هو الذي يساعدك عندما تطلب منه أو عندما فقط تحتاجه وأنا شعرت بذلك، الوطن هو الذي يكون معك أينما كنت وداخلك مهما ابتعد

وأنا شعرت بذلك.. إن هذا الجدار هو الوطن فمن المستحيل أن أشعر بكل هذه المشاعر مع جدار لا يوجد به سوى الأحجار لا يساوي شيئا، لا والله إنه أعظم من ذلك بكثير والآن أستطيع إكمال الرحلة وإكمال الطريق دون خوف فالوطن دائما حولي ودائما يحميني.

أسمع صوتا خائفا ينادي باسمي جيمس جيمس فاستيقظت بسرعة لأرى ما يحدث فوجدت جوناثن يقول لي أن آدم اختفى ولم يعد هنا لقد بحثت عنه في كل مكان ولم أجده لابد وأن حدث له شيء ما لابد وأنه في خطر.

الفصل العاشر

"البحث عن آدم"

لم أعد أذكر الأيام ولا عددها فلقد أصبحت جميعها متشابهة في نظري فنحن في كل يوم ننتظر الموت ولا ندري هل سنعيش يوما آخر أم لا، في كل يوم الأوضاع تزداد سوءًا وتزداد ألما وعذابا.

لقد اعتدت على هذه الحياة وكأنني سأبقى هنا للأبد ولا مفر للخروج من هنا.. نجلس عند الجدار نفكر في آدم واختفائه المفاجئ هذا ويا ترى أين هو الآن؟ وما الذي حدث له؟ فنهضت من مكاني وقلت لجوناثن بكل غضب وخوف يجب أن نبحث عنه، فمن الممكن أن يكون قد حدث له مكروه في هذه الصحراء وهو الآن بمفرده دون مساعدة.

- أتريدنا أن نغامر بحياتنا للبحث عنه في هذه الصحراء الخالية؟ إن بطوننا تتألم من الجوع والماء لا يمكننا حمله معنا ولم نعد نملك أية طاقة فكيف سنبحث عنه برأيك وإن ذهبنا خلفه فنحن في عداد الموتي.

- اسمعني جيدا سنجلس هنا ننتظره وإن لم يعد خلال ساعة واحدة سأذهب في وسط هذه الصحراء للبحث عنه حتى وإن كنت لا تريد الذهاب فأنا لن أتركه يموت هناك وحده ونحن هنا جالسين.

ثم تركته يفكر فيما قلته له وذهبت أنا للشرب.. وعندما اقتربت من البئر سمعت صوتا غريبًا يأتي باتجاهه فاقتربت منه أكثر وأدخلت رأسي داخله لكي أعرف مصدر هذا الصوت لكنه توقف فجأة، فاعتقدت بأنها هلوسات بسيطة بسبب جوعي الشديد، فتكرر الصوت مرة أخرى لكن هذه المرة لم يكن من داخل البئر لقد كان من خارجه، فبدأت ألتف حوله وكنت أسمع الصوت يزداد أكثر فأكثر وفجأة رأيت أمامي حصانا مستلقي على الأرض لا يستطيع التحرك وكأن لسانه خارج فمه يلامس الرمال ومن الواضح أنه متعب جدًّا وعطش أيضًا ويحتاج إلى الماء ففكرت بسرعة وخلعت حذائي وقفزت في البئر وملأت الحذاء على آخره من الماء البارد المنعش وصعدت به بكل حذر وأمسكت رأس الحصان وجعلته يشرب وكان عطشا جدًّا فلقد ملأتها له أكثر من مرتين وبعد أن أنهى شربه نهض من على الأرض بكل نشاط وحيوية وأصبح يهز في نفسه وفي شعره الطويل الذي يلامس الأرض واستعاد قوته ورونقه مرة أخرى ورأيته على حقيقته حينها..

اقتربت منه ووضعت يدي على رأسه وكان حصانا جميلا جدًّا لقد سحرني بشكله وجماله وأنوثته نعم لقد كانت أنثى جميلة تخطف العيون وكل من ينظر إليها.. لقد كان حصانا أبيضا ناصع البياض وشعره بنيا أطرافه تلامس الأرض وعيناه تملأهما السواد كسواد الليل القاتم وكان قوامه يوحي بأنه حصانا قويا ويافعا، فوضعت يدي على شعره البني الذي كان يتلاعب ويرقص بين أصابعي.. ثم اقتربت منه ولامست أنفاسه أنفاسي

ثم خفض رأسه للأسفل ولامس صدري كأنه كان يشكرني على ما فعلته له، فنظرت إليه وقلت: إن كنت تريد أن ترد لي هذا الدين حقًّا فأنا أحتاجك في مهمة بسيطة أنا أعلم بأنك هدية ومساعدة قادمة من الوطن ولن أردك أبدًا.

ركبت فوق ظهره ولففت شعره حول يدي وانطلقت بإتجاه جوناثن.

مستلقٍ على الأرض شبه نائم فسمع صوتا غريبًا قادما نحوه فنهض بسرعة ونظر فوجد حصانا أبيضا رائعا وأنا من أمتطيه وأمسك شعره حول يدي وأقول هيا اصعد يا جوناثن فلنذهب ونبحث عن آدم.. فركب خلفي وقلت له سنذهب سريعا للبحث عنه لن نأخذ وقتًا طويلًا ومعنا هذا الحصان السريع.. وانطلقنا نشق الصحراء بحصاننا الأبيض باحثين عن أي علامة تدلنا عليه.. وبعد أكثر من نصف ساعة من البحث في الصحراء بدأت تقترب منا مجموعة من الجبال الصغيرة، فقررنا الذهاب إليها فمن الممكن أن نجده هناك.. اقتربنا منها فوجدنا مدخلًا يؤدي إلى هضبة ضخمة تجعلنا نمر بجانب الجبال من الأعلى ونتفادى الدخول إليها فصعدنا إلى تلك الهضبة وكان المنظر رائعًا جدًّا من الأعلى والشمس كانت جميلة جدًّا وغير حارقة بخلاف عادتها ولكن الأوقات السعيدة لا تدوم أبدًا وفجأة سمعنا أصوات ثعالب أو ذئاب لم نحدد مصدر الصوت بالتحديد ولكن من منا لا يعرف صوت الموت إذا سمعه وها نحن الآن نسمع صوته تماما.. فنظر جوناثن خلفه فوجد العشرات من الذئاب الجبليه خلفنا وكان أصغر واحد

منهم كالذي هجم علينا هناك عند الجدار.. ولكن من حسن حظنا أن حصاننا أسرع منهم بكثير.. فوجدنا أمامنا غابة كبيرة في نهاية الهضبه فدخلنا إليها بسرعة دون تردد فإنها المخرج الوحيد من هذه الورطة.. دخلنا الغابة وبدأنا نمشي بالحصان بين الأشجار لا ندري أين نحن أو ما إن كانت هذه الغابة آمنة أم لا وفجأة وجدنا بحيرة صغيرة أمامنا فركضنا نحوها بسرعة وبدأنا بالشرب منها نحن الثلاثة فموقف الذئاب هذا أرعبنا كثيرًا.. وبينما أنا أشرب نظرت أمامي فوجدت أشجارا مليئة بالثمار الطازجة والشهية فركضت بسرعة نحوها وأخذت بعضا منها وغسلتها في البحيرة وبدأت آكلها بشراهة وأستمتع بطعمها الرائع اللذيذ كأنني أتذوق فاكهة لأول مرة في حياتي لقد نسيت تماما مذاق الطعام كله، وأعطيت البعض لجوناثن وللحصان لكي يأكلا.

لقد نسينا كل شيء وكنا نمرح بهذه البحيرة الجميلة والثمار الكثيرة لقد كان هناك جنة بأكملها قريبة منا ولكننا لم نكن نراها.. فسمعنا فجأة صوت صراخ قادم من مكان قريب وكان صوت رجل يشبه صوت آدم بعض الشيء فتركنا كل شيء بيدينا وربطنا الحصان بشجرة واتجهنا نحو الصوت بسرعة.. لاحظنا بعض الأشخاص من بعيد فتوقفنا واقتربنا بحذر وصرنا نراقب الوضع من بين الأعشاب والأشجار.. فرأيت أشخاصًا أظن بأنني أعرفهم جيدا إنها نفس الملابس ونفس الملامح القبيحة ونفس الأقنعة السوداء إنها قبيلة الفرسان السوداء التي هجمت علينا في الصحراء.. وكانوا

يمسكون بعضا من الأشخاص لا يرتدون مثلهم ولا يشبهونهم كأنهم من قبيلة أخرى أو من مكان آخر، وكانوا يتكلمون مثلنا وينطقون مثلنا كأنهم من عالمنا.. يجلسوهم أرضًا ويضربوا واحدًا منهم بشدة أمام أعينهم، وبعد أن انتهوا من ضربه ذبحوه بسكين ثم ذبحوا الباقين دون رحمة، لقد فعلوا نفس الشيء الذي كانوا سيفعلوه معنا فخفنا وفزعنا وعرفت بأنهم فعلوا نفس الشيء لآدم وبأنه من المستحيل أن يكون قد نجا من هذا الهلاك.. ونهضنا نركض من هذه الغابة نريد العودة إلى الجدار والعودة إلى الوطن.

توقفنا لكي نركب الحصان بسرعة فنظرت يميني فوجدت اثنين من القبيلة في وجوهنا يقفان أمامنا الأول معه سكين صغير والثاني بحوزته حقيبة مليئة بالأخشاب المدببة الحادة فوضعت يدي خلف رأسي وجثوت على ركبتي فنظر إليَّ جوناثن متعجبًا مما أفعله وقال لي ماذا تفعل؟ فرددت عليه بكل ثقة وقوة لا تقلق افعل مثلي وسترى.. فأتى إليَّ ذو السكين ووضعه على رقبتي والآخر أخذ خشبة من حقيبته واتجه نحو جوناثن ولكني تصرفت بسرعة أخذت السكين من يده وضربته بقبضتي على وجهه فسقط أرضًا ثم انقضضت عليه وطعنته بالسكين في قلبه مرات متتالية وبسرعة دون أي رحمة، أما الرجل لآخر فانقض على جوناثن ليضربه بالخشبة المسننة لكنه تفادى الضربة وأمسك حجرا من على الأرض وضربه بها على رأسه بقوة فسقط أرضًا فانقض علية مرة أخرى وانهال عليه بالضرب مرارا وتكرارا إلى أن مات الرجل وتهشمت رأسه تماما فاتجهت نحوه بسرعة وأخذت حقيبة

الأخشاب واتجهت باتجاه الحصان وركبته وناديت على جوناثن ليأتي لكنه واقف مكانه ينظر للدماء التي على يده لا يصدق ما فعله فناديته مرة أخرى هي هي لكنه لم يكن يسمعني بل كان يسمع صوت ضميره الذي يعذبه الآن وصوت عقله الذي جعله يقتل لأول مرة.. وفجأة خرج رجل من بين الأشجار وأمسك جوناثن وأسقطة أرضًا ثم أمسك شيئا صغيرا معلق على رقبته ونفخ فيه بقوة فأصدر صوتا عاليا رج الغابة بأكملها، وكأنه كان يستدعي باقي القبيلة فنظر إليَّ جوناثن في عيني وقال اذهب يا جيمس اذهب قبل أن يأخذوك أنت أيضًا أرجوك عد إلى الوطن سالما وأكمل المهمة فأهل القرية يحتاجونك أهل وطنك يحتاجونك يا جيمس، وأخبره أرجوك بأنني كنت أحبه كثيرا ومستعد لفعل أي شيء من أجله اذهب الآن.. فدمعت عيني وانطلقت بسرعة تاركًا الغابة وتاركا جوناثن خلفي.

وصلت إلى الهضبة وكنت أركض بالحصان سريعا أسابق الريح خائف من شيئان الأول أن تلحقني القبيلة وتمسك بي والثاني أن تلتهمني الذئاب، ولكن بالفعل ما أخافه تحقق لقد تعقبتني الذئاب واشتمت رائحة خوفي ورائحتي الشهية فصعدوا على الهضبة وبدأوا بالركض خلفي ولكن هذه المرة بأعداد أقل لقد كانوا حوالي عشرة ذئاب تقريبا ولكن سرعتهم أكبر وجوعهم أصبح أشد.

لقد نزلت من على الهضبة ودخلت إلى الصحراء أشقها بحصاني أنظر إلى الجدار من بعيد وما زالت الذئاب خلفي لعابها يتطاير في الهواء من شدة

الجوع.. ولكن حينها لم أكن أفكر في أي شيء سوى ملامسة الجدار واحتضانه حتى وإن كانت نهايتي ولكن أتمنى أن تكون نهايتي وأنا أحتضن الوطن، ولكني تذكرت بسرعة ما حدث لي عندما أصبت في كتفي وعندما كان يرمي آدم الأحجار على الجدار.. فابتسمت وعرفت ما سأفعل، اقتربوا مني كثيرا وعندما وصلت قفزت بسرعة وارتطمت بالجدار وسقطت أرضًا ولكنني تركت الحصان خلفي فانقضت الذئاب عليه بأنيابها وأسقطته أرضًا وبدأت بالتهامه حيا أمام عيني وأنا أتألم كثيرا لا أستطيع فعل أي شيء له.. فوضعت يدي على عيني وبدأت في البكاء على حصاني وعلى صديقي وعلى كل شيء أمر به لقد دخلت في حالة صدمة قوية ولم أكن أستطيع التوقف، ولكن رفعت يدي عن عيني ونظرت لهم بكل غضب شديد كأن غضب الدنيا كلها تجمع داخلي وأخذت خشبتين من الحقيبة التي معي وابتعدت عن الجدار قليلا لا أعرف ماذا أفعل ولا أسيطر على نفسي..

رآني واحد منهم فترك لحم الحصان وطمع في لحمي وانقض عليَّ لكني جثوت بسرعة فارتطمت رأسه بالجدار وسقط وبدأ ينظر إليَّ في عيني ويشتم رائحة عرقي ولكنه لا يستطيع رؤيتي فأخرجت خشبة من الحقيبة التي بحوزتي ونظرت في عينه وقلت هذا من أجل حصاني وطعنته بها في رقبته من شدة حزني وألمي.. من ثم ابتعدت عن الجدار مرة أخرى وناديت عليهم بصوت عالٍ فنظروا إلى جميعهم وتركوا الحصان وركضوا إليَّ بسرعة، فلامست الجدار كي أختفي واقتل ذئبا ذئبا إلى أن أنهيت عليهم جميعا، ما

عدا واحدا ما زال يأكل من أحشاء الحصان فخرجت له وابتعدت عن الجدار تماما ووقفت أمامه أمسك خشبتين في يدي وجسمي مليء بالدماء وشكلي كالمجنون تماما فرآني فترك الحصان ونظر إلى بكل شراسة وكان حقًّا ثعلبا ضخما جدًّا.. فركض نحوي بسرعة وقفز عليَّ فوضعت خشبه بين أسنانه فسقط فوقي يحاول التهام وجهي لكن الخشبة تمنعه والخشبة الآخرى التي في يدي طعنته بها في رأسه لكي يذوق طعم الموت المؤلم كما أذاقه لهذا الحصان المسكين.

توجهت إلى الحصان لا أستطيع أن أمسك دموعي وعندما اقتربت منه جثوت على ركبتي وعيناي تدمع وكان منظره بشعًا والدماء تملؤه وتلطخ وجهه، وأحشائه كلها خارجة فوضعت يدي على رأسه وشكرته على ما فعله لي ووضعت يدي الآخرى على عينه لأغلقها.. نهضت والدماء تملؤني وتوجهت نحو البئر لكي أغتسل وأنظف نفسي من دماء الثعالب القذرة وأريح أعصابي قليلا.

قبل دخولي إلى البئر خلعت ملابسي جميعها المطلخة بالدماء وقفزت في البئر بكل حرية باحثا عن الانتعاش والحياه، وأنا عارٍ تماما مجرد من كل شيء من الإحساس والتفكير حتى ملابسي، وحقا كان أفضل شعور أشعر به في حياتي هو عندما أقفز ويلامس جسدي المياة الباردة وأغوص داخل المياه لبعض الوقت داخل الظلمة والهدؤء بحيث يتوقف عقلي وأعضاء جسدي

المزعجة عن العمل لكي أستطيع سماع دقات قلبي داخل البئر وصوتها وهي ترتطم في جدرانه والشعور بكل شيء حولي كأنني جزء من هذا البئر.

إن الليل يدق أبواب السماء لذا يجب عليَّ الصعود لكي أكون آمنا بجانب الجدار فكل ما يهمني وما أفكر فيه أن أظل بجانب الوطن مهما حدث فأنا أشعر بأني قريب من تحقيق حلمي الذي طالما سعيت إليه فأنا الآن المتبقي من جميع أصدقائي وسأواجه كل شيء بمفردي بلا أية مساعدة إلا فقط بمساعدة الوطن وحماية الرب.

لقد عرفت شيئا هاما اليوم ومن الممكن أن يساعدني كثيرا، لقد أخفاني الجدار اليوم عن أعين الذئاب وحماني منهم وهذا سيكون مفيدا لي جدًّا فمن الآن وصاعدا لن أترك الجدار أبدًا مهما حدث بعدما تأكدت أنه هو الوطن بنفسه.

❁ ❁ ❁

الفصل الحادي عشر

"يجب أن أحميهم"

أسند ظهري إليه ولا أشعر بأي شيء حولي إلا هو فقط، كأني جزء منه كأنني حجرا من أحجاره، كأني ذرة رمل من ذرات الرمال الملتصقة به أشعر بكل ما يشعر به هو أشعر بالحراة أشعر بالرياح المرتطم به أشعر بقوته وثباته في الأرض أشعر بكل شيء.

أنظر إلى الصحراء وهي خالية ويعمها الهدوء لقد اشتقت حقًّا لهم، لقد اشتقت إلى ثرثرة جوزيف وغموض جوناثن ومرح آدم ولكن كلهم ذهبوا ولم يتبقي غيري الآن لأكمل المسيرة وحدي.

أراقب الطيور وهي تحلق بجانب الجدار بحرية وأجنحتها تحتك بأحجاره وصوتها الجميل ينم على السعادة والأمان كأنها تعرف بأن هذا هو الوطن.. لقد كان منظرًا رائعًا جدًّا ويساعد على استرخاء الأعصاب، ولكنني فجأة سمعت صرخة قوية قطعت عني هذه اللحظة الجميلة.. فنهضت من مكاني أتلفت يمينا ويسارا أريد معرفة مصدر هذا الصوت فلاحظت شيئا من بعيد جدًّا بالكاد ألاحظه كأنه كوخ أو بيت صغير ولم أسأل نفسي قط كيف ظهر هذا البيت هنا لأنه لا يوجد وقت للتفكير ولا أعرف إجابة أيضًا لهذا

السؤال.. فركضت نحوه بسرعة لأستطيع اللحاق بمن صرخ هكذا قبل فوات الأوان.

وعندما اقتربت رأيت بيتًا كبيرًا جدًّا وأمامه مزرعة مليئة بالذرة يشقها ممر صغير يؤدي إلى البيت فركضت فيه بسرعة ووقفت أمام الباب وبدأت أنادي وأدق الباب بسرعة.. وفجأة انفتح الباب ورأيت بندقية موجة إلى وجهي ورجل عجوز مقعد قدمه اليسرى مقطوعة ويقفن وراءه ثلاث بنات في غاية الجمال.. فجثوت على ركبتي ورفعت يدي لأعلى وقلت لقد كنت قريب من المزرعة وسمعت صرخة عالية فأتيت مسرعا هل كل شيء على ما يرام؟

فأنزل الرجل العجوز بندقيته وقال "لا" لا يوجد شيء بخير هنا على الإطلاق.. أدخل إلى البيت وسأخبرك بكل شيء.

فدخلت البيت وأغلقت الباب إحدى بناته الجميلات وجلست على كرسي وقدموا لي شيئا لأشربه ثم نظر إليَّ الرجل العجوز وقال هل تعيش هنا؟ ما الذي أتى بك إلى هذه الصحراء الجرداء؟

- لا أنا لا أعيش هنا، أنا اسمي جيمس وكنت أنا وأصدقائي في رحلة صيد لبضع أيام وحدثت أمور كثيرة.. ولم يتبقَّ سواي فكنت أجلس في ظل هذا الجدار هناك وسمعت الصراخ فجأة فأتيت مسرعا والآن أخبرني ماذا يحدث؟.

- حسنا، لكني لن أخبرك ما حدث حتى تخبرني أنت أولًا ما الذي حدث لأصدقائك وما الذي أتى بك حقًّا إلى هنا لأني لا أصدق موضوع الرحلة هذه لأن هذه الصحراء المخيفة ليست مكانا جيدا للرحلات.

ثم سكت قليلا لابد وأن أخبره بكل شيء لا يوجد شيء أخاف منه أو أخشاه.

- حسنا لقد اتينا لهذا المكان لكي نختبر أنفسنا ومن سيصمد منا ويتحمل وينجو في هذه الصحراء سيصبح زعيم قبيلتنا المقبل ولكن وبعد مرور أيام من الخوف والقلق والمتاعب مات صديقي ثم اختفى الآخر فذهبت أنا وشخص آخر للبحث عنه.. فتعرضنا لأناس لا ترحم أناس وحشية جدًّا تقتل أي شيء أمامها.. وأثناء هروبنا منهم اعترضوا طريقنا وأمسكوا به وأنا هربت وعلى ما أعتقد بأنني المتبقي من أصدقائي وأحاول جاهدا البقاء على قيد الحياة.

- حسنا سأحاول تصديق ما قلته لي لأنني أحتاجك والآن اسمع قصتي أنا، أن كل فترة يأتي رجل لهذه المزرعة لا يمكننا معرفة وقت مجيئة أو حتى رؤيته أو تحديد مكانه إنه سريع جدًّا ويختفي بين الظلام كالظلام نفسه ويقفز قفزات عالية جدًّا لا يمكن لبشري أن يقفزها وكان دائما يأتي في الليل ليسرق بعضا من محاصيلي وأحيانا يخترق البيت ويأخذ بعض الأشياء الموجودة به، ويسرق الحيوانات، ويسرق من مياه البئر التي تبقينا على قيد

الحياة ولكن في الآونة الأخيرة أصبح يأتي كثيرا جدًّا صباحًا ومساءًا وفي أي وقت يريده وقبل أن تأتي أنت بفترة وجيزة اخترق البيت وحاول التعدي على ابنتي ديانا فوجهت إليه بندقيتي لأقتله لكنه فر هاربا قافزا بعيدا عن المزرعة، لذا نرجو منك أن تبق معنا فقط ليومان أو ثلاثة أيام وعندما يحاول مهاجمتنا مرة أخرى تتصدى له فأنت شاب قوي تستطيع الدفاع عن نفسك والدفاع عنا أما أنا فلا أستطيع حتى حمل السلاح، وسنكون ممتنين لك جدًّا، وسنفعل لك كل ما تريده إن خلصتنا من هذه الورطة التي على وشك القضاء علينا وسنؤمن لك مكانا لترتاح به وسنوفر لك طعاما وشرابا وكل ما تحتاج إليه لكن أرجوك وافق.

فنظرت إليهم ووضعت الكوب على الطاولة ونهضت من مكاني وقلت له أنا آسف لا أستطيع فعل ذلك عندي شيء أهم لأفعله لقد أتيت لهذه الصحراء من أجل شيء معين حلمت به طوال حياتي ولن أخاطر بضياعه من أجل شيء كهذا.

- أرجوك لا تذهب إن قتلني هذا الرجل كيف ستعيش بناتي من بعدي سوف يقتلهن واحدة تلو الآخرى وأنت تعرف جيدا ما الذي سيفعله بهن وهن ضعاف ومساكين ولا يستطيعون حماية أنفسهن أرجوك ابق معنا وساعدنا وسأفعل لك أي شيء تريده.

- أنا آسف، لا أستطيع.

فتحت الباب وخرجت وبدأت أمشي في الممر الضيق وأنا أكلم نفسي هل ما أفعله هذا صحيح أم لا فتوقفت ونظرت إليهم وهم يبكون عند الباب خائفين مما سيحدث لهم ثم أغلقت الباب في وجهي إحدى أجمل بناته وأكبرهم فأكملت الطريق ولم أدع هذا يؤثر عليَّ.. وفجأة توقفت مرة أخرى إن ضميري يؤلمني كثيرا، فتوقفت والتفت واكتشتف شيئا عجيبا لم أكن ألاحظه لم تكن تراه عيني ولم يشعر به قلبي جعلني أبتسم واقرر مساعدتهم على الفور، لقد وجدت أن المزرعة تلتصق بالجدار أي أن الجدار هو وطنهم هم أيضًا ويجب عليَّ دائما أن أساعد أبناء وطني ولا أتخلى عنهم أبدًا ومن الممكن أن يكون هذا اختبارا للوطن ليعرف إن كنت سأتخلى عنهم أم لا فبدأت أمشي ناحية المزرعة وأنا أقرر داخلي بأني سأفعل كل ما في وسعي لإخراجهم من هذه المشكلة وإبعاد هذا الرجل للأبد حتى وإن اضطرت إلى قتله.

وأثناء عودتي سمعت صراخًا آتٍ من البيت فبدأت أركض سريعا إلى أن وصلت وعبرت الممر وكسرت الباب بكتفي ودخلت عليهم ورأيت الثلاث بنات ملقيات على الأرض وواحدة منهم مجروحه أما الرجل العجوز جالس على كرسية ويقف أمامه الرجل المجهول الذي يغطي وجهه بقناع أبيض عليه علامات سوداء ويمسك سكينا ويضعها على رقبة الرجل العجوز فركضت نحوه بسرعة فدفع الرجل نحوي لأتعرقل وأسقط أرضًا، وقفز هو هاربا من

الشباك فنظرت إليه وهو يهرب لقد كان سريعا جدًّا ثم قفز قفزة كبيرة طار بها في الهواء واختفى خلف الحظيرة ولم أعد أراه.

أحضرت الماء إلى الرجل العجوز وساعدت البنات على النهوض إلا الفتاة الأكثر جمالا كانت غاضبة مني فأبت أن أساعدها.. ثم قلت لهم سأجلس معكم وأساعدكم على التخلص منه نهائيا ثم سأذهب وأنا أعتذر لأني تركتكم وحدكم وذهبت ونظرت إلى الفتاة المنزعجة مني بكل آسف لكي تتقبل اعتذاري.

- لا بأس يكفي أنك عدت ووافقت على مساعدتنا ونحن نشكرك كثيرا على هذا.

- ولكني أريد أن أعرف منك لماذا لم يقتلك هذا الغريب بسرعة وكان يتكلم معك ما الذي كان يخبرك به؟

- إنه يريد أن يأتي إلى هنا وقتما يشاء يأكل ويشرب ويضاجع إحدى بناتي ثم يذهب ونتيجة لهذا سوف يدعنا أحياء ولن يقتلنا.

- أقسم لك بأنني لن أدعه يفكر في هذا مرة أخرى وسأجعله يندم على اليوم الذي أتى فيه لهذه المزرعة ونهايته ستكون على يدي.

جلست معهم على الطاولة لكي أتناول العشاء وكانت البنات تنظر إلى نظرات غريبة كأنها نظرات إعجاب أو قلق لا أعرف تماما.. قال الرجل العجوز لم تتح لنا الفرصة لكي نتعرف، أنا ديفيد وهؤلاء بناتي ديانا

وأنجلينا وسارة.. وكانت ديانا أجملهم وأكبرهم وأنجلينا جميلة أيضًا لكنها صغيرة ولوكا كانت أوسطهم وأقلهم جمالا لكن جسدها كان رائعا جدًّا.. ثم تكلمت قليلا مع البنات لأنزع بيننا الحياء والرهبة والوحيدة التي لم تعرني اهتمام ولم تتحدث معي إطلاقًا هي ديانا وشعرت حينها بأنها تكرهني ولكني لم أهتم فلم آتِ إلى هنا لأكتسب إعجاب الفتيات ومحبتهن بل لكي أحميهن من هذا الرجل الغريب الذي لا أدري إلى الآن حقًّا إذا كنت أستطيع مواجهته أم لا.

أخبر ديفيد ابنته سارة أن ترشدني لغرفتي فالليل على وشك الحلول ويريدني أن أرتاح قليلا لأسهر طوال الليل أحميهم من هذا الرجل.. دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفي وجلست على السرير قليلا ثم استلقيت لأرتاح ولأريح ظهري ويا إلهي لقد ظننت بأنني لن أشعر بهذا الشعور مجددا أبدًا، معدة مملوءة بطعام لذيذ وغرفة دافئة وسرير ناعم ومريح إنه أفضل شعور على وجه الأرض إنه شعور الاستقرار.

مستلقٍ على السرير أحاول أن أنسى آلام الأرض والرمال، والنوم عليهما لأيام.. فدق باب غرفتي فجأة، فأمرته بالدخول فدخلت ديانا وأغلقت الباب خلفها ووقفت أمامي وقالت بكل عزة نفس وكبرياء أنا آسفة.

- آسفة على ماذا.

- لأني أغلقت الباب في وجهك وأسأت إليك وعاملتك بقسوة.

- لا بأس أنا هنا لكي أحميكم لا داعي لتتأسفي لقد كنت سأترككم قبلا لكنني عدت الآن وهذا هو المهم.

- لذلك حضرت لك مفاجأة قبل أن تنزل للأسفل وتسهر على حمايتنا طوال الليل.

- وما هي هذه المفاجاة.

وفجأة رأيتها تخلع فستانها الأزرق ليسقط من على جسدها الناعم بكل سهوله وتقف أمامي عارية بلا أي ملابس وعندما رأيت هذا المنظر الجميل المبدع بدأت مشاعري في الاستيقاظ من قبرها وبدأت شهوتي في إشعال حرارة جسدي فنهضت من على السرير لا أتمالك نفسي ولا أستطيع التحكم بها، أحاول أن أمسك الذئب الذي بداخلي لكي لا يلتهم هذه القطعة الطرية من اللحم الطازج ثم قلت لها بكل تردد أنا متزوج ولا يسعني فعل ذلك.

- الهدية لا ترد وخاصة إن كانت هدية مثل هذه.

ثم قفزت بين أحضاني ولامست شفتاها شفتاي وبدأت تقبلني بشراسة وشراهة شديدة وحينها خرج الذئب الذي بداخلي ولم يستطع السيطرة على أعصابة ليأكل هذه الجميلة بأنيابه الحادة دون رحمة وكانت ليلة مليئة بالصراخ والألم الممتع الذي لا نريده أن ينتهي أبدًا.

استيقظت صباحا على ضوء الشمس الجميل الذي يدخل من النافذة الصغيرة بعد ساعات وساعات من السهر طوال الليل أمام البيت

لحراستهم.. نزلت إلى الأسفل وقابلت ديفيد والبنات وفطرت معهم ثم قال العجوز لبناته هي حان وقت العمل في المزرعة فقلت له هل يمكنني أن أعمل معهن أنا لا أحب الجلوس هكذا، فوافق ونزلت معهن للمزرعة.

أولًا ذهبت مع ديانا إلى الحظيرة لتطعم الحيوانات وعندما دخلت لم أجد سوى بقرتين وبعض من الدجاج وحصان وكلب للحراسة فسألتها أكان عندكم حيوانات أخرى هنا؟

- نعم لقد كان لدينا الكثير، ولكن هذا الغريب أخذ كل شيء إنه أكثر مكان يسرق منه دائما.

فتعجبت من كلامها لو كان هناك حيوانات كثيرة أي أنه كان يوجد أبقار وحيوانات ضخمة كيف كان يحملها ويقفز بها إذن؟ لابد وأنه قوي جدًّا لفعل ذلك بل لابد وأنه خارق للطبيعة!

وبعد أن انتهيت ذهبت مع لوكا لتفقد محاصيل الذرة.. وبينما نحن نتفقد التربة اقتربت مني وأمسكت يدي وقالت أريد أن أريك شيئا لكن عدني أنك لن تخبر أبي.

- أعدك بهذا.

فأخذتني من يدي دون أن يلاحظ أحد وذهبنا بجانب الجدار خلف البيت تماما ووقفنا هناك ثم نظرت إليَّ وقالت إن هذا الجدار يعتبر وطن لنا منذ أن أتينا إلى هنا وهو موجود دائما يرعانا ويحمينا وكل هذه المحاصيل هو من

يرعاها ويبقيها على قيد الحياة وفي طور النمو دائما، إننا نزرع فقط وهو من يهتم بالباقي وخاصة في الشتاء عندما يمدنا بالحرارة لنتدفأ فلولا هذا الجدار هنا لما كنا أحياء وما كنا في هذا المكان إلى الآن ونظن أن الرجل الغريب هذا اختبار من الوطن ليرى قوة تحملنا وصبرنا وإيماننا به.

ثم بدأت تتمشى وهي تضع يدها على الجدار وتتحسسه وتبتسم فشعرت حينها بأنني لست الوحيد الذي أشعر بهذا الشعور الجميل تجاه هذا الجدار وبأن هذا الجدار هو الوطن حقًّا وأنا كنت أغفل عن هذا منذ البداية.

ثم قالت والآن سأريك شيئا ولكن يجب أن تتمالك نفسك عندما تراه لقد كنت سأريك إياه لاحقا ولكني لا أستطيع الانتظار لأرى تعابير وجهك عندما تراه.

الفصل الثاني عشر

"إنه جمال الوطن"

أعطتني بعض البذور في يدي وابتسمت وقالت أترى هذه التربة أريدك أن تحفر حفرة صغيرة وتضع البذور فيها ففعلت ما قالته لي، ثم أعطتني بعضا من الماء وقالت والآن أسقها كلها وسترى أجمل شيء في حياتك سترى شيئا لن تصدقه عيناك فبدأت أسكب الماء على التربة وأنا متسائل ما الشيء الذي سيبهرني هكذا..

انتظرت قليلا لأرى ماذا سيحدث وبعد ثوانٍ معدودة سمعت صوتا قادما من التربة وفجأة ولا أدري كيف، بدأت النبتة تخرج من الأرض وتكبر وتكبر وتنضج أوراقها ويلمع خضارها مع ضوء الشمس إلى أن أصبحت نبتة كاملة بالغة يمكنني قطعها الآن لآكلها فتسمرت مكاني وعلى وجهي علامات الذهول والدهشة.. ثم أخرجت من جيبها بذور أخرى غير بذور الذرة وقالت جرب هذه فأخذتها من يدها سريعا وحفرت في الأرض ووضعتها وسقيتها بالماء وانتظرت وكان هذا أجمل مشهد رأيته في حياتي لقد بدأت الزهور بالخروج وأوراقها كانت تكبر بسرعة بيضاء وصفراء وزرقاء وحمراء لقد ظننت حينها بأنني في الجنة من شدة إعجابي ورؤيتي لهذه الزهور وهي تنمو في أقل من دقيقة.. ثم نظرت إليَّ وأنا مذهول وقالت أترى جمال الوطن إنه رائع جدًّا لا

يوجد جمال في هذه الدنيا يضاهي جمال الوطن.. وفجأة ناداها ديفيد فقالت سأذهب لأرى ماذا يريد وأنت بعد أن تنتهي من ذهولك اقطع هذه الأزهار لكي لا يراها أبي فنحن لا نملك الكثير منها، ثم ذهبت وتركتني جالسًا على ركبتي أنظر لأوراق الأزهار بكل دهشة.. فنهضت من مكاني وذهبت للجدار وجلست عنده وأسندت ظهري إليه وأنا أنظر للأزهار وأقول في نفسي كم كنت مغفلا لأنني لم أشعر به من اللمسة الأولى كم كنت مغفلا لأنني لم أوقن بأنه كان يختبرني طوال الوقت ويساعدني ليخبرني بأنه هو الوطن.. فوضعت يدي على الجدار وأغمضت عيني وقلت: طوال حياتي تمنيت فقط أن تختبرني لأثبت لك بأني أحبك حقًّا ولم أكن أتوقع أبدًا بأني سأجلس يوما ما بجانبك وأضع يدي عليك وأكلمك شكرًا لك أيها الوطن لأنك أعطيني هذه الفرصة لأثبت نفسي أمامك أقسم لك بأني لن أخذلك أبدًا.. أنت حقًّا جميل وهذه أول مرة لي أرى فيها جمالك الحقيقي.

لقد حل الظلام وأنا ما زلت جالسا عند الجدار لا أريد النهوض وتركه أريد أن أبقى هنا طوال حياتي.. ولكن فجأة سمعت شيئا أجبرني على النهوض لقد سمعت صراخا آتيا من البيت فركضت نحوه بسرعة لأرى ما الذي يحدث.. ففتحت الباب ودخلت ورأيت هذا الرجل الغريب يمسك سكينا ويجلس على الطاولة أمام ديفيد، وبناته يقفن عاجزين عن فعل أي شيء.. وعندما دخلت ورآني نظر إليَّ وقال لديفيد ماذا يفعل هذا الرجل

هنا؟ فلم يرد عليه من شدة خوفه الذي كان يملؤ وجهة، فقلت له ما الذي تفعله أنت هنا؟

- لقد جئت لأعرف قرار ديفد في موضوع معين لا يخصك.

- أنا أعرف هذا الموضوع وأخبرك نيابة عنه "إنه لا يوافق"

فغضب كثيرا واقترب مني وقال من أنت لتحدد مصير هذه العائلة من أنت لتحكم عليهم بالموت.

- أنا شخصا عاديا أحميهم من أمثالك.

- إن هذا ليس من شانك لماذا تدافع عنهم؟

- لأننا أبناء وطن واحد ويجب عليَّ دائما أن أساعد أبناء وطني حتى وإن كلفني ذلك حياتي.

ثم دفعته بقوة بقدمي فرجع إلى الوراء واصطدم في الطاولة ونظر إليَّ نظرة خوف وقلق لقد عرف بأنني لست ضعيفا ومن الممكن أن أردعه عن فعل أي شيء..

أخذت البندقية من على الأرض ووجهتها نحوه وأطلقت النيران لكنه فر هاربا من الشباك كالعادة فذهبت خلفه وأطلقت عليه مرة أخرى ولكنه لم يصاب لقد كان يقفز كالضفدع تماما وعندما وصل إلى الحظيرة صعد إلى سقفها ونظر إليَّ وقال بصوت عالٍ ملأ المكان كله "سأعود مجددا وسنلتقي"

ثم قفز حيث الظلام حيث الصحراء المرعبة.. ولكنه لم يخيفني على الإطلاق فأنا مستعد له تماما فلم يعد يخيفني شيء ما دام الوطن بجانبي.

التففت فرأيت البنات يقفن ويبتسمن وينظرن إليَّ نظرات إعجاب على ما فعلته فقال ديفيد إنها أول مرة سأخلد فيها للنوم وأنا مطمئن القلب بأن معنا رجل مثلك يحيمنا.

فابتسمت وصعدت إلى غرفتي لأرتاح قليلا وأنا متأكد بأن هذا الرجل لن يعود الليلة.. مستلقٍ على السرير، جسدي يؤلمني كثيرا من أعمال المزرعة طوال النهار وفجأة يدق بابي لتدخل منه ديانا، وتغلق خلفها الباب وتجلس على الكرسي وتقول لي أريد أن أشكرك كثيرا على ما فعلته معنا لقد أظهرت بطلا حقيقيًّا داخلك لا يخاف أبدًا، هل تعلم بأنني كنت متزوجة قبلا، كان رجلا رائعا جميلا أنيقا لكنه لم يكن يتمتع بالقوة والجرأه وحب الوطن مثلك لم يكن يعطيني حبا لم يكن طيبا معي كان ينظر إلى إخوتي دائما وكان يعملنا بقسوة لذلك لم أكن أشعر قط بأنني متزوجه لم أكن أشعر قط بالدفء والحنان مثلما شعرت معك أمس، نعم أنني لا أعرفك ولكن شعرت معك بسعادة لم أشعر بها أبدًا في حياتي شكر لك على كل شيء، هل لي أن أسالك بعض الأسئلة الشخصية؟

- بالطبع اسألي ما شئت.

-ما اسم زوجتك؟ لقد أخبرتني بأنك متزوج.

- نعم اسمها إليزابيث.

- هل هي جميلة؟

- نعم إنها مثلك تماما جميلة بمعني الكلمة.

- إن حظها رائع لتحصل على رجل مثلك، هل يمكنني أن أطلب منك طلبا صغيرًا؟

- نعم بالطبع.

- أنا وحيدة دائما في هذا الصحراء ولم أكن أشعر بالحياة حقًّا ولكن عندما رأيتك ونمنا سويًّا لقد شعرت بها مجددا تنبت بداخلي، وأنا أعرف بأنك ستغادر قريبا وتتركني وحيدة كما كنت وستصبح أنت مجرد ذكرى، لذا هل يمكنني أن أنام بجانبك، أنا أشعر بالوحدة ولكن وأنا معك أشعر بأنني في عالم آخر وأشعر بالحياة تملؤني وأشعر بأني سأعيش للأبد.

فسكت لا أعرف ماذا أقول ثم نظرت لها بعطف وبدأت عيناها تدمع فقلت لها حسنا ولكن إن كان هذا سيجعلك سعيدة.. فابتسمت وفرحت كثيرا وصعدت بجانبي إلى السرير لتنام في أحضاني هذه الليلة.. أشعر بحرارة جسدها تلامسني وأنا لا أستطيع مقاومة جمالها فبدأت أشعر بدقات قلبها وأنفاسها الحارة المشتاقة إلى أنفاسي فوضعت يدي على خصرها واقتربت منها لألتصق بظهرها وأشعرها بحرارة جسدي ثم بدأت في خلع فستانها وهي لا تقاومني كأنها تترجاني بأن أكمل ما أفعله فأمسكت رأسها ونظرت إليها في

عينها الحزينتين وقبلتها من شفتيها لأواسيها وأواسي قلبها ولأشبع رغباتي التي كدت أنساها طوال هذه الفترة الماضية.. وأمضينا الليلة معا كأول ليلة تماما وأنا أنوي داخلي بأني أفعل ذلك فقط لكي لا أراها حزينة وبأن كل هذا سينسى بمجرد أن أعود سالما إلى القبيلة وإلى أحضان زوجتي.

استيقظت للمرة الثانية في هذا البيت لقد بدأت أعتاد الأمر إنه بيت جميل ومريح أكثر من الصحراء بكثير ولكن يجب أن أتركه قريبا لأكمل ما جئت إليه.

نزلت المزرعة بعد أن أنهيت فطوري معهم ودخلنا الحظيرة أنا وديانا لكي نطعم الحيوانات كالعادة فوجدناها ناقصة عن يوم أمس لقد اختفت ثلاثة دجاجات لقد أخذهم الغريب فجلست ديانا على الأرض بكل خيبة أمل وقالت: إن طعامنا ينفذ يوم بعد يوم وسيأتي يوم ونموت فيه سواء من الرجل الغريب أم من نفاذ الطعام.. فجلست بجانبها ووضعت يدي على كتفها وقلت أقسم لك بأني سأمسك هذا الرجل وستعيشون في أمان وتعودون لحياتكم السابقة وستزداد أيضًا الابتسامات فابتسمت وعانقتني وأنا أقسم داخلي بأني لن أترك هذا الرجل يؤذيهم مرة أخرى.. فخرجنا من الحظيرة فوجدت سارة تتمرن على الرماية وكانت جيدة حقًّا وماهرة لا تخطئ هدفا أبدًا، فجاء صقر كبير ووقف على سطح الحظيرة فوجهت إليه سهمها وأصابته ببراعة ليصبح ضمن عشائنا لهذه الليلة.. وحينها أنار مصباح عقلي ليأتيني بفكرة جهنمية سنستطيع من خلالها أن نمسكه.. ناديت أنجلينا

وسارة وأخذت ديانا وذهبنا لديفيد لأعرض عليهم خطتي التي ستكلفهم شيء غالٍ جدًّا لكنه ليس أغلى من حياتهم.. جلست بجانب ديفيد لارتاح قليلا وأشرب بعضا من الماء بينما البنات يجهزن المعدات للقيام بالخطة فقال لي وهو يضحك إن العمل في المزرعة متعب اليس كذلك.

- نعم بالتأكيد إنه صعب جدًّا أكثر مما تصورت، هل تسمح لي أن أسألك سؤالين لو أمكن؟

- نعم تفضل.

- السؤال الأول ما سبب قطع قدمك، والسؤال الثاني ما الذي أتى بك هنا وسط هذه الصحراء الخاليه؟

فسكت قليلا..

- ما لا تعرفه عني: أني كنت طبيبا في الماضي وكانت هناك عملية لرجل مريض جدًّا كان لابد أن أؤديها اليوم وقبل العملية بعشر دقائق جرحت قدمي جرحا كبيرا جدًّا وخطيرا ولو عالجتها ستأخذ وقتا ومن الممكن أن يموت الرجل ولا أستطيع إنقاذه ولو اخترت إنقاذ الرجل لا أعلم ما الذي سيحث لقدمي وبالفعل أديت العملية للرجل ونجا بفضل الله ثم بفضلي وبعد أن انتهيت كان ولابد من قطع قدمي وإلا سينتشر المرض في جسدي كله وسأموت.

- وما الذي دفعك أن تختار هذا الاختيار المصيري والصعب.

- إنه قسمي الذي أقسمته في الماضي أمام نفسي وأمام ربي وأمام وطني بأن أعالج كل شخص في مقدوري أن أعالجه وألا أقصر في عنايتهم أبدًا فقطع قدمي ألف مرة أهون وأفضل بأن أحمل ذنب هذا الرجل على عاتقي طوال حياتي وأشعر بأني خذلت نفسي وخذلت وطني في المسئولية التي أعطاني إياها.

- إنك حقًّا رجل رائع.

- أما السؤال الثاني فهو بسيط جدًّا لقد أتينا في هذه الصحراء لأجلك أنت.

وابتسم ووضع يده على كتفي فقلت له بتعجب من أجلي أنا!

- نعم من أجلك وكفى اساله ولتنهض وتساعد البنات في إكمال الخطة.

فنادت عليَّ ديانا لقد جهزوا كل شيء.

وبالفعل بدأنا بتنفيذ الخطة لقد جمعت ديانا وسارة جميع الخمور والمواد المشتعلة التي في المنزل وذهبوا بها إلى الحظيرة ورشوها بالكامل لقد رشوا هيكلها الخارجي وسقفها وتركوا النافذة الذي يدخل منها الرجل الغريب إلى الحظيرة مفتوحة وأخرجت جميع الحيوانات وادخلناها إلى المنزل وتركنا فقط بعض الدجاجات فيها ودخلنا جميعا المنزل ما عدا أنجلينا كانت تختبئ عند الحظيرة.. لقد اجتاح الظلام السماء وطرد النور منها فأغلقنا جميع أضواء المنزل وأضواء المزرعة واستعدت سارة وسهامها.. وبعد ساعة

من الانتظار هبط الغريب على سقف الحظيرة وسمعت كل المزرعة صوت ارتطامه فبدأ ينظر إلى المزرعة وهي خالية ومظلمة حتى أن أضواء المنزل مغلقة فخشى أن يقترب من المنزل خوفا من أن تكون مكيدة نعدها له فدخل من النافذة إلى الحظيرة ليسرق ويذهب فخرجت أنجلينا بسرعة من مكان اختبائها وتسللت إلى السطح وأغلقت النافذة عليه بقوة ونزلت بسرعة وأعطت الإشارة لي ولسارة فركضت مسرعا نحو الحظيرة ودخلت من الباب الأمامي وأغلقته خلفي بالقفل ووضعت المفتاح في جيبي ثم أطلقت سارة سهما مشتعلا نحو الحظيره ليشعلها بالكامل ونحن داخلها، وعندما رآني الغريب بدأ بالهلع والتوتر والخوف إن المكان يحترق من حوله ومعه في نفس المكان رجل قوي يمكنه قتله فقلت له لقد حانت نهايتك أيها الغريب وستموت هنا الليلة وأنت من بدأت هذا وأنت من ستخسر، وهجمت عليه ولكنه قفز من فوقي وسقط خلفي فالتففت وهجمت مرة أخرى ولكنه قفز مجددا ووقف خلفي.

وظل يقفز هكذا لفترة طويلة لا يريد مواجهتي، فأخرجت سكينًا من جيبي وهجمت عليه ففقز في الهواء فرميت بسرعة السكين نحوه فأصاب قدمه فسقط أرضًا لا يستطيع القفز مجددا ويتالم ويصرخ بشدة فنهض بصعوبة وضم ذراعية كوضعية الملاكم أظنه الآن مستعدًّا لمواجهتي.. فاقتربت منه وبدأت أهاجمه وأقاتله لكنه كان قويا جدًّا حتى بقدم واحدة فقد كان يتفادى جميع لكماتي ويضربني بقبضته فأسقط أرضًا وأنهض مرة أخرى

ويضربني فأسقط أرضًا وهكذا وهكذا إلى أن تعبت كثيرا ولم يعد بمقدوري النهوض فأمسك قدمي ورفعني في الهواء ورماني بعيدا فشعرت بأن جسدي تكسر تماما ولم يعد بمقدوري تحريكه..

أنظر إلى السقف وهو يحترق وجسدي كله يؤلمني كثيرا وحينها شعرت بأن هذه هي النهاية وبأنني سأموت الآن ولكن مر على ذهني شريط ذكرياتي مع الجدار ومع الوطن، جميعها تعرض أمامي الآن كأني أعيشها للمرة الثانية فنهضت ولا أدري كيف ولكن الوطن كان يسندني وكأنه عكازا لي والجدار كان يقويني فلم أذكر أبدًا أن الجدار تخلى عني ولو لمرة واحدة ولا أعتقد إنه سيتخلى عني الآن..

وعندما رآني قادما نحوه قال بكل استهزاء وسخرية أنت لم تعد تتحمل الضرب وسأقضي عليك الآن فبدأ بالهجوم عليَّ ولكن هذه المرة كنت أتفادى جميع ضرباته كلها فلقد كنت أراها بطيئة جدًّا وكنت أعرف أين سيضربها وفجأة سددت له ضربة قوية أسقطته أرضًا وانقضضت عليه وضربته بقبضتي مرارًا وتكرارًا إلى أن أصبح وجهه بركة من الدماء ولكنه لم يستسلم لقد أخرج السكين من قدمه وطعني به تحت ذراعي بين ضلوعي فسقطت بجانبه أشعر بألم شديد في جسدي، فنهض وأخذ المفتاح من جيبي وذهب نحو الباب وفتحه وأنا كنت قد بدأت أفقد الوعي وآخر شيء رأيته وسمعته هو خروجه من الباب وعيار ناري أطلق بعد خروجه ولا أدري بعدها ماذا حصل.

فتحت عيني ووجدت نفسي في الغرفة وجرحي مربوط بقطعة من القماش وديانا تنام في أحضاني وبين ذراعي وشعرها الناعم يغطي صدري العاري ويدفئه فأيقظتها وقبلت رأسها على اعتنائها بي وسألتها ماذا حدث؟

- لقد خرج الرجل من الحظيرة مجروح في قدمه لا يستطيع القفز أو الركض فوجد أبي أمامه يوجه له بندقيته ثم أطلق النار عليه ليسقط قتيلا وهذا ما كان يستحقه.

- هذا يعني بأني نجحت أخيرًا وأنقذتكم من هذا الرجل؟ أكاد لا أصدق نفسي.

- بل صدق نفسك فأنت بطل حقيقي يا جيمس.

ثم قبلتني قبلة شديدة جعلتني أنسى الوجع والألم وأنسى كل شيء، ثم استمتعت معها بباقي اليوم أنا وهي فقط واحتسبت هذا بأنه مكافأة لي على كل ما فعلته فأنا أعلم من البداية بأن كل هذا سيختفي مجرد أن أرحل لذلك فعلت هذا واستمتعت به ولكن لو كان كل هذا حقيقيًّا، لم أكن سأفعل هذا لأنني لست خائنا بل أنني أحب إليزابيث كثيرا ولكني فعلتها من أجل المتعة فقط وليس أكثر.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث عشر

"اختبارات صعبة"

لقد تعافى جسدي وأصبحت مهيأ للرحيل عن هذا البيت الرائع الذي سأشتاق إليه كثيرا.. أعددت حقيبتي ووضعوا لي فيها بعض من الطعام والحطب والملابس النظيفة.. ثم احتسيت معهم كوبا من الشاي قبل ذهابي ثم ودعتهم وعانقتهم وخصوصا ديانا سأشتاق إليها بحق إنها فتاة جيدة.. وخرجت من الباب ومشيت في الممر بين الذرة المتألقة اللامعة والذي يسابق ضوؤها ضوء الشمس، سأشتاق حقًّا إلى هذه المزرعة الرائعة.. وبعدما انتهيت من الممر ومشيت قليلا تذكرت باقة الزهور التي وضعتها لوكا بجانبي هذا الصباح فأردت أن أشكرها عليها فلقد نسيت تماما فالتففت لكي أشكرها فبالتأكيد هم واقفون عند الباب ينظرون إليَّ ولكني حينها لم أجد أي شيء لم أجد سوى صحراء خاوية مشمسة لم أجد الذره أو الحظيرة أو البيت أو أي شيء كل ما تبقى هو أنا والجدار والرمال فتوقفت مكاني بلا حركة أحاول استيعاب ما يحدث حولي ولكنني فهمت كل شيء وأيقنت ما الذي يدور حولي لقد أصبح عقلي ناضجا أخيرًا لكي يتفهم ما يحدث فابتسمت ورميت حقيبتي أرضًا وجثوت على ركبتي وبدأت أضحك وأضحك وأقول "لقد جئت هنا من أجلك" هذه الكلمة التي قالها لي ديفيد فبدأت

أرددها وأنا أضحك كثيرا لقد كنت أعلم من البداية وأشك بأن هذا اختبارا حقًا، أخيرًا لقد فهمت كل شيء إن ديفيد لم يكن يمدحني أو يستهزئ بي بل كان صادقا لقد أتى لهذا المكان لكي يختبرني إنة اختبار من اختبارات الوطن وقد نجحت فية.. وكانت ضحكاتي تتردد في أرجاء الصحراء كأنني جننت تماما فنهضت من مكاني وبدأت أركض بجانب الجدار وأنا ألامسة بيدي لقد كان شعورا رائعا وجميلا.. وكنت أقفز هنا وهناك وألاعب رمال الصحراء بيدي لا أدري إن كان هذا جنونا أو فرحا ولكني نجحت في اختبار صعب من اختبارات الوطن وأشعر بأني قريب من النهابة نعم إنني لا أعلم متى هذه النهاية ولكني أشعر بأني قريب منها وقريب من تحقيق حلمي.

وصلت إلى مكاني أمام البئر مباشرا وضعت حقيبتي وجلست في صمت لا أفعل شيء سوى استشعار روح الجدار والتفكير في المزرعة التي اختفت فجأة وكان هناك سؤال يدور في خاطري الآن لا أعرف إجابتة حقًا هل كل شيء حدث هناك وهم وفي خيالي أنا فقط أم كان حقيقة ولكن هناك شيء في قلبي وعقلي يخبرني بأنه حقيقة لأنني عندما نمت مع ديانا كنت أشعر بحرارة جسدها وكنت أسمع دقات قلبها وعندما وضعت البذور في الأرض وخرجت الأزهار، من المستحيل هذا أن يكون وهم لقد شعرت به لقد شعرت حينها بجمال الوطن ولاكني لا أفكر كثيرا ولا أريد أن أشغل تفكيري في شيء مضى فيجب عليَّ أن أترك غرف عقلي خاوية لما سأواجهه فأنا لا أعلم كيف ستكون الاختبارات القادمة.

أضع رأسي على الجدار أشعر بأنني بمكان بين الموت والحياة بين الواقع والخيال بين الأرض والسماء مكان مجهول في عالم غير عالمنا غير معروف، مكان بلا ملامح، لا أستطيع تمييز أي شيء فيه سوى ظلامة الدامس ولكني أستطيع الشعور بروحة النقية ودفئه الرائع.. يا الله لا تحرمني أبدًا من الشعور بروح هذا المكان الجميل.

ظهر ثعبان من بين الرمال أثناء عدم تواجدي في هذا العالم واقترب مني كثيرا وكان يتلون بلون الرمال وفجأة وضع أنيابه في فخذي بكل قوة فصرخت وتألمت وعدت إلى عالم الواقع لأرى ما الذي يحدث ما سبب هذا الألم فنظرت فرأيت ثعبان صغير يتحرك في الرمال بسرعة فانقضت عليه وحاولت إمساكة وقتله ولكنه اختفى بين الرمال تماما ولم يعد موجود.. فأمسكت فخذي ونظرت إليها فوجدتها حمراء متورمة وحرارتها عالية وكانت تحرقني بشدة فأسندت ظهري إلى الجدار أشعر بألم شديد ينتشر في أنحاء جسدي كأن هناك حيوان مفترس يأكل في عظامي وأحشائي وأنا حي، وعرقي بدأ في الظهور على وجهي بكثرة وفجأة بدأت الألوان والصور تتلاشى من عيني وأشعر بأنني سأفقد الوعي وبالفعل سقطت بوجهي على الرمال لا أشعر بأي شيء.

فتحت عيني أشعر بحرارة الرمال تحتي فجلست فوجدت نفسي مرميا بجانب البئر مباشرة فتعجبت وقلت ألم أكن عند الجدار؟ ما الذي أتى بي هنا؟.. فالتففت لكي أرى الجدار فوجدت جدران حجرية صغيرة تملأ

الصحراء بأكملها وكان لها أبواب كثيرة وكان الجدار الكبير بعيدا جدًّا كأنه رجع إلى الوراء عشرات الأميال.. فنهضت من مكاني لا أفهم أي شيء ولا أتذكر سوى لدغة الثعبان ولكنني أشعر بأنني على ما يرام.. فدخلت إلى هذه الجدران وبدأت أمشي داخلها إنها حقًّا مثل المتاهة تماما مخيفة ومرعبة ولا تبشر بأي خير.. وبعد ساعة من المشي داخلها أشعر بأنني أدور في نفس مكاني ولا أتقدم ولا خطوة أبدًا فالجدار ما زال بعيدا جدًّا كما هو ولكني لم أستسلم وواصلت المشي.. وفجأة وأثناء تجولي داخل هذه المتاهة وجدت شابا أنيقا يقف هناك فذهبت إليه بسرعة لأسأله فقلت له أنا لن أسألك كيف جئت إلى هنا أو كيف ظهرت هذه المتاهة لأنها أسألة لا يجب عليَّ أن أسألها في هذا المكان، لكني سأسألك فقط إن كنت تعرف الطريق الصحيح المؤدي لهذا الجدار الكبير فأنا أحتاج إلى أن أكون بجانبة حقًّا.

- هل تريد مني أن أدلك على الطريق المؤدي لهذا الجدار الكبير؟ هل أنت متأكد؟
- نعم متأكد فأنا لا أستطيع الوصول إليه!
- حسنا خذ بيدي..

فأمسكت يدة فابتسم ثم وضع يدة الأخرى خلف ظهره وبدأنا نمشي سويًّا بين الجدران ولكنه فجأة توقف وأخرج يده التي خلف ظهره وكانت تحمل سكينا صغيرا، وطعنني في بطني بقوة فسقطت أرضًا على وجهي أتألم

بشدة ولا أستطيع الاحتمال فعضلات معدتي قد تمزقت تماما وتركني جريحا أنزف دمائا كثيرة واختفى وسط هذه المتاهة ولم يعد موجودًا.. فأمسكت الجرح بيدي ونهضت لابد أن أذهب للجدار الآن وكنت أترنح يمينا ويسارا كالسكير تماما لا أعرف كيف أذهب ولكن يجب أن أنجو.. فلاحظت عيني فجأة شخص يقف هناك ولكن هذه المرة كانت امرأة عجوز ويبدو عيها الخير فذهبت إليها وأنا أنزف الدماء وقلت لها أرجوك ساعديني لقد طعنني شاب في معدتي وذهب هل تعرفين الطريق المؤدي لهذا الجدار؟ هل يمكنك مساعدتي وإيصالي لهناك فالجدار هو الوحيد الذي يمكنه مساعدتي ومعالجتي.

إذا كنت تريد مني المساعدة فسأساعدك يابني هات يدك لنذهب.

فأمسكت يدها وبدأت أمشي معها والدماء تصل إلى قدمي وبعد دقائق معدودة قتحت حقيبتها لتخرج منها شيئًا لقد توقعت أن تكون مياه أو أي شيء يوقف النزيف لكن توقعي كان خطئا تماما لقد أخرجت سكينا وطعنتي به في بطني أيضًا وأصبح هناك طعنتان تمزقانني فسقطت أرضًا وهذه المرة لا أنوي النهوض مرة أخرى.

أمسك معدتي وأتألم بشدة وعندما نظرت إلى العجوز وجدتها اختفت هي أيضًا.. فذهبت إلى أحد الجدران وأسندت ظهري إليه فشعرت بأن الدماء تنفذ من جسدي بأكمله، وبأني أموت وشعرت بأن هذه هي النهاية

حقًّا فنظرت إلى الجدار وهو بعيد فأنا كنت أريد أن تكون صورة الجدار آخر صورة لي أراها في حياتي.. فأغمضت عيني وبدأت أقول في نفسي سامحني أيها الوطن لأني خذلتك ولم أكمل الطريق لأخره سامحني أيها الوطن أنا أعرف بأنني أخبرتك بهذا الكلام كثيرا في السابق ولكنك كنت تساعدني وتخرجني من أي مأزق ولكن إن كانت هذه نهايتي حقًّا فأنا آسف لأني خذلتك، ولكني فجأة شعرت بشيء غريب داخل صدري خلف ضلوعي لقد كنت أشعر بقلبي لقد كنت أشعر بنبضاته وكأني تماما أتحكم به ففتحت عيني ورأيت ضوءا يخرج من تحت قميصي وكان صدري يشع نورا شديدا ففتحت أزرار قميصي لأرى ما هذا الضوء وحينها لم أصدق ما رأيت لقد رأيت شيئًا مذهلا أن قلبي ينير بداخلي كالنجمة وكنت أرى أدق تفاصيلة كنت أرى شكله وعروقه وشراينه وحركاته المستمرة والدماء التي تجري حوله وداخله لقد كان منظرا رائعا..

وفجأة شعرت به يدفعني من الداخل لكي أنهض ويضخ الدماء في عروقي بكثرة لكي يحفزني ويعطيني القوة على النهوض فنهضت بصعوبة لا أستطيع الشعور بجسدي ثم بدأ يدفعني للأمام كأنه يرشدني أو يقودني إلى مكان ما وحينها تركتة ليصبح قائدي ومرشدي وكان جسدي يمشي كله خلفة بلا أية مقاومة مستسلم تماما له وكنا نعبر جدران وجدران ونتقدم إلى الأمام أكثر فأكثر وأنا حينها كنت أزيد من سرعة خطواتي فلقد اشتقت إلى الجدار كثيرا وفجأة وبدون أية مقدمات وجدت نفسي أمامه مباشرة بيني وبينه مجرد

خمس خطوات ولا يوجد أي شيء يفصل بيننا فركضت نحوه بسرعة ونسيت كل آلامي لكي أحتضنه لقد اشتقت إليه وإلى ملمسة الدافئ كثيرا.. فأغمضت عيني واحتضنته ولا مس وجهي أحجاره وحينها شعرت بأنني لا أخشى شيئا في هذه الحياة سوى الابتعاد عنه مرة أخرى.. فجلست ونظرت خلفي وكالعادة لقد اختفى كل شيء حتى إن جروحي قد شفيت تماما لكن آثارها ما زالت موجودة وضوء قلبي اختفى أيضًا وكل شيء عاد لطبيعته.

حل الظلام وملأ الصحراء كلها وأنا لا أفعل شيء سوى التحديق في النجوم لأنسى الظلمة المخيفة ولأنسى الوحدة المرعبة.. فجاءني النعاس فجأة فأغمضت عيني راجيا من عقلي النوم ليمضي هذا الليل المخيف سريعا.. وحينها بدأت الذكريات في مهاجمة عقلي والعودة إليَّ، لقد تذكرت جدي العجوز الذي كنت أحبه كثيرا وتذكرت عائلتي وكم كنت أحبهم وتذكرت حياتي بأدق تفاصيلها وكأنها كانت محجوبة عني ولكنها الآن عادت إليَّ كلها، ولا أدري لمَ الآن وفي هذا الوقت بالتحديد ولكنها بالتأكيد لم تأتي هكذا صدفة.

ولم يمر وقت طويل على نومي هذا إلا وشعرت بأضواء حمراء مشتعلة وحركة في كل مكان حولي وصرخات تعلو المكان ففتحت عيني بكل خوف وهلع من الأصوات فوجدت أناسًا يركضون يمينًا ويسارًا وأسهمًا مشتعلة تقذف في كل مكان ونساء تصرخ ورجال يموتون وأصوات السيوف تعلو والرماح تسابق الريح من سرعتها لقد كانت كالحرب تماما وأنا استيقظت في

وسط كل هذا.. فنهضت من مكاني أركض مع الناس ولكن رأسي كانت تؤلمني بشدة من كم الذكريات الذي رأيته قبل استيقاظي في هذا المكان المخيف.. لا أعرف أي مما يحصل هنا ولا أفهم أي شيء فتعرقلت بجانبي امرأة وسقطت أرضًا فساعدتها على النهوض وسألتها ما الذي يحدث هنا؟ فأجابتني بكل خوف وهي تشير إلى الجدار " سيحرقون الوطن سيدمرونه وسيقتلونا جميعا".. ثم ركضت وتركتني فنظرت خلفي فرأيت منجنيق كبير به حجر ضخم مشتعل ثم قذف هذا الحجر على الجدار ليهتز قليلا ولا يحدث له شيء ثم رأيت منجنيق آخر بدأ في إشعال حجره ليقذفه، فأخذت سيفا من على الأرض وركضت نحوه دون تفكير وعندما وصلت وقبل أن يقطع صاحبه الحبل ليقذفا طعنته في ظهره ليموت فرآني واحد منهم فأتى نحوي وكان قويا وضخم البنية ولكن الوطن أمدني بالقوة فتفوقت عليه وقتلته فأنا لا أدري ما الذي يحدث هنا أو ما هذه الحرب ولكني أعلم شيئًا واحدا فقط وهو بأنني يجب أن أدافع عن الوطن مهما كان وأينما كنت وألا أدع أي شيء يصيبه دوني حتى أن أفهم أي شيء.

وبينما أنا واقف في وسط هذه الحرب وهذه النيران لاحظت شيئًا بعيني جعلني أقف في مكاني كالتمثال وأترك السيف من يدي وأقف عاجزا عن الحركة وعاجزا حتى عن التصديق لقد رأيت جدي الذي تذكرته توا يركض بين الناس وخلفه رجل يمسك سيفين ويركض وراءه يريد قتله فتعرقل جدي وسقط أرضًا وكان الرجل يقترب وهو يرفع السيفين ليقضي عليه

وحينها فكرت قليلا هل هذه خدعة مثل ما حصل لي على المنصة أم أنها حقيقة؟ وكيف تكون حقيقة لقد مات جدي منذ زمن بعيد؟ ولكني لم آخد وقتا في التفكير فقد حركتني مشاعري وذكرياتي الجميلة مع جدي وجعلتني آخذ السيف من على الأرض وأركض كالبرق نحوه لأنقذه وبالفعل لقد أنقذته وذبحت الرجل الذي أراد قتله.. فنظر إليَّ جدي ونهض سريعا وأمسك وجهي وقال لقد اشتقت إليك كثيرا يا جيمس وعانقني بشدة.

- أنا أيضًا يا جدي ولكن كيف جئت إلى هنا؟ وهل هذا اختبار أيضًا؟ أم هذا مجرد وهم داخل عقلي؟

- لا يهم الآن تعال معي وسأخبرك فيما بعد.

وأخذني من يدي وذهبنا إلى مكان بعيد عن الدماء والنيران والسيوف ثم توقفنا أمام عربات ضخمة يقود كل عربة ستة أحصنة وكانت مليئة بالعجائز والنساء والأطفال من المصابين وغير المصابين فنظر إليَّ جدي وقال هيا لنذهب ثم صعد إلى العربة وقال هيا ومد يده لي وحينها توقفت ونظرت خلفي إلى الجدار محتار هل أترك الوطن خلفي؟ أم أترك جدي يذهب ثانية؟ فوجدني جدي مترددا فنزل من على العربة ونظر في عيني وقال أنا هنا معك الآن ولم أمت، ولن أمت هي لنذهب سويًّا ونعيش في هذا المكان إلى الأبد أنا وأنت وزوجتك الجميلة لقد رأيتها وأنها تشتاق إليك حقًّا هي لنعود إلى الديار فأنت ما زلت صغيرا لا تضيع حياتك في شيء كهذا وارجع معي إلى الحياة

الطبيعة إلى الحياة الجميلة وإن ذهبت الآن ستخسر حياتك وستخسرني للأبد.. فصعدت معه على العربة وبدأت تتحرك ويتحرك كلام جدي في عقلي ورأسي وكان يحجب كل أفكاري فلا أسمع سوى كلامه ولا أفكر إلا فيه كأنه لعنة أماتت كل أفكاري فنظرت هناك بعيني فرأيت كم النيران والأحجار الملقى على الجدار والذي سيلقى عليه وفجأة عاد عقلي إلى طبيعته وبدأت اللعنة تتكسر وأيقظت قلبي روح الوطن، فغيرت رأيي وقفزت سريعا من فوق العربة وقلت له معذرة يا جدي لا يمكنني التضحية بوطني من أجل حياة جميلة وذكريات رائعة ولا حتى من أجل أحب الناس إليَّ وهو أنت وركضت سريعا نحو الجدار وتركته جالسا على العربة حزينًا.

أخذت سيفا وبدأت أقاتل من أجل الوطن وأدافع عنه بكل ما أوتيت من قوة، لكني فجأة رأيت جدي يقف أمامي ويحمل في يده سيفا ويقول إذا كنت ستتركني وترحل يجب أن تقتلني أولًا فأنا عدوك الآن.

- أنا لن اقاتلك يا جدي.

- أقسم بأنني سأدعك تفعل هذا.

- فذهب جدي إلى منجنيق وأشعل النار في الحجر وقال سأدمر هذا الجدار.. فقلت له ماذا تفعل يا جدي؟

- أدمر وطنك الذي تركتني لأجلة وفضلته عليَّ.

- أليس وطنك أيضًا يا جدي؟

فلم يرد عليَّ وذهب إلى منجنيق آخر وأطلقه ثانية ولكني لم أهاجمة وتركته يفعل ما يشاء ولكني لم أتمالك نفسي عندها ذهب للمنجنيق الثالث فركضت نحوه ودفعته ليسقط أرضًا فنهض بكل غضب وبدأ يهاجمني بسيفه ولكني كنت أدافع عن نفسي فقط لا أريد مهاجمته وإصابته.

لقد جرحت في ظهري وقدمي وأنا ما زلت أقاوم ولا أريد مهاجمته ولكنه تعب وعلم أنه لا يوجد جدوى مما يفعله فأخذ طفل صغير كان يركض بين الناس ووضع السيف على عنقه فنظرت إليه وقلت ماذا تفعل الآن يا جدي؟ أترك هذا الطفل وشأنه.

- هذا لكي أثبت لك بأني عدوك ويجب عليك أن تقتلني إن كنت تحب وطنك وسنرى إن كان عندك القدرة لقتلي أم لا!

وذبح الطفل أمام عيني لتتناثر دماءه في الهواء وليرتاح قلبه من الخوف والذعر الذي كان يراه فغضبت كثيرا ولم أتمالك أعصابي وأحكمت قبضتي على سيفي وهجمت على جدي وأسقطته أرضًا وجلست فوقة ووضعت يداه أسفل ركبتي ورفعت سيفي وقلت أنا آسف يا جدي لقد تمنيت حقًّا طوال حياتي أن أراك مرة أخرى ولكنك لم تترك لي الخيار لقد حاربت الوطن يا جدي وأي شخص يحارب وطني أنا لا أعرفه وأراه عدوا لي ثم غرست السيف في قلبه وكنت أنظر في عينه وهو يموت وكنت أتألم كثيرا أكثر من أي

ألم شعرت به في حياتي أو حتى في هذا المكان؛ فألم الندم لا يضاهيه ألم على الإطلاق.

فنهضت من مكاني ونظرت للجدار والدموع في عيني وقلت بصوت عالٍ سأفعل أي شيء من أجلك أيها الوطن ثم ضربت على رأسي ضربة قوية أفقدتني الوعي وكان آخر شيء يدور في ذهني هي نظرة جدي لي وهو يموت وأنفاسه الأخيرة التي أخرجها بين يدي.

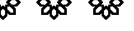

الفصل الرابع عشر

"عودة جوناثن"

إن قدمي تحرقني بشدة وتؤلمني كثيرا.. ففتحت عيني لأن ضوء الشمس أجبرني على الاستيقاظ فوجدت نفسي مستلقٍ بجانب الجدار.. فجلست ونظرت إلى فخذي وكان متورم جدًّا بسبب لدغة الثعبان فأمسكت رأسي وتحسستها إنها تؤلمني كثيرا ثم وضعت يدي على معدتي فوجدت أثر الطعنتين عليها فعرفت أن هذا لم يكن حلما وكان اختبار من اختبارات الوطن وحقا لقد كان أصعبها وأشدها إلى الآن.. حاولت النهوض لكي أذهب وأشرب من البئر ولكن قدمي لم تساعدني على ذلك فأنا لا أستطيع أن أحركها.. حتى إن جسدي يؤلمني كثيرا وأشعر بأن حرارتي مرتفعة وكل هذا بفضل لدغة الثعبان تلك.. بحثت يمينا ويسارًا عن الحقيبة التي أخذتها معي من المزرعة والتي كانت مليئة بالطعام لكني لم أجدها لقد اختفت أيضًا فاستلقيت مجددا بجانب الجدار ونظرت إلى السماء والسحب وبدأت أغني وأدندن لكي أهون على الوحدة والجوع والعطش وأكسر قيود الملل الشديدة وقيود الألم الغير محتمل.

مستلقٍ في العتمة ملتصق بالجدار ليدفئني، لا أشعر بجسدي ولم أعد أشعر بأي شيء لقد كان الجو شديد البرودة، وكأن أعصابي تجمدت ولم

أعد أستطيع التحكم بها.. وبعد ساعات من الجلوس في الظلام البارد وحدي قررت أن أفعل أي شيء لأجعل الوقت يمر سريعا ولا أشعر بالبرد فبدأت أتذكر الماضي وخاصة الذكريات الجميلة فتذكرت عندما كنت ألعب مع أختي في الحديقة بالكرة وكنا نضحك سويًّا وتذكرت عندما ذهبت أنا وأبي للصيد وسقطت من فوق المركب الصغير لقد كان يوما رائعا وتذكرت أشياء أخرى مثل حبي الأول وكان اسمها كارا كانت حمقاء ومغرورة ولكنها كانت جميلة وتذكرت صديقي المفضل إدوارد وجميع مواقفي المضحكة معه ولكن وفجأة تذكرت شيئا جعل الظلام أكثر عتمة وجعل البرد الشديد يزداد وجعل الذكريات الجميلة كلها تختفي وتتلاشي لقد تذكرت نظرة عين جدي عندما قتلته وجعلت سيفي يخترق جسده فبدأت عيني تدمع ولكن ليس على موته فأنا أعلم بن كل هذا اختبار ولكني أدمع على فراقه لقد اشتقت إليه كثيرا.. ثم تذكرت شيئا أخرجني من هذا الحزن وجعل عيني تشتاق وتبتسم وتتوقف دموعها لقد تذكرت حبيبتي إليزابيث وتذكرت أول قبلة لي في حياتي عندما قبلت أجمل امراة رأتها عيني إنها حبيبتي ولن أحب غيرها أبدًا وأنا متأكد وقلبي يخبرني بشدة بأنني سأراها قريبا.

لقد استيقظت من نومي وما زال جسدي يؤلمني كثيرا ولا أستطيع التحرك وما يزيدني إرهاقا هو أنني ظمآن جدًّا ولا أستطيع الوصول للبئر أكاد العق جسدي بلساني الجاف لأشرب من عرقي إنه تماما نفس الشعور عندما أتينا إلى هنا في البداية وكنا نبحث عن أي شيء يروينا.. أنظر إلى البئر من

بعيد ويشتد ظمأي اني أشعر بالموت وطريق النجاة يبعد عني بخطوات ولكني لا أستطيع النهوض والذهاب إليه لأنجو بحياتي، إنه شعور صعب جدًّا.

مستلقٍ على ظهري مغمض العينين من شدة ضوء الشمس الشديد وتمر ساعات وساعات وأنا ما زلت على حالتي تلك لا أتحسن فوضعت يدي على الجدار طالبا منه المساعدة والنجاة.. ثم سقطت يدي بدون إرادة وتحكم على ما أعتقد بأن طاقتي قد نفذت تماما ولم يعد بمقدوري فعل أي شيء حتى عقلي توقف بالكامل عن التفكير لم يعد بإمكان خلاياه أن تتحرك أو تفكر.

وبينما أنا مستلقٍ بجانب الجدار أنتظر أي شيء لأنجو شعرت بأن جسدي مبتل وبارد فنظرت فرأيت ملابسي مبتلة بالكامل فوضعت يدي على الجدار لكي أنهض وأعتدل وأنا متعجب كيف أتت هذه المياة إلى هنا فوجدت الجدار مبتل أيضًا كأنه مليء بقطرات المياه ولكن كيف أتت إلى هنا وفي هذا الوقت الشديد الحرارة لا أعرف، وفجأة رأيت القطرات تزداد وتتساقط وتنساب على الجدار مثل قطرات العرق التي أعرقها أنا الآن وكانت تزداد وتزداد فوضعت لساني على الجدار وبدأت ألتقط هذه القطرات من شدة عطشي وكانت باردة وجميله وفجأة سمعت صوتا قادما من أعلى فنظرت فرأيت شلالا قادما ويسقط على رأسي وفمي وجسدي كله وكانت المياه منعشة حقًّا فبدأت أشرب وأشرب وكانت تسقط على وتعيد إلى الروح والحياة مجددا..

وكان منظر المياه وهي تسقط من أعلى الجدار وتغطيه كأنها ستائر، وكانت تسقي الصحراء وتسقيني.. إنه أجمل من أجمل شلال على وجه الأرض.

وبعد ساعتان هدأت المياه ولكنها ما زالت تسقط وكنت ألمس الجدار وأضع يدي عليه وأرى المياه تمر بين أصابعي لقد كان شعورا جميلا فنظرت بعيني لأعلى أريد تحديد مكان نزول هذه المياه ولكن عيني لا تستطيع الوصول لمكانها ولا حتى إلى قمة الجدار.. ولكن لا يهمني من أين جاءت؟ أو كيف نزلت؟ ولكن المهم أن الوطن استجاب لي ولندائي وأعاد لي روحي الضائعة وروحي العطشة.

مستلقٍ بجانب الجدار أنظر إليه موجة ظهري للصحراء أستمتع بالمياه الباردة تحتي والتي تسقط على ولكني سمعت صوتا خلفي كأنه صوت أنفاس وأقدام تتحرك فلم أهتم وظننتها تهيؤات وهلوسة من شدة جوعي ولكني سمعت الصوت مجددا وهذه المرة بدا لي واقعيا جدًّا فأخذت أنفاسي خانفًا مما سأراة وألتفت بسرعة فوجدتها الغزالة التي رأيتها أول مرة مع الذئب عندما كان يطاردها عند البئر فتعجبت كثيرا واعتدلت في جلستي وبدأت أنظر إليها وهي تتحرك أمامي وتتراقص وأنظر إلى جمالها الخلاب الرائع الذي يسحر الأعين ويأسرها ويجعلها حبيسة له.. لقد كنت أراقب قرناها الكبيران وجلدها الذهبي الذي يلمع مع ضوء الشمس وجسدها المتناسق الرائع.. فاقتربت مني دون خوف وكانت تنظر إلى في عيني وكانت عيناها جمليتين حقًّا كأنهما نجمتان تلمعان في السماء.. وعندما جاءت إليَّ جلست جانبي بكل

هدوء فخشيت أن أضع يدي عليها لكي لا تذهب وتفزع فوجودها معي الآن يشعرني بالأمان والأمل.

وبعد قليل بدأت بطني بالتحرك والمعدة بالغضب وعقلي يخبرني بأنها ستكون وجبة رائعة شهية ولكنني إن قتلتها كيف سأطهي لحمها وآكلها فأنا أحتاج إلى النيران.. وبالرغم من جوعي وتعبي أنا لا أريد لهذا الجمال الساحر أن يقتل ويذهب إلى معدتي بهذه السهولة.. نهضت وتمشيت بقدم واحدة فأنا الآن أشعر بتحسن قليلا، فنهضت هي الأخرى فشعرت بأنها ستتركني وتذهب فحزنت لأني سأبقي وحيدا مجددا ولكنها فجأة توقفت ونظرت في عيني وظلت هكذا لفتره بلا حراك ثم نظرت إلى السماء كأنها تنتظر شيئا ما لا أدري ما هو فبدأت السماء بإخراج رعدها وبرقها فجأة من لا شيء حتى أنه لا يوجد غيوم في السماء.. فابيضت السماء بشدة ومنعت عيني عن النظر إليها ثم ضرب الرعد الأرض لقد شعرت بصوته الجبار وقوة ارتطامه في الأرض فسقطت بسرعة لأختبئ بين الرمال وفي أحضان الجدار.. ثم بدأ يزول هذا البياض وهذا النور الشديد من السماء وبدأ نظري بالعودة إليَّ فنظرت أمامي فلم أجد الغزالة ولكني رأيت شيئا أسود على الأرض ويخرج منه دخان كثير.. فبدأت أزحف إليه بسرعة ولهفة وعندما وصلت وجدت هذا الشيء هو الغزالة ولكنها سوداء تماما ورائحتها جميلة جدًّا فأمسكت جلدها وانتزعته كله لأنه كان أسودًا متفحمًا وكان أسفل هذا الجلد لحما طريا ولونه أحمر شهي فانتزعه بيدي بكل سهولة ووضعته في فمي دون تفكير

لأتذوق طعمه وبعد ثوانٍ معدودة بدأت أنيابي بالظهور كمصاصي الدماء تماما وبدأ الوحش الذي بداخلي في الظهور لأبدأ بتناول وجبتي اللذيذة.

امتلأت معدتي على آخرها فزحفت إلى الجدار مرة أخرى لأبقى بجانبه ليلا وأخذت معي قطعة من اللحم..

أسندت ظهري للجدار ولم أشعر بنفسي إلا وأنا داخل حلمي أقبل إليزابيث الجميلة.

أسمع صوت أسنان وعظام تتهشم ولحم يتمزق ففتحت عيني فوجدت ثلاثة من الذئاب يأكلون من الغزالة فذعرت عندما رأيتهم ولكني تذكرت بأن الجدار يخفيني عن أعينهم وأنيابهم الحادة.. فاستلقيت أشاهدهم كأنهم تلفاز تماما لأسلي نفسي طوال الليل.. فالمهم أنني أكلت طعاما سيحييني لأيام قادمة.

فتحت عيني لأستقبل اليوم الجديد وشعرت بأنني تحسنت وأصبحت قويا فنظرت إلى قدمي فلم أجد الورم ووجدتها متعافية وسليمة تماما فنهضت وبدأت أتمشى إلى الغزالة ووجدتها أصبحت عظام فقط ولم يعد هناك لحم فنظرت للبئر لقد اشتقت إليه حقًّا.. وبما أن المياه التي كانت تهبط من أعلى الجدار توقفت، فيحب عليَّ أن أذهب للبئر وأشرب فبدأت أمشي إليه وأمشي ثم بدأت أركض وأركض إلى أن قفزت داخله بكل حرية ولم يهمني إن كان يوجد به ماء أم لا وإنما شعوري بالحرية والانطلاق.

خرجت من البئر بكل حيوية ونشاط وقوة وقدرة على إكمال الطريق للنهاية.. وبينما أنا جالس في هدوء أكتب اسمي على الرمال بحصي صغيرة ثم ارسم وجه إليزابيث وملامحها الجملية أسمع أحد ينادي باسمي جيمس جيمس فأنظر هناك فأجد شخصا أتٍ من بعيد يسقط ثم يقف مجددا كالسكير كأنه مصاب أو مجروح فنهضت بسرعة وذهبت إليه..

وعندما اقتربت منه وحددت ملامح وجهة، يا إلهي! لقد كان آخر شخصا أتوقعه لقد كان جوناثن فركضت إليه سريعا وقبل أن يسقط حملته على كتفي راكضا به إلى الجدار.. وعندما وصلت وضعته أرضًا وتفحصته فوجدته مصابا في كفته الأيسر وعلى ما يبدو إنها طعنه بالغة الخطورة فسالته ما الذي حدث لك؟ من طعنك هكذا؟

- قبل أن أتكلم أريد الكثير من الماء والكثير من الطعام فأنا لم آكل أو أشرب منذ أيام.

- حسنا سأذهب لجلب الماء.

وركضت إلى البئر بسرعة لأحمل له بعضا من الماء في حذائي فهو الشيء الوحيد الذي يمكنني تعبئة الماء فيه.. وقبل أن أقفز أخبرني شيئا داخلي أن أرمي حجرا أولًا لأتاكد فأمسكت حجرا ورميته ولكني لم أسمع صوت ارتطامه بالماء فقررت النزول بواسطة الأحجار وعندما نزلت لم أجد ماءً وكل ما وجدته بعض الرمال والحصى لقد نفذت المياه يا إلهي وكيف حدث

هذا بهذه السرعة.. فصعدت وذهبت إليه بكل خيبة أمل وأخبرته بأنه لا يوجد ماء أو طعام وأن هناك حلًا وحيدا لهذا وهو أن يعتمد فيه على نفسه وعلى ثقته بالوطن.

_سأخبرك بحل وحيد لا ثاني له يا جوناثن وهو من سيخرجك من هذه الورطة ومن هذا الألم الشديد.

- وما هو هذا الحل؟

- يجب عليك أن تؤمن بأن الجدار هو الوطن وأن تؤمن بأنه سيكفلك ويعتني بك ويحميك مهما حدث وحينها ستجد الماء والطعام والشفاء راكضين إليك ركضا ولكن يجب عليك أولًا أن تؤمن ولن يخذلك الوطن صدقني كما لم يخذلني من قبل.

- حسنا، أخبرني كيف أفعل هذا؟

- ضع يدك على الجدار وأغمض عينيك واستشعر الوطن داخلك واستشعر جماله ودفئه واستشعر كل ذرة فيه حتى حبه داخلك وعندما تجده وتشعر بمشاعر تجاهه.

اطلب منه أن يشفيك ويطعمك وسترى ماذا سيفعل، ولكن بشرط واحد فقط وهو يجب عليك أن تكون واثقا بأنه سيفعل ولا تكون مترددًا أبدًا.

فوضع يده على الجدار وأغمض عينيه وظل هكذا لفترة وأنا أنظر إليه وأنتظر ما الذي سيحدث وفجأة رأيت جرح ألبرت يعود لطبيعته ويلتئم مجددا وتتوقف الدماء عن النزيف فقلت له:

أنظر يا جوناثن فنظر إلى جرحه وحينها اندهش وبدأت الدموع بالتساقط من عينه دون إرادة كأنها كانت تحبس نفسها وتنتظر الخروج في هذه اللحظة.. فقلت له:

لماذا تبكي الآن؟

- لأني كنت أغفل منذ البداية بأن هذا هو الوطن إنه الوطن يا جيمس إنه الوطن.

امسح دموعك يا جوناثن لقد رأيت بنفسك عظمة الوطن ولكنك لم ترى جماله، اطلب منه الطعام والشراب وستراه الجمال بأم عينيك.

فوضع يده على الجدار وبدأ يطلب الطعام والشراب ثم أبعد يده وانتظر قليلا وبعد دقائق معدودة سمعنا صوتا قادما من تحت الأرض والأرض بدأت تهتز من تحتنا وفجأة رأينا بقعة من الرمال أمامنا تهبط لأسفل ويصعد مكانها ماء إلى أن أصبحت كالبحيرة الصغيرة تماما وفجأة قفزت منها سمكة كبيرة ضخمة تكفي لإطعام خمسة أشخاص.

رقصت في الهواء مع ضوء الشمس وعكست ألوانها الجميلة وبريقها في أعيننا ثم عادت مرة أخرى إلى الماء..

فتقدمنا أنا وجوناثن وشربنا من هذه البحيرة وبعد أن شبعنا وملأنا بطوننا وجدنا الماء تقل وتقل إلى أن انتهت ولكن السمكة تبقت على الرمال لنستمتع بها وبلحمها الرائع الطري الذي لا يحتاج إلى طهي أو حتى أن تلمسه النيران، فلقد أمسكنا لحمها وقطعناه ووضعناه في فمنا لنستمتع بطعمها الرائع.. ولكن ونحن نأكل حكى لي جوناثن قصته وكيف عاد إلى هنا وحينها أيقنت بأنها ستكون آخر أيامنا على هذه الأرض وفي هذه الصحراء لأن ما ينتظرنا شيء صعب لا يمكن أن نجتازه بسهولة إلا بمساعدة الوطن فقط.. لابد وأنها النهاية.

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس عشر

"إنهم قادمون"

عندما هربت بالحصان يا جيمس، أخذوني إلى مكانهم ومكان عيشهم.. لقد أخذوني إلى القبيلية ولم يقتلوني هناك، بل أسروني ووضعوني في كوخ صغير ولم يقدموا لي سوى الماء فقط وكانوا يعاملونني كأي حيوان عندهم بل أسوأ.. وعندما يطلع النهار وتشتد الشمس في السماء كانوا يأخذوني من الكوخ ويربطوني بالحبال ويجروني حول بيوتهم ليراني الجميع أتعذب، وكانت الشمس والتربة تأكلان في جسدي ولكني كنت قويا ولم أتوسل إليهم أبدًا ليتركوني.. لقد عانيت هناك كثيرا لقد كانوا يضعوني في فقص في منتصف القبيلة تماما، مع الخنازير والحيوانات وعندما كان يمر أحدهم بجانب هذا القفص كان يبصق في وجهي أو يرميني بحجارة أو يضربني بعصا وكانوا حقًّا يستمتعون بذلك..

ولكن وفي ليلة من الليالي السوداء سمعت صوت صياح خارج الكوخ وأشياء غريبة تحدث فنظرت من بين الشقوق والصدوع التي في الباب لأرى ما يحصل فرأيتهم يمسكون آدم ففرحت كثيرا لأنه حي.. وحزنت لأنهم سيعاملونه مثلي ولكني صدمت صدمة كبيرة لم أكن أتوقعها عندما علمت بأنه معهم لقد تكلم معهم بلغتهم وكان يضحك معهم كثيرا وكأنه يعرفهم

وكأنهم أصدقائه ثم أتت إليه فتاة جميله فأمسكها من خصرها وقبلها فصاح الجميع وهللوا، وعرفت بأنه أختار هذا المكان واختار أن يخون، لقد أختار أن يصبح واحدا منهم.. ولم أكن أفهم ماذا يقول لهم لكنه أقنعهم بشيء ما فأعطوه سلاحا صغيرا في يده ثم أشاروا له على كوخي فأتى نحوي ليراني وفتح باب الكوخ ثم جثا على ركبيته ونظر إليَّ في عيني بكل استهزاء وشفقه وقال:

سأفك قيدك الآن لكي تذهب إلى جيمس وتحذره بأننا قادمون إليه لقتله ولنرى كيف سينقذه هذا الجدار أو وطنه كما يدعي ثم ضحك باستهزاء وقال إن الجلوس هنا أفضل بكثير مما تعتقد.. وعندما فك قيدي هجمت عليه لأضربه ولم أتمالك نفسي فطعني في كتفي بالسكين وقال: إن وصلت إليه حيا ستحذره وسيموت رغم ذلك وإن لم تصل إليه فسوف يموت أيضًا، أمامك ثلاثة أيام وسوف نأتي لكم لذا استمتعوا بوقتكم هنا لأنها ستكون آخر ثلاثة أيام في حياتكم ثم أمر الرجال بحملي ورميي وسط الغابات ومن هنا بدأت الرحلة في العودة إليك وتحذيرك ولا أدري حقًّا كيف عشت إلى الآن وكيف عبرت الغابات مررت من الذئاب دون أن تشتم رائحة دمائي إنها معجزة كأن الوطن أرادني أن آتي إليك وأحذرك لتستعد جيدا لهم.

جالسون عند الجدار لسنا خائفين أو قلقين من قدوم هذه القبيلة مع أننا نعرف بأنهم يفوقون عددنا عشرات المرات بل مئات المرات وسوف

يعذبونا ويقتلونا.. ولكننا ومع هذا الجدار ومع الوطن بجانبنا سنفوق عددهم ملايين المرات ولن يهمنا ما سوف يحدث.

فإن متنا اليوم يكفي بأننا متنا وسالت دمائنا على أرض الوطن ومن يظن بأن هذه الدماء ستذهب سدى مع التراب ولم يعد لها قيمة، إنه مخطئ تماما بل ستخلد دمائه للأبد وستصبح جزءًا من الوطن وكلما كثرت دماء التضحية والانتماء والصمود سيصعب إسقاط هذا الوطن بل وأنه لن يسقط أبدًا وكل وطن قد سالت دماء أبناءه على أرضة دفاعا عنه وتمسكا به سيصبح هذا الوطن صخرة في وجه من يريدون تدميره ولن تتفت أو تتكسر هذه الصخرة أبدًا ما دامت محاطة بدماء أبناءه.

جالسون عند الجدار نفكر ونفكر لا نعرف ماذا نفعل أن النهاية على وشك الحدوث ونحن مكتوفي الأيدي لا نستطيع فعل شيء.. فنظر جوناثن إليَّ وقال: أتعرف يا جيمس أن هذه القبيلة شرسة للغاية وكل من بها لايوجد بهم رحمة كأنهم من عالم آخر كأنهم بلا قلوب تماما لا أستطيع تخيل ما الذي سيفعلونه بنا.. لقد كانوا يمسكون بأشخاص أبرياء ويقتلوهم بلا رحمة أمام عيناي فقط لكي يخيفوني ويضحكون عليَّ ويستمتعوا بذلك.. ثم نظرت إليه بسرعة ونهضت من مكاني وقلت إن كانوا يمسكون بأشخاص مثلنا ويقتلوهم هذا يعني بأننا لسنا بمفردنا في هذا المكان ومن الممكن أن نحصل على المساعدة.

-ولكن كيف؟ ونحن في وسط الصحراء ولا يمكننا التجول فيها بأقدامنا هكذا.

-لن نتجول على أقدامنا يا جوناثن بل سنصبر إلى أن يرسل لنا الوطن أي شيء وحينها سنبحث عن المساعدة.

وانتظرنا عند الجدار راجين من الوطن أن يرسل لنا أي شيء أو يساعدنا في عبور هذا الاختبار الشديد.. وبعد فترة من الجلوس والتفكير وتخيل الألم الذي سوف نشعر به سمعنا صوتا قادما من بعيد، فنظرنا فوجدنا رمال كثيرة متناثرة في الهواء كأنها عاصفة رملية أو ما شابه، ولكن بعد أن اقتربت منا واستطعنا أن نراها بأعيننا عرفنا بأنه قطيع كبير جدًّا من الأحصنة به المئات والمئات من الخيول الجميلة والسريعة.. ثم اتجه إلينا وكان منظره مرعب جدًّا وجميل في نفس الوقت.

توقف أمامنا مباشرة وكان يلتف حولنا ونظر إلينا، فاقتربت من أول حصان فيهم وكان الوحيد الذي يتلون بلون الظلام اللون الأسود، فوضعت يدي عليه وأغمضت عيني فشعرت به داخله لقد شعرت بالوطن، فابتسمت وعرفت بأن المساعدة قد أتت.

ركبت هذا الحصان ولففت شعره حول يدي لقد كان يشبه الحصان الذي أمتطيته قبلا، وركب جوناثن أيضًا واحدا، وتحركنا واتجهنا ناحية الغابة لكي نبحث عن أي شيء يمكنه مساعدتنا.. انطلقت بسرعة وخلفي

جوناثن والمئات من الأحصنة وعندما اقتربنا من الغابة لم نصعد إلى الهضبة بل توقفنا أمام هذه الجبال فأنا أعرف بأنني إن صعدت إلى الهضبة سأجد هذه القبيلة أمامي لذلك سأضطر إلى الدخول في هذه الجبال الصغيرة لأبحث عن أي شيء وأنا أشعر حقًّا بأنني سأجد شيئا ما هنا.

-اسمعني جيدا يا جوناثن سوف أدخل إلى الجبال لأبحث عن أي شيء يساعدنا وأنت سوف تنتظرني هنا لتكون بجانب هذه الأحصنة ولتراقب المكان أيضًا.

ثم أخرجت من جيبي هذا البوق الصغير الذي كانت تستعمله هذه القبيلة لقد سرقته من أحدهم في المرة الأخيرة التي تعاركنا معهم وأعطيته إلى جوناثن.

-لكن يا جيمس لا أريد أن أتركك أريد أن أذهب معك لأكون بجانبك وأساعدك في أي شيء.

-لا يا جوناثن أنا أحتاجك هنا أكثر، أريدك أن تكون هنا عندما أخرج ومعي المساعدة لأنني واثق بأن الوطن سيساعدنا، لا تقلق عليَّ.

-حسنا افعل ما تريد، وستجدني هنا بانتظارك عندما تخرج.

إنها آخر فرصة لي لأنجو من هذا الاختبار القادم لابد وأن أجد شيئًا هنا يساعدنا في هذه الحرب القادمة وإما أن تكون حرب عادلة أدافع فيها عن

وطني وأقاتل بكل شراسة وقوة أو أن اقتل دون أن أفعل أي شيء أو حتى أن أقاوم.

جلست لأرتاح قليلا على صخرة من الصخور كانت موضوعة في هذا المكان بشكل غريب جدًّا، فالمكان واسع جدًّا ولا يوجد إلا هذه الصخرة في وسط هذا المكان الغريب لأجلس عليها.. وأنظر حولي أحاول استيعاب هذا المكان وكانت عيني ترى الآتي: مكان يملؤه الضباب الخفيف والجبال الصخرية العملاقة تلتف حولك كأنها وحوش عملاقة على وشك أن تدهسك تحتها.. والصمت والهدوء يعم المكان بشكل مخيف جدًّا وكانت الحرارة مرتفعة جدًّا كأن هناك بركان أسفل هذا المكان.. وكنت عطشا جدًّا ولكن لا يوجد أي مكان أستطيع الشرب منه.

وبعد قليل شعرت بأن هناك أحد يتحرك خلفي فنظرت فلم أجد أي شيء، ولكني أخذت حذري وبدأت أراقب المكان حولي بدقة أكثر وتركيز عالٍ.. وبعد فترة حدث الأمر مجددا ولكني عندما نظرت لم أجد أحدا.. فوقفت في منتصف هذه الجبال ونظرت لأعلى وقلت بصوت عالٍ جدًّا، أنا جيمس ولقد أتيت إلى هنا من أجل المساعدة ولم آت لأؤذي أو لشيء آخر لذا من يراقبني أرجوك أظهر نفسك.. ثم سكت ومر القليل من الوقت فجلست على الصخرة بكل خيبة أمل، ووضعت ذراعاي على قدمي وخبأت فيهما وجهي أفكر ما الذي سأفعله الآن وكيف سيكون مصيري.

وبعد قليل من اليأس وفقدان الأمل سمعت صوتا قادما من أمامي فرفعت رأسي لأرى ما هو وما مصدره ، وحينها كانت الصدمة الحقيقية فلقدت وجدت المئات من البشر واقفين أمامي ويلتفون حولي ويملأون هذا المكان الواسع الكبير، لا أدري كيف أتوا إلى هنا بهذه السرعة من أين أتت هذه الأعداد الضخمة.. وكانوا لا يرتدون سوى بنطال من الجلد ويمسكون سلاح في كلتا يديهما وينظرون إليَّ بكل حدة وغضب شديد.. ثم أتى من خلفهم رجل عجوز كان يهبه الجميع وعلى ما أعتقد بأنه زعيمهم ووقف أمامي وقال ما الذي أتى بك إلى هنا.

-حمدًا لله أنك تتكلم مثلي وتفهمني، أنا أحتاج مساعدتك كما أنت أيضًا تحتاج مساعدتي.

-وكيف أحتاج مساعدتك وما الذي تعرفه عنا لكي تساعدنا.

-أنا لا أعلم سوى أن صديقي قد اختطف من قبل القبيلة التي تسكن في الغابة التي فوقكم ورأيت أناسا منكم تذبح وتقتل بلا رحمة لا أعلم إن كانوا أبناءكم أو إخوانكم ولكن يجب أن تنتهي هذه الدماء الآن.

-وما علاقتك أنت بهذا ما الذي ستستفيده أنت من كل هذا؟

-لقد حاولوا قتلي أنا وأصدقائي أكثر من مرة، والآن قادمون نحونا أنا وآخر المتبقين من أصدقائي، بكامل جيشهم لكي يقتلونا وينتهون منا تماما، لذا أريد مساعدتكم حقًّا في مواجهتهم والقضاء عليهم.

-أتظن بأننا لم نحاول هذا؟ إن هذه القبيلة نسميها قبيلة الغرباء لقد أتوا من مكان بعيد لا نعرف أصله أو أين يقع أو أي شيء عنه واستولوا على أرضنا ووطنا ووضعونا في هذا المكان وتركونا ليصبح مكاننا الجديد وفي نفس الوقت قبرنا، لقد حاولنا كثيرا وكثيرا ولكنهم وفي كل مرة كانوا يذبحوننا ويقتلوننا إلى أن أوشكنا على الانتهاء، ألم تلاحظ أننا خرجنا لمواجهتك بدون نسائنا؟ لأننا نخاف عليهم لأنه لم يعد منهم الكثير لقد اغتصبوا وقتلوا وأخذوا الكثير من نسائنا ونحن لم نستطع فعل شيء لا يوجد شيء نفعله سوى البقاء هنا وعدم اختراق القواعد وإلا قُتلنا جميعا.

-لكن هذه المرة لابد وأن تفعل شيء لا بد وأن ننتهي منهم تماما.

-ما الذي يجعلك واثقا هكذا هل معك جيش كبير أو أسلحة قوية أو أي شيء يجعلنا أفضل منهم ما الذي بحوذتك يعطيك هذه القوة والشجاعة والثقة؟

-ليس معي أي شيء مما ذكرته لكن معي شيء أقوى من كل ذلك، إن معي هذا الجدار أن معي الوطن وأنا لا أخاف من أي شيء.

فظهر الذهول على وجوههم وبدأوا يهمسوا لبعضهم البعض وكأنهم يعرفون شيئا بخصوص هذا الجدار وبخصوص الوطن، ثم نظر إلى الرجل العجوز وقال لقد كان هذا الجدار هو وطننا في الماضي وكنا نعيش بجانبه في أمان وراحة واستقرار ونعيم لا يوصف ولكن هذه القبيلة أتت إلينا وبدأوا

في قتلنا ومهاجمتنا لقد طمعوا في كل شيء كنا نمتلكه وأجبرونا على الزحف إلى هذا المكان والاختباء به وجعله سجنا لنا ونحن من فعلنا هذا بأنفسنا.

- إن هذا الجدار هو من ساعدني وكان بجانبي طوال الوقت، هو من أبقاني حيا إلى الآن وجعلني صامدا في وجه أي شيء أقابله، يجب عليكم أن تتبعوني وتثقوا بي وتجعلوني أقودكم في هذه الحرب وسوف ننتصر انتصارا قويا لأن وطني هو وطنكم وأنا أعلم بأنه لن يخذلنا أبدًا.
- نحن لن نتبعك أو نجعلك قائدنا إلا بشرط واحد، إن كنت حقًّا تقول بأن هذا هو وطنك وأنه ساعدك كثيرا وجعلك حيا طوال هذا الوقت هناك اختبار لابد وأن تجتازه وهو اختبار صعب جدًّا بل مستحيل تماما، هناك رجل ضخم اسمه "الأسود" نحن نحبسه في قفص حديدي منذ زمن هذا الرجل لا نعرف ما الذي حدث له هل هو مجنون أم مسه الشيطان فجعله هكذا نحن لا نعلم، ولكنك سوف تواجهه وإن انتصرت عليه ونجاك الرب والوطن من هذا المأزق سوف نتبعك وستكون قائدنا وسنخوض هذه الحرب سويًّا.
- حسنا موافق.

ثم انتظرت قليلا إلى أن يأتوا به، فأنا لا أخشى أي شيء ولا حتى إن كان أسدا عملاقا فالوطن بجانبي وسيحميني وسيجعلني أقوى من ألف أسد.

ثم سمعت صوتا مرعبا قادما من خلف الصفوف البشرية التي تقف أمامي وتحجب عني الرؤية ثم ظهر أمامي وليته لم يظهر أبدًا! لقد رأيت عشرين شخصا يربطون رجلا أسودا ضخما جدًّا يكاد طوله أن يتعدى الثلاث أمتار وضخامته لم أرَ مثلها في حياتي كلها، وكانوا لا يستطيعون التحكم به أو تثبيته في مكانه لقد كان يدفع العشرين رجل بمفرده تماما ومن المفترض بأنني سأواجه هذا الوحش الأسود الضخم.

فكوا قيوده وابتعدوا عنه ولم يتركوا غيري أمامه لكي يلتهمه فاتجه نحوي يريد قتلي وتحطيم جمجمتي الصغيرة التي بحجم كف يده، ولكني كنت أركض منه والتف حول الصخرة وهو يلتف معي وظللت هكذا ما يقارب الربع الساعة إلى أن تعبت ولم يعد بمقدوري المقاومة، فتعرقلت بحجرة صغيرة وسقطت أرضًا فأتى بسرعة وأمسكني ورفعني من الأرض ووضعني داخل أحضانه وبدأ يضغط عليَّ بشدة وبدأ في تحطيم ضلوعي، حينها أغمضت عيني من الألم وبدأت في تذكر كل ما مررت به هنا من الذكريات الحزينة ومن الذكريات السعيدة ولكني إلى هذه اللحظة لم أفقد الأمل أبدًا بل أريد أن أكمل إلى النهاية، أريد أن أقابل الوطن وأن أجعله فخورا بي ففتحت عيني ونظرت لأعلى وصرخت بصوت عالي وقلت "الوطن" ثم أمسكت رأس هذا الرجل الأسود وقلت بصوت عالي أنا لست عدوك نحن أبناء وطن واحد وفجأة شعرت بأن كل الذكريات الجميلة مع الوطن تتدفق من خلالي وتخترق خلايا هذا الرجل وتملؤه كأني تماما أريه كل شيء داخلي

وأجعله جزءا منه، فسقط أرضًا على ركبتيه وأنا أيضًا سقط معه ولكني ما زلت أمسك برأسه أريه كل ذكرى جميلة تتعلق بالوطن.

تركته ونظرت إليه في عينه وقلت بعد أن رأيت كل هذا وعرفت كل شيء هل أنت معي الآن فنظر إليَّ بعينه السوداء المخيفة المليئة بحب الوطن وقال نعم، ثم نهض وحملني ووضعني فوق كتفيه، فنظرت إليهم من الأعلى وما زالت نظرات الدهشة وعدم التصديق على أعينهم فقلت لهم بصوت عالٍ من معي الآن؟ فصاح الجميع بقوة إلى أن اهتزت الجبال حولنا.. ثم تقدم الرجل العجوز نحوي وقال لي أنا زعيم قبيلة الصحراء "مايكا" وأخبرك بأن قبيلة الصحراء معك وتحت رأيتك وسنفعل كل شيء من أجل الوطن، نحن موافقون على القدوم معك وخوض هذه الحرب.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس عشر

"الحرب"

جوناثن يقف بكل لهفة ينظر إلى الجبال يتمني أن يراني خارجا في أي وقت يتمنى أن يراني مجددا..

وفي ظل جلوسه فوق حصانه ينظر إلى الجبال وخلفه المئات من الأحصنة، رأى شيئا يتحرك بين الجبال فانتبه فوجدني خارجا من بينهم، ففرح كثيرا ونزل من على حصانه وتوجه إليَّ ليعانقني ولكنه فوجئ بجيش قادما خلفي يحملون الأسلحه وشكلهم مرعب كل من يراهم..

عانقني بشدة وقال لي لقد كنت واثقا بأنك سوف تفعلها، فابتسمت وقلت: إنه الوطن يا جوناثن إنه من يفعل كل شيء.

امتطيت حصاني الأسود، ونظرت لهم وقلت والآن امتطوا هذه الأحصنة أريدكم فوقها الآن حتى وإن ركب فوق كل حصان شخصان أو ثلاثة فلا وقت لدينا لنضيعه، لابد وأن نستعد جيدا لهذه الحرب، ثم انطلقنا ناحية الجدار نشق الصحراء بصوت الأحصنة وصوت أنفاسنا المتحمسة والشجاعة.

اجتمعت مع كبار هذه القبيلة لنضع خطة محكمة ولأسمع منهم فهم يعرفون القبيلة الأخرى جيدا ومن الممكن أن أستفيد من هذه المعلومات.

وبعد فترة من التخطيط وجدنا الخطة المناسبة جدًّا لهذه المعركة وغير هذا نحن معنا سلاح قوي جدًّا لا يمكن أن يهزم أبدًا وهو هذا الجدار وهذا الوطن.

كنا يدا واحدة في كل شيء كنا كأحجار الجدار المتراصة هذه كنا متمسكين ببعضنا البعض كثيرا وكأننا أخوة وأصدقاء ونعرف بعضنا منذ مدة..

كان شعور الحب تجاه بعضنا البعض غريب جدًّا وكان يزداد مع مرور الوقت والمواقف كأنه ولد بداخلنا منذ ولادتنا ولكنه كان مسجون داخلنا وخرج عندما سمحنا له بذلك.

أسند ظهري إلى الجدار أفكر وأفكر، إن كانوا قادمين لقتلي أنا وجوناثن فقط فمن المؤكد بأنهم سيأتون بأعداد قليلة وحينها سنستطيع قتلهم وأخذ ما معهم ثم الانقضاض عليهم هناك والانتهاء منهم تماما، ولكن أيضًا هم أذكياء جدًّا لقد تركوا هذه القبيلة تعيش بين الجبال لسبب ما ولم يقتلوهم كلهم لسبب، وعلى ما أعتقد أنني أعرف هذا السبب.

نهضت بسرعة وذهبت إلى خيمة القادة ودخلت عليهم وهم يتكلمون وقلت لابد من الخطة أن تتغير لابد وأنهم يعرفون بأنكم هنا وسيأتون بأعداد مهولة بل بقبيلتهم كلها وسيفوقونا عددا وسيموت منا الكثير لذا يجب أن نبدأ في خطة جديدة، ثم قال أحد كبار القبيلة: وما هي هذه الخطة الجديدة يا جيمس.

- نصفكم سيعود إلى الجبال ونصفكم سيظل هنا، وهم لن يتوقعوا هذا أبدًا وسيرتبكوا كثيرا، إما أن يهاجموا في الجبال وحينها ستقاتلوهم من الأمام ونحن سنلحق بكم ونقاتلهم من الخلف وحينها سنكون قد حاصرناهم في المنتصف وسنقتلهم بسرعة، وإما سيأتوا إلينا ليتخلصوا منا أولًا وحينها ستأتون أنتم أيضًا من الخلف وتقتلوهم وهذه أفضل خطة لكي نشتتهم بها ونقسم جيشهم إلى نصفين.
- حسنا يا جيمس من الممكن أن تكون ناجحة ولكن إن حدث أي شيء مختلف جينها لم نكن نتوقعه.. سنموت كلنا.
- لا تقلق إن الوطن معنا وسيساعدنا.

أخذوا أحصنتهم وأسلحتهم واتجهوا إلى الجبال بسرعة، وكانوا يصدرون ضوضاء كثيرة داخل الصحراء وهذا لكي ننبهم بأننا عدنا وتركنا الجدار.. وكانوا حقًّا يراقبوهم ويعلمون كل شيء كأنهم هم أيضًا يخططون لنا.

مر يومان ولم يحدث أي شيء ولم يظهر احد منهم، وأتى اليوم الثالث اليوم الموعود اليوم الذي سيشهد المئات من القتلى وأنهار الدماء التي ستملؤ هذه الصحراء بأكملها.

جالسون عند الجدار نفكر وننتظر أي اشارة من المراقبين الذين يراقبون الصحراء بأكملها ليحذرونا في أي وقت، وفجأة أتى مراقب منهم يركض سريعا بحصانه ويتجه نحونا فنهضت بسرعة لأستقبله، فنزل من على

حصانه وقال لقد أتوا يا سيدي ولكن عددهم بالكامل يتجه نحونا ومعهم أكثر من خمسة وعشرين منجنيق كبير، إنهم سيدمرون الجدار بعد أن يقتلونا.. إنهم يفوقونا بعشرة أضعاف أعدادنا.. وإن انضم إلينا من في الجبل سيصبح خمسة أضعاف ماذا سنفعل يا سيدي؟ فاقتربت منه وقلت لا تخف سوف نقاتل وسوف نقتلهم وننتصر.

امتطيت حصاني وقلت لجوناثن أنت الآن الزعيم قاتلوا بقوة وأضعفوا صفوفهم كما خططنا حتى نأتي نحن من الخلف.

- ولكن أين ستذهب يا جيمس مكانك هنا وليس في المؤخرة.
- لا تقلق لابد وأن يكون واحد منا في المؤخره، سوف آتي سريعا وسآتي بالجيش الآخر وأنقض عليهم من الخلف أنا أريد أن أفعل ذلك بنفسي وسنقتلهم.

وانطلقت بسرعة ناحية الجبال أركض سريعا لأجلب الجيش الآخر وآتي به، اقتربت كثيرا فتوقفت بالحصان وأخرجت بوقا صغيرا من جيبي ونفخت فيه بقوة ليزعج كل من في الصحراء فظهرت القبيلة وسط الجبال وهم يتقدمون نحوي بسرعة، فوضعت البوق في جيبي ونظرت لأعلى فوجدت ذئب أبيض ضخم ينظر إليَّ وينظر إلى الجدار ويصدر صوت العواء المخيف وكان شكله خائفًا جدًّا ومرتعب، ففكرت كثيرا وأدركت شيئا هاما جدًّا لم يأتِ في بالي مطلقا.. فانطلقت سريعا لأصعد هذه الهضبة باتجاه هذا الذئب

الأبيض، وعندما وصلت نزلت من على حصاني ووقفت أمامه وكان يقف أمامي وبدأ بإظهار أنيابه لي وعلى وشك أن ينقض عليَّ، فجثوت على ركبتي ووضعت يدي على الأرض ونظرت إلى أسفل لأتفادى النظر في عينه، وقلت إن وطنك هو وطني وأحبه كما تحبه ولكنهم سوف يدمرونه ويسقطونه ويهدمونه أعلم بأنك ذئب ولن تفهمني ولكنك هنا لأن هذا هو وطنك وستفعل أي شيء من أجله ومهما كنا مختلفين فنحن نجتمع فوق أرض واحدة وتحركنا لغة ومشاعر واحدة وهي حماية هذا الوطن، ثم نظرت إليه وقلت أعلم أنني مجنون لأنني أتيت إلى هنا وأطلب منك هذا الطلب ولكن كل هذا المكان هو وطني كما هو وطنك ولابد أن تساعدني في القضاء على أعدائه، لقد علمت الآن أن كل شيء بداخل الوطن حتى وإن كان سيئا وشريرا مثلك لابد وأن يحمي وطنه في النهاية.. فاقترب مني ونظر في عيني ثم لامس برأسه صدري وكأنه موافق وبأنه معي ثم نظر إلى الأعلى وعوى عواء شديدا، وبعد ثوانٍ معدودة خرج من الغابة المئات والمئات من الذئاب الضخمة يصطفون خلف بعضهم، يصطفون خلفي لأقودهم إلى هناك.. إلى معركة إنقاذ الوطن.

نزلت من فوق الهضبة وخلفي جيش كبير من الأسنان الجائعة التي تريد أن تأكل كل من يقترب من الوطن أو حتى يلمسه.. ثم نفخت نفخة أخرى في البوق لأمر الجيش الآخر بالتحرك ناحية الجدار وأنا سألحقهم بجيش الذئاب هذا.

ذهب الجيش الآخر ودخل المعركة بقوة وشراسة وأنا ما زلت في الطريق قادما بسرعة ولكني كنت أراقب المشهد من بعيد وكنت أرى الجمال بعينه، وروح الوطن أمام عيني كنت أرى القوة والشجاعة داخل صدور المقاتلين كأنهم متأكدون من الفوز والانتصار كنت أرى نظرة الثقة في أعينهم، وقوتهم التي اكتسبوها من الجدار كنت أرى دماء الأعداء تتناثر يمينا ويسارا وكأن أعدادهم أقل منا أو أضعف منا ولكنهم العكس تماما فهم يفوقونا عددا وقوة ولكن الجدار وروحه جعلنا نشعر بقوته التي لا يمكن لأي أحد التغلب عليها أو حتى هزيمتها أبدًا.. دخلت المعركة سريعا وانقضضت بقوة وشراسة وخلفي المئات من الأنياب الجائعة.

اندهش الجميع من منظر الذئاب وهي تقاتل بكل قوة وشراسة وضراوة كبيرة، وكانت تقاتل بجانبهم وتستطيع تمييز العدو من الصديق كأن رائحة العدو مميزة تستطيع أنوفهم أن تعرفها وتميزها بسرعة ثم تقتلها.

وفجأة وأثناء هذا القتال المميت أتتني ضربة من الخلف قوية جدًّا جعلتني أسقط أرضًا وبدأ المكان يلف من حولي لا أستطيع أن أرى أي شيء.. ثم شعرت بأن أحدا حملني ثم وضعني فوق حصانه وانطلق بي بعيدا عن المعركة.. وكنت لا أرى سوى لقطات صغيرة ولكنها كانت مرعبة حقًّا كنت أرى المنجنيق بدأ برمي الحجارة على الجدار وكان الجدار يهتز بشدة لقد كنت أشعر بألمه داخلي وأشعر بكل حجر يرمي عليه ثم أغمضت عيني ولم أعد أشعر بأي شيء.

فتحت عيني فوجدت نفسي مقيدا في خشبة كبيره مغروسة في الرمال وأمامي الجدار ولا يوجد حولي أي شيء سوى آدم يقف أمامي وينظر إليَّ بكل غضب.. ثم قال من أين أتيت بهذه الذئاب وكيف سيطرت عليها وجعلتها في صفك.

وحتى إن شرحت لك فأنت لن تفهم هذا فأنت خائن بطبعك لا يهمك سوى نفسك فلن يهمك الآن كيف فعلت هذا.

- أتفعل كل هذا من أجل الوطن حقًّا، أفق يا جيمس لا يوجد شيء اسمه وطن إن الوطن لا شيء سوى مكان نعيش به لا أكثر ولا أقل.
- لا يا آدم إن الوطن ليس مجرد مكان فقط؛ إن الوطن يخلق بداخلنا من قبل حتى أن نولد إنه مصدر قوتنا ومصدر إلهامنا في الحياة إنه يمثل لنا كل شيء نحن ولدنا من أجله في الأساس لكي نحميه ونقويه ونجعله أفضل بنا وليس أن نتركه ونخونه، إنك لن تفهم أبدًا ما أتحدث عنه لأنك لم تترك لنفسك فرصة أن تشعر به، اشعر به وستتيقن بأن كل كلمة قلتها هي حقيقة تماما.
- أتريد مني أن أشعر بهذا الجدار المليء بالأحجار القديمة المتهالكة وشكله القبيح الذي يوحي بأنه بلا فائدة تماما.
- ألم أقل لك بأنك لن تفهم أبدًا يا آدم، إن كنت تريد قتلي فافعل هذا الآن فهذا شرف لي أن أموت هنا وأمام هذا الجدار وتتناثر عليه دمائي فأنا قد ولدت لهذه اللحظة والآن افعلها أيها الخائن.

أخرج سكين من جيبه واتجه نحوي بكل غضب وهو يقول الآن الخائن هو من سيعيش وأنت من ستموت أيها الوفي المخلص.

وعندما اقترب مني شعرت بأنني فقدت كل حواسي ولم أعد أشعر بشيء سوى بنبضات قلبي فنظرت أمامي فرأيت الجدار وكانت عيني لا ترى سواه وكأنها تودعه وكأنها ستشتاق إليه حقًّا، وعندما اقترب مني ورفع سكينه ليضعها في قلبي انقض عليه فجأة ذئب عملاق واقتلع رأسه من مكانها ورماها بعيدا لتختلط بالرمال ويختلط معها دمائه القذرة.

ثم أتى جوناثن يمتطي حصانه وكان مصاب في كتفه إصابة شديدة والدماء تملأ جسده بأكمله، ثم فك قيودي بسرعة ونظر إلى وقال بكل فرح وسرور لقد انتصرنا يا جيمس ثم تغيرت تعابير وجهه فجأة وتحولت إلى حزن عميق وقال لكن هناك شيئ يجب أن تراه بنفسك، شيئ سيجعلك تنسي فرحة الفوز وطعم الانتصار.

❁ ❁ ❁

الفصل السابع عشر

"لقد سقط"

واقفٌ أمامه أنظر إليه والدموع تملؤ عيني وتتساقط على وجهي بسرعة بلا توقف إنها لا تستطيع احتمال ما تراه الآن.. إنني أقف أمام الجدار أمام وطني ولكن كان هناك جزء منه محطم بالكامل إنه الجزء السفلي من الجدار، كان جزءًا كبيرًا جدًّا يمتد لمئات الأمتار وهذا ما كان يحزنني ويحرق قلبي ويمزقه، نعم إننا انتصرنا على الأعداء وقتلناهم ولكننا خسرنا جزءًا كبيرا من الوطن.

جالسٌ على الرمال وجانبي جوناثن ممددا على الأرض مصابا إصابة شديدة تغيبة عن الوعي لفترات طويلة، ولكن ما حدث للجدار أنساني إصابته تماما أو التحدث بشأنها وأنساني كل شيء حتى نفسي.. لا أنفك من النظر إليه والصدمة تملؤ تعابير وجهي لا أدري ما الذي سيحدث الآن هل رسبت في الاختبار أم أن الاختبار لم يكتمل بعد ولكن كيف لقد تدمر الوطن أمام أعيننا ونحن لا نستطيع فعل شيء سوى التحديق به.. وبعد قليل نهضت لأتمشى بجانب الجدار قليلا، وبينما أنا أتمشى بجانبه وضعت يدي عليه لأتحسسه فأنا عادة أفعل ذلك لكي أستطيع الشعور به ولكي نصبح جسدًا واحدا، وعندما وضعت يدي شعرت بإحساس غريب شعرت بألم

شديد داخل صدري يلتهمه وشعرت بحزن عميق يجتاح جسدي كله وأصبحت كل الألوان في عيني سوداء تماما كالأظلام الشديد وبدأت الدموع تتساقط من عيني بمفردها، وكان هذا شعور الوطن إنه يشعر بالألم والظلمة والانكسار الشديد، فجثوت على ركبتي من شدة هذا الشعور الذي لم يتحمله جسدي لكي أرتاح قليلا، فنظرت على الأرض فوجدت حجرا من الأحجار ولكنه كان سليما نوعا ما فتحركت يدي لا إراديا وأخذته من مكانه ووضعته داخل الجدار مع باقي الأحجار السليمة والمتراصة.. فتعجبت مما فعلته ومن ردة فعلي السريعة هذه اللا إرادية، ثم نظرت إلى الجدار فوجدت بأن الثقب الذي به كبيرا جدًّا، ثم هاجمت عقلي فكرة رائعة لا أدري لماذا لم أفكر بها منذ البداية، جعلتني أبتسم وأغير ملامح وجهي من الحزن الشديد إلى قمة السعادة، لقد ضعت داخلي الكثير من الأمل والكثير من القوة.

فرحت كثيرا لأنني وجدت مهمتي القادمة وعرفت ماذا سوف أفعل ولكن هذه المرة لن أكون بداخلها وحدي بل سيشارك بها كل شخص يعيش في هذا الوطن وخلف ظل هذا الجدار العظيم.

ذهبت إلى كومة كبيرة من الأحجار وصعدت فوقها لكي يراني الجميع ولكي أستطيع مخاطبتهم ولكي يستطيعوا سماعي.. وقفت وبدأت أنادي عليهم بصوت عالٍ لكي يجتمعوا حولي وبالفعل انتبهوا لصوتي وبدأوا بالقدوم نحوي والتجمع ولكنهم كانوا متعجبين كثيرا من السعادة المرسومة على وجهي وهذه الحماسة التي تملؤني.

أقف فوق تلك الأحجار وأمامي المئات من الناس، فنظرت إلى السماء واستنشقت بعضا من الهواء لكي يمدني بالقوة، ثم بدأت خطابي وقلت: نعم إننا انتصرنا وهزمنا أعدائنا ولم يسقط منا الكثيرون ولكننا خسرنا ما هو أكثر بكثير، لقد خسرنا جزءا من الوطن وهذا يعني أننا لم ندافع عنه بشكل قوي حتى وإن ظهر هذا الجزء في أعينكم بأنه صغير نسبة إلى عظمة وضخامة الوطن فهذا لا يعفينا من ذنبنا مهما كان، لذاك لا يجب علينا الحزن فلا وقت للحزن الآن إنه وقت النهوض وإصلاح ما اقترفته أيدينا، سنتكاتف سويًّا كما تكاتفنا في حربنا وسنقف بجانب بعضنا البعض وستملؤنا العزيمة والقوة والشجاعة كما كنا نشعر في الحرب تماما، أأخبركم شيئا؟ تخيلوا بأن الحرب ما زالت مستمرة وبأننا نحتاج إلى بعضنا البعض ولكن هذه المرة لن نقتل أشخاصا أو نفسك دماءً أو ندافع عن وطن بل سنصلح ونرمم لنجعل وطننا أفضل مما كان، أعرف أنه من الصعب فعل هذا ولكن يجب علينا أن نفعله، فكما حاربنا من أجل الدفاع عنه يجب أن نحارب من أجل ترميمه وإعادته.

فصاح الجميع بكل حماسٍ وقوة واجتاح صوتهم الصحراء.. وبالفعل بدأنا بالعمل الشاق والمرهق، كنا نذهب إلى الجبال لنجلب منها الأحجار الضخمة، ثم نضعها على خشبة كبيرة مربوط بها أكثر من ثلاثة أحصنة ثم نجرها إلى الجدار ونكسرها هناك إلى قطع صغيرة لنصنع منها أحجار ملائمة ومناسبة لهذا الجدار العظيم، نعم إنه عمل شاق وصعب جد ويتطلب

مجهود خرافي ووقت كثير ولكننا كنا معا في كل شيء وفي كل وقت فأصبح العمل أقل صوبة ومشقة بل وأصبح أكثر متعة.. وكانت حقًّا من أجمل وأصعب الفترات التي قضيتها هنا في هذه الصحراء، كانت أوقات جميلة تعلمت فيها الكثير من الأشياء.

أسند ظهري إلى البئر لأرتاح قليلا وأراقبهم وهم يعملون، إنه مشهد رائع جدًّا أعتقد أنه من الممكن أن يدفع ملاين وملاين من الأموال فقط لالتقاط هذه الصورة العظيمة، الصورة التي تدل على روح الانتماء وروح العطاء، الصورة التي تدل على العمل الجماعي وروح المساعدة، إنها الصورة المليئة بحب الوطن والإخلاص إليه والتضحية من أجله إنها تضم جميع المشاهد وجميع المشاعر وأظن أنها حقًّا أفضل صورة رأتها عيني طوال حياتي.

الأيام تمر وتمر ولم يعد هناك أي إثارة كما الماضي أو أي مغامرات أو اختبارات هل انتهت رحلتنا هنا؟ أم أن هناك المزيد من المتاعب قادمة ولكن لم يحن وقتها بعد؟ أنا لا أعلم أي شيء ولا أدري متى سأعلم ولكني على أتم الاستعداد لأي شيء.

عندما انتهت الحرب وانتهى كل شيء عادت الذئاب إلى مكانها وانسحبت بهدوء دون أن يشعر بها أحد، ولكنهم تركوا خلفهم ذئبا صغيرًا بنيا اللون ولقد كان مصابا عندما وجدته ولا يستطيع الحركة.. إنه ليس بحجمهم وضخامتهم ولا بهيبتهم وقوتهم فأظن بأنه صغيرهم وبأنهم حزينون على فراقه

الآن.. فأخذت مجموعة من الفرسان لا يتعدون المائة فارس فلدي الآن مهمتان لأفعلهما بسرعة، الأولى إعادة هذا الذئب إلى قبيلته والثانية زيارة قبيلة الغرباء لنرى أحوالها والعدد المتبقي منهم ومساعدتهم إن أرادوا ذلك واستعادة أراضي قبيلة الصحراء أيضًا.

انطلقت بصحبة الفرسان وجوناثن نشق الصحراء شقا ذاهبون إلى مكان له في قلوبنا ذكريات سيئة، وكنا في الماضي نخشاه ونخشى حتى الاقتراب منه لكن الآن لا نهاب شيئا أو نخشي شيئا فنحن ملوك هذه الصحراء فهذا وطننا والآن أصبح لنا ولا يوجد به أحد سوى أبنائه ولن يوجد.

اقتربت من الهضبة الضخمة فأمرت الفرسان بالتوقف هنا وانتظاري ثم أخذت الذئب فوق حصاني وانطلقت لمقابلة الذئاب وإعطائهم هذا الصغير.. اقتربت من الأشجار قليلا ثم توقفت فبدأت الأنياب اللامعة في الظهور من بينها، وبدأت أصوات الأسنان الجائعة بالانتشار حولي.. ثم ظهروا جميعا والتفوا حولي ولكنني كنت واقفًا مكاني بلا حراك وفي يدي الذئب الصغير ملتف بقطعة من القماش، ثم ظهر زعيمهم الأبيض الكبير الذي تهابه فور رؤيته واقترب مني ونظر في عيني وكأنه يقول ماذا تريد الآن.. فجثوت على ركبتي ووضعت القماشة على الأرض وكان حجمه بالنسبة لي كبيرا وكان ثقيلا حقًا لقد ارتحت كثيرا عندما أنزلته أرضًا، ثم فتحت القماشة بيدي لينهض منها هذا الذئب الصغير المتألم، ثم بدأ بالمشي البطيء ناحية الذئب الأبيض

وكان يعرج قليلا فقدمه لم تتعافَ إلى الآن فالإصابه كانت شديدة للغاية ولم يتحملها هذا الصغير، وعندما وصل إلى الزعيم قفز إلى صدره ليحتمي به وبشعره الأبيض الناعم الدافئ ويعبر له عن مدى اشتياقه وضعفه فأخرج الزعيم لسانه بكل لهفة وبدأ يلعقه مرارا وتكرارا ثم بدأ في العواء ليعوي معه جميع الذئب وليسمع صوتهم كل من بالصحراء.. نظر إليَّ الذئب الأبيض بكل امتنان وشكر ثم امتطيت حصاني وأشرت للفرسان أن يصعدوا، وعندما صعدوا أخلوا لنا الذئاب الطريق لكي نعبر إلى الغابة وإلى قبائل الغرباء، فهذا الجميل الذي فعلته معهم الآن لن ينسوه طوال حياتهم أبدًا.

دخلت الغابة وخلفي الفرسان فرحين جدًّا أكاد أسمع صوت قلوبهم ودقاتها لقد مر زمن طويل على العودة إلى أرضهم وبيوتهم المسلوبة منهم والمسروقة، لقد علمت الآن حقًّا معنى الاشتياق إلى المنزل ولماذا هو مقدس هكذا بالنسبة لهم، وقفت بحصاني في منتصف القبيلة وبدأت أنادي عليهم، فخرج يركض نحوي عشرون شابا أو أكثر يمسكون بالأسلحة يمنعوني من التقدم أكثر ويوجهون أسلحتهم نحوي، فابتسمت ونزلت من فوق حصاني ثم أشرت إلى فارسا من الفرسان فأتى لي ثم قلت له ترجم لهم ما سأقوله ثم نظرت إلى هؤلاء الشباب نظرة سخرية وقلت لهم أنتم حقًّا مثيرون للشفقة أنتم شباب صغير وضعيف لا يمكنكم الصمود أمامنا لقد خسر جيشكم بالكامل ولم يتبقَّ منه أحد ولا نريد أن نفعل هذا بقبيلتكم نحن فقط نريد

أن نستعيد هذه الأرض ونعطيها لأصحابها والمنتمون حقًّا إليها.. فنظر إليَّ شاب منهم وبدأ يتكلم ويتكلم وكان منفعلا جدًّا ثم سكت، فقال الفارس إنه يقول بأنهم لن يتحركوا من مكانهم ولا يخشوننا وسيدافعوا عن أرضهم إلى آخر رجل فيهم يا سيدي.

فنظرت له وقلت بكل استياء وحزن اقتلهم كلهم ولا تترك منهم أحدا ولكن لا تقتربوا من النساء والأطفال والعجائز فإنهم ليسوا ندا لنا ونحن لا نقتل إلا من يستطيع مواجهتنا فقط.. وبالفعل هجموا عليهم ليقتلوهم وأنا عدت إلى الخلف وجلست على صخرة من الصخور أشاهد المنظر، لم يعد لدي أي طاقة للقتال ولم أعد أحتمل منظر الدماء وهي تملؤ يدي وتلطخ جميع ملابسي لذلك انسحبت من هذا القتال واكتفيت بالمشاهدة.

انتهوا من القتال وأخذوا جثث أولئك الشباب وذهبوا ليدفنوهم بعيدا.. فنهضت من مكاني لكي آخذ جولة صغيرة حول الغابة، سمعت بكاء طفل قادم من كوخ صغير فدخلت إلى هذا الكوخ لألقي نظرة، فوجدت امرأة عجوز جالسة في ركن من الأركان وبين ذراعيها رضيع يبكي بكاءً شديدا، فجلست أمامها وقلت هل يعاني من شيء ما؟ هل هو مريض أم ماذا؟

- ولماذا تسأل؟ إن كنت تريد قتلي فافعل ذلك الآن وبسرعه.
- أنتِ تتكلمين مثلي أين تعلمتي هذه اللغة أيتها العجوز؟
- أنا من قبيلة الصحراء ولكني أعيش هنا مع الغرباء أخدمهم وأرعاهم.

- ولمَ تفعلين ذلك؟ أليسوا هم من سلبوا أرضكم وقتلوكم وذبحوكم ورموكم للذئاب لكي تأكلكم.
- نعم ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ أنا امرأة عجوز ولا يمكنني المقاومة أو حتى تغيير أي شيء.
- من قال ذلك؟ إن روحك ما زالت في جسدك ورئتاكِ ما زلت تعمل إذا يمكنكِ تغيير الكثير، لو أن كل صغير وكبير قاوم هؤلاء ومنعهم حتى ولو بلسانه لما كان حدث ذلك، لكنكم خشيتم الموت وخشيتم العذاب ونسيتم ما هو أبشع من الموت والعذاب.
- وما الذي أبشع من الموت والعذاب؟
- إن الأبشع منهم أن تعيشي مكسورة طوال حياتك لأن عدوك يمسك لكِ السلاح الأبشع أن تعيشي طوال حياتك خائفة من كل شيء وتطيعي من هم لا يملكون الحق بالطاعة، الأبشع أن تربي أولادك على الخوف والذل والانكسار لا على الشجاعة والجرأة والقوة، الأبشع أن ترين الغريب يقتحم بيتك وقت ما شاء ويفعل بكِ أي شيء كان ولا يحق لكِ أن تتكلمي أو تعترضي بل إنك ستساعديهم على فعل ذلك، الأبشع هو أن يُدفنوا معكم في مقابركم وداخل أرضكم كأنه وطنهم تماما وبأن هذا حقهم، الابشع أن يجبروكِ على تقبل هذا الوضع والتأقلم معه لأن ماحدث قد

حدث ولا يمكنكِ تغيير أي شيء، الأبشع أن يُنسوكِ أبنائُكِ الذين قتلوهم وإخوانكِ الذين شنقوهم أمام عينك ويقولوا لكِ ما فات مات ولن يعود، ولكنهم مازلوا يقتلوكم كل يوم، أتدرين ما الأبشع من كل هذا؟ هو أن تعتادي على الأمر وتعيشي وعيناكِ ترى كل هذا ولا تفعلي أي شيء، أعرفتِ الآن ما هو أبشع من الموت والعذاب؟

فبكت العجوز من كلامي ولم ترد عليَّ لأنها لا تعرف ماذا تقول لي، فنهضت من مكاني وخرجت من الكوخ غاضبا جدًّا من هذه العجوز.

أعطينا لكل أسرة منهم الكثير من الطعام والشراب وأخلينا القبيلة بالكامل، لقد أجبرناهم على الذهاب والعيش في الجبال كما كانت تعيش قبيلة الصحراء وأن يعيشوا بقية حياتهم هناك دون الرجوع أبدًا إلى هنا، إنها يا سادة نهاية لقبيلة ظالمة وبداية جديدة لقبيلة تملؤها الحرية والأمل.

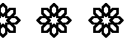

الفصل الثامن عشر

"الحجر المفقود"

ذهبت إلى البحيرة التي في الغابة لأشرب بعضا من الماء النقي وأسترخي قليلا وأهديء أعصابي.. وبينما أنا جالس هناك تحت ظل شجرة رأيت رجلًا عجوزًا قادمًا نحوي، فنهضت من مكاني لاستقباله لأعرف من هذا وما الذي يريده.. فنظر إليَّ وقال:

لا تظن بأن الأمور انتهت وبأنكم انتصرتم، لا إن هذا لم يحدث إنك لم تفعل أي شيء سوى أنك انتصرت في هذه الحرب واستعدت أراضي قبيلة الصحراء.. ولكن الجدار الذي ترمموه لن يكتمل لأن هناك شيء ينقصه منذ زمن بعيد، ولكنه كان ثابتا صامدا طوال هذا الوقت ولكن بعد أن تدمر تماما لن يعود أبدًا كما كان.

- وما هذا الشيء الذي ينقص الجدار أيها العجوز.
- إنها الوحدة، إن هذا الجدار هو الوطن لهذه الصحراء وكل من بها لكنه مقسم إلى نصفين إنه ليس وطن واحد يا جيمس، إن هذا الجدار ينقصه حجر واحد مهم لن يكتمل إلا به وهذا الحجر مع الذين قسموا هذا الوطن وحوله إلى نصفين.

– كيف تعرف اسمي؟ وكيف تعرف كل هذا؟ ومن أنت؟.

– إن هذا ليس الوقت المناسب لهذه الأسألة إنه الوقت المناسب للبحث عن هذا الحجر وجلبه ووضعه داخل الجدار وإلا لن يكتمل أبدًا ولن يكون هناك وطن يؤويكم أو يحميكم بدونه.

– وكيف أبحث عنه؟ وأين؟.

– سل قبيلة الصحراء فإنهم يعرفون كل شيء وهم من حضروا كل شيء من البداية ولكن احذر لأن النهاية اقتربت جدًّا لذا فكر قبل أن تفعل أي شيء أو تتخذ أي قرار لأن الخطأ فيما هو آت سيكلفك حياتك وحياة من معك، واحذر أيضًا بأن الجدار بات ضعيفا وأي شيء سيحدث له من الممكن أن يسقطه كله وحينها لن تستطيعوا بنائه مجددا لذا أسرع فالوقت يداهمك.

ثم نادى عليَّ فارس من القبيلة ليقاطعنا ويخبرني بأنه وقت الرحيل فالتففت إليه وأخبرته بأنني قادم الآن ثم نظرت أمامي لأكمل حديثي فلم أرَ العجوز لقد اختفى تماما ولم يعد له أثر على الإطلاق.

امتطيت حصاني عائدا إلى الجدار لأتأكد مما قاله هذا العجوز فإن كان كلامه صحيح فإنني على وشك الولوج في إحدى أصعب الاختبارات ويجب أن أكون مستعدا لهذا. ذهبت إلى مايكا الزعيم وأخبرته

بكل شيء حدث وما قاله لي هذا العجوز، فنظر إليَّ بكل حزن وقال لم أكن أعرف بأنه سيؤثر على ترميم هذا الجدار يا جيمس.

– وما هو الذي سيؤثر على الجدار؟ أخبرني أنا لا أفهم أي شيء.

– كنا في البداية قبيلتين كبيرتين جدًّا كنا نحن من نحكم الصحراء كلها ولم يكن يستطيع أحد القدوم إلى هنا لأنهم كانوا يخشوننا ويخشون قوتنا واتحادنا سويًّا وكنا يدا واحدة في كل شيء ولكن الاختلاف البسيط بيننا هو أسماء القبيلتين فنحن الصحراء وهم الشمس.. ولكن مع مرور الوقت واختلاف العقول وضعف الإيمان بالوطن وقع بيننا خلاف كبير جدًّا كان سيؤدي إلى حرب مميتة.. ولكننا لم نوافق على هذا فتوصلنا إلى حل يرضي القبيلتين ويجعلنا نشعر بسلام إلى الأبد.. لقد اتفقوا على أن يقسموا الوطن إلى نصفين يصبح لهم وطن وأرض ولنا وطن وأرض ولا يتعدى أحد منا على الآخر ولا يتدخل أحد منا في شئون الآخر ولكن هذا لم يكن ليحدث لأن الجدار واحد فقط لا يمكن أن ينقسم.. لذا أتينا بساحر قديم كان حكيم جدًّا ومشهور بالدهاء والقوة والحكمة ليجد حل لنا في هذه المشكلة، فقال بأن هناك حجر واحد في الجدار به قوة عظيمة، أن أخذناه واقتلعناه ستنقسم قوة الجدار وروحه إلى نصفين جزء في هذا الجدار العظيم وجزء في الحجر الذي سنقتلعه.. لذا بحث الساحر عن هذا الحجر وسط هذا الكم الهائل من الأحجار، إلى أن وجده

واقتلعه ووضع مكانه حجرًا آخر وقال إن حدث شيء لهذا الجدار مع مرور الزمن لن يعود أبدًا كما كان ويجب أن يتحد مع هذا الحجر ليعود إلى قوته وهيبته وروحه الكاملة، وإن تدمر الحجر أو تدمر الجدار سيتدمر الاثنان سويًّا ويسقط الوطن بأكمله.. لذا أصبح هناك وطنان مختلفان داخل وطن واحد، فهذا الجدار يحمينا ويأوينا ويمدنا بالقوة ويمدنا بكل سبل الحياة وكذلك الحجر الذي معهم يفعل المثل تماما، إنهم أغبياء حقًّا لا يعرفون بأنهم لو قسموا هذا الوطن إلى ألف أرض إنه في النهاية ليس إلا وطن واحد وروح واحدة وإن سقط جزء منه سيسقط الآخر وسيسقط الجميع.

- حسنا، سأذهب إلى هذه القبيلة لأحاول استعادة هذا الحجر فنحن بدونه هالكون وبدونه الوطن ضعيف جدًّا ولن أسمح بهذا أبدًا.
- ولكنك لن تغير شيء دام لمئات السنين يا جيمس إنهم لن يتركوه لك أبدًا وإن حاولت ستلقى حتفك مؤكدا، وإن ذهبنا معك فجيشهم أقوى وأكثر عددا منا وهم يحاربون من أجل الوطن مثلنا تماما لذا سيكون هناك بحار من الدماء ونحن لا نقاتل من هم أبناء وطننا أبدًا يا جيمس.
- حسنا سأذهب وحدي وسأعود بهذا الحجر مهما كلفني الأمر حتى وإن كانت حياتي هي ثمن هذا، فهم أيضًا سيسقطون إن سقط هذا الجدار العظيم وهذا ليس من مصلحتهم.

ذهبت إلى خيمة جوناثن لأتكلم معه وأخبره بما سأفعله وما هي مهمتنا الجديدة، وبعد حديث طويل ومجادلة طويلة أقنعته وجعلته يبقي هنا ليرعي أمور الجدار ويكمل ترميمه معهم إلى أن آتي أنا بهذا الحجر وأضعه في مكانه الذي ينتمي إليه، وأخبرته بأن لا يغادر أحد من أهل القبيلة ويظلوا كلهم معه يحمون الجدار بأرواحهم ومهما كلف الأمر إلى أن آتي أنا، فأنا لدي مهمة صعبة جدًّا لا أعلم إن كنت سأعود منها أم لا.

امتطيت حصاني وودعتهم وانطلقت بسرعة متجه إلى الجهة الأخرى من الصحراء مبتعدا عن الجدار ومبتعدا عن روحي التي تلتصق به الآن والتي رفضت تركه والابتعاد عنه.

بعد ما يقارب الثلاث ساعات من الركض في الصحراء ومسابقة الرياح بدأت قبيلة الشمس في الظهور وبدأ الخوف يدخل إلى قلبي ولكني يجب أن أتحلى بالقوة فلا يوجد وقت للخوف أو للقلق فأنا هنا لأسترداد الحجر وسأبذل قصارى جهدي لهذا حتى ولو كُلفت حياتي.. وقفت أمام حراس القبيلة وقلت لهم:

أنا جيمس من قبيلة الصحراء وأتيت لمقابلة الزعيم فأنا أريد التحدث معه في أمر هام جدًّا لا يمكنه الانتظار.

واقف الآن أمام خيمة كبيرة جدًّا لونها أحمر داكن وحولها يقف العشرات من الحراس المنتهين دائما وذوي البنية العضلية الضخمة، فدخلت الخيمة ويا إلهي إنها جميلة حقًّا، إنها مليئة بالتحف اليدوية

والأسلحة القديمة العتيقة وبعض الأزهار الجميلة التي لا تنبت في هذه الصحراء ولا يمكنها العيش في هذه الحرارة وعلى الرغم من ذلك إنها مثمرة وناضجة وشكلها يوحي بأنها قطفت من الجنة ليست من الدنيا.. لقد ذكرتني بغرفة جدي عندما رأيتها وكيف ذهلت من منظرها كما ذهلت الآن.. وفي وسط الخيمة هناك طاولة سوداء عتيقة عليها زخرفة باللون الأبيض، فاقتربت منها فرأيت حجرًا أسودًا صغير شكله جميل جدًّا فوق هذه الطاولة، وعلى ما أعتقد بأن هذا الحجر هو ما أبحث عنه وهو ما أتيت من أجله.. فرفعت يدي لألمسه ولكن هناك صوتا قاطعني قال مرحبا يا جيمس، إن كل الصحراء تتحدث عنك وعن ما فعلته في حربكم، فالتفت لأرى من هذا فوجدت رجل طويل القامة قمحي اللون شعره أسود داكن ملامحه توحي بالراحة والهدوء والهيبة في نفس الوقت.. فقلت له مرحبا بك يا زعيم إنني متشرف حقًّا بمقابلتك.

- إن الصحراء كلها لا تتحدث إلا عنك وعن ما فعلته في حربك ضد قبيلة الغرباء وأكثر شيء أذهل الجميع وجعلك بطل في نظرهم وأسطورة هو بأن الذئاب الضخمة كانت تحارب معك وكنت أنت من تقودها يا قائد الذئاب.

ثم ضحك قليلا وقال ويا ترى ما سبب هذه الزيارة الكريمة يا جيمس.. فقلت:

إننا في مشكلة كبيرة ولن يحلها سواك ولكن يجب عليك أن تفهمني وتعطيني الفرصة كي أشرح لك كل شيء.

- حسنا تفضل كلي آذان صاغية.
- إن جدارنا قد تدمر جزء منه في حربنا الأخيرة ونحن الآن نرممه ولكنه لن يعود كما كان قويا إلا بأن يكتمل ويعود إليه الحجر الذي كان ينقصه، لن يصبح قويا بدونه ولن يمدنا بأي شيء ما دام ضعيفا، وإن سقط أو حدث له أي شيء في أية لحظة سيسقط الوطن كله وسنسقط معه جميعا وكل من في هذه الصحراء، لذا نحن نحتاج إلى هذا الحجر بأسرع وقت ممكن لإنقاذ الوطن وإنقاذ أنفسنا.
- حسنا ماذا تريد مني الآن؟ ما الذي أستطيع فعله لك؟ أنا لا أفهمك ولا أريد أن أفهمك لذا فكر في طلبك مجددا واطلب أي شيء وسوف أحققه لك.
- أنا أريد الحجر الأسود لكي أضعه في الجدار ويعود كما كان وطنًا واحدًا قويا صامدا في وجه أي شيء.

تغيرت تعابير وجهه وأصبحت تخيفني جدًّا، ثم نهض وقال بصوت عالٍ يملؤه الغضب أتريد أن تأخذ منا أهم شيء نملكه وما يجعلنا على قيد الحياة، إننا نعيش من أجل هذا الشيء وأنت تريد سلبه منا.

- لا أنا لا أريد ذلك كل ما أريده هو توحيد الوطن وأن نصبح أرضًا واحدة داخل وطن واحد.

_ إن وطني ليس وطنكم وليس لكم الحق بأخذه منا إننا هكذا منذ مئات السنين ولن يتغير أي شيء.

- أنا لن آخذه منكم بل أنني س.. ثم قاطعني بكلامه قائلًا خذوه وقيدوه وضعوه في وسط القبيلة واجمعوا أهل القبيلة فأنا أريد التحدث إليهم الآن.

لم يعطوني فرصة للتكلم بل أخذوني خارج الخيمة بالقوة وقيدوا يدي وربطوني بخشبة كبيرة في منتصف القبيلة ليراني جميع المارين ويراني كل من بالقبيلة.. خرج زعيمهم من الخيمة واتجه نحوي وحولنا المئات من الناس مجتمعين منتظرين الزعيم وما سيخبرهم به.. وقف أمام الجميع بكل ثقه وقال لقد أتى لنا هذا الشخص المدعو جيمس قائد الذئاب من قبيلة الصحراء ويقول بأنه يحتاج الحجر الذي يؤوينا ويحمينا لأجل الجدار الكبير لأنه سيسقط والحجر الذي نملكه هو من سيساعدهم ويصلح جدارهم.. هل نعطيهم كل ما نملك؟ هل نعطيهم وطننا؟ هل نعطيهم أرواحنا؟.. فصاح الجميع بصوت عالٍ وغاضب جدًّا وقالوا "لا".. فابتسم الزعيم ونظر إليَّ وقال نحن شعب يحب وطنه وسنموت من أجله إن اضطررنا لذلك، لذا لن تأخذوا أبدًا ما هو لنا وملكنا منذ زمن بعيد وسيبقي هكذا إلى الأبد.. ثم نظر

إلى الناس وقال نحن أهل كرم ولذلك يجب أن نكرم ضيفنا كما تعلموا وسنكرم جيمس جيدا لأنه بطل وقائد حربي لذا سوف يشارك في تقاليد قبيلتنا المعتادة وينال هذا الشرف العظيم، ثم ضحك ضحكة استهزاء وسخرية ثم استكمل قائلا: إنه سيشارك في مسابقة القتال السنوية وسنرى إن كان حقًّا قائد الذئاب كما يقولون أم إنه مجرد اسم لا أكثر، ثم صاح الناس فرحا واشتياقا لشيء لا أعرف ما هو ولكني أيقنت من تعابير وجوههم المتحمسه بأنه شيء كبير ومهم لهم.. ثم نظر إليَّ وقال أمامك ثلاثة أيام فقط قبل أن تشارك، لذا ادعوا ربك كثيرا وأمتع ناظريك بالنظر إلى الجدار قبل أن تموت يا قائد الذئاب وصدقني إنها مجرد أيام قليلة وستتمنى حقًّا بأنك لم تأتِ إلى هنا.

❁ ❁ ❁

الفصل التاسع عشر

"قتال الخلاص"

أجلس داخل زنزانة سوداء ليس بها إلا نافذة صغيرة تطل على السماء وجمالها وتطل على القمر الذي كان يواسيني ويخفف عني طوال الليل.. لكنني لا أشعر بشيء هذه المرة، لا أستطيع الشعور بالخوف أو القلق أو أي شيء كأنني ولدت هكذا لا أخشى شيئا ولا يؤثر بي شيء إنه شعور غريب ومخيف حقًّا لكنه جميل أيضًا لقد اكتسبته ها هنا واكتسبته من هذا الجدار العظيم وهذا الوطن الأعظم.

طلعت الشمس لتملأ زنزانتي وتملأ الكون كله بجمالها لكنني لم أستيقظ على ضوئها بل استيقظت على صوت خشن حاد يأمرني بالاستيقاظ، ففتحت عيني ونهضت من مكاني، فنظر إليَّ وقال لقد حان وقت جولتك.

- جولتي؟ وأين ستكون هذه الجوله؟ ولم؟
- لقد أمرنا الزعيم بإعطائك جولة كل يوم تتجول فيها داخل القبيلة وتشتم بعضا من الهواء النقي ثم تعود إلى الزنزانة مرة أخرى.

خرجت معه خارج الزنزانة ثم فك قيودي بسكينة وهو ينظر إليَّ ويقول لا تحاول فعل شيء غبي ولا تحاول الهروب لأننا نراقبك جيدا لذا حاول الاستمتاع بجولتك هنا ولا تحاول أن تموت الليلة يا جيمس ثم تركني

وذهب.. بدأت أتمشى في القبيلة وفي أنحائها وأنا تملؤني السعادة وتملؤ عقلي الذكريات الجميلة.. فآخر مرة كنت أرى فيها منظر كهذا كنت في أحضان إليزابيث وأتمنى حقًّا أن أعود لها لألمسها وأقبلها حتى ولو لمرة واحدة فأنا حقًّا أشتاق لها جدًّا.

أمشي بين الناس هنا وهناك وكانوا ينظرون إليَّ نظرات عجيبة كلها رهبة وإعجاب وكانوا يتهامسون عندما يرونني قادم ويقولوا "قائد الذئاب قد أتى" "قائد الذئاب قد أتى"، وكانوا مرحبين بي جدًّا فكان كل تاجر أقابله أو بائع في الطريق كان يعطيني مما يبيعه بلا مقابل كأنها هدية ترحاب أو مباركة منهم لي، لا أدري ما يسمونها حقًّا ولكنها كانت تسعدني جدًّا.. انتهت جولتي وذهبت إلى الزنزانة مرة أخرى لأكمل يومي بداخلها وأنا أفكر وأحاول أن أجد حلا لما أنا فيه الآن وكيف سأعبر هذا الاختبار الصعب.

أتى اليوم الموعود إنه يوم الاحتفال الكبير ويوم القتال العظيم إنه اليوم الذي يحتفل به كل صغير وكبير داخل هذه القبيلة، حتى أنا سوف أحتفل به ولكنه من الممكن أن يكون آخر احتفال لي في حياتي.

أخرجوني من الزنزانة وذهبت إلى الزعيم في خيمته ليلقي عليَّ كلمته الأخيرة.. دخلت الخيمة فوجدته يقف في منتصفها عند الحجر تماما وكان مبتسمًا وسعيدًا جدًّا ولكن لا أدري لمَ.. ثم نظر إليَّ وقال أهلا يا قائد الذئاب أعرف بأنك عانيت كثيرا معنا في الأيام الماضية ولكني أبدي أسفي الشديد

فلم يكن أمامي حل سوى هذا لذا أرجوك سامحني على ما فعلته، ولكنك الآن ستشارك في المسابقة إنه تقليد قديم في قبيلتنا نطهر به كل المفسدين والملوثين لهذا الوطن العظيم لذا نأخذ كل المجرمين والفاسدين والقتلة ونضعهم داخل ميدان كبير ليتبارزوا فيه ويتقاتلوا ومن يتبقَّ منهم يفوز وينجوا بحياته ونعفو عنه ويبدأ حياة جديدة معنا، لذا يجب عليك ألا ترفض هذه الفرصة وأن تنجو بحياتك وتقاتل لأنك إن لم تفعل هذا لن يرحمك أحد وستموت سريعا داخل هذا الميدان والذي يسمى ميدان الموت.

- إنك تجاهلت الأمر الذي أتيت لك فيه، إنك تعلم جيدا بأن قبيلة الصحراء وقبيلتكم وطن واحد لا يمكن أن ينقسم أبدًا، إن حدث أي شيء سيء للجدار أو سقط في أي وقت سيسقط معه كل شيء سيسقط معه وطنكم أيضًا لأنه وطن واحد وهذا ما لا تفهمه أنت.
- أنت من لا تفهم يا جيمس بأن هذه أرضنا وهذا الحجر هو وطننا ومصدر قوتنا، نعم في الماضي كنا أرضًا واحدة ووطن واحد ولكن الآن كل شيء اختلف وتغير ولن يرجع أبدًا كما كان.
- افعل ما شئت أيها الزعيم ولكن ستندم على هذا قريبا جدًّا وستعرف بأن كل شيء قلته أنا كان حقيقة وكان هو الصواب.

ثم أمرهم الزعيم بأخذي وبأن يجهزوني للقتال جيدا فإنه يريد أن يشاهد يوما مميزا به الكثير من القتال وبه الكثير من القوة.

أقف داخل ممر طويل مظلم بالكاد أستطيع أن أرى يدي، وكان يقف حولي الكثير من الرجال كنت أشعر بهم وألامسهم ولقد كنت أسمع صوت أنفاسهم الخائفة وصوت قلوبهم المرتعبة لذا تبين لي وأيقنت حينها بأنهم المتسابقون والمقاتلون وبأنه قد حان الوقت للمواجهة ولا يوجد سبيل للعودة.

بدأت أرى ضوء خافت هناك وبعد وهلة بدأ الجميع بالتحرك نحوه فبدأت أتحرك معهم بكل حذر فأنا لا أعرف إلى الآن ما الذي سأقابله، اقتربت كثيرا من الضوء واكتشفت بأنه باب صغير يؤدي إلى الميدان الكبير الذي أخبرني الزعيم به قبلا.

بدأت بأخذ أنفاسي والاسترخاء قليلا، نعم إن ابتعادي عن الجدار يقلقني ولكن يجب عليَّ الإيمان بأنني ما زلت داخله حتى وإن كنت لا أستطيع أن أراه بعيني أو ألمسه بيدي فيكفيني أنني أستطيع الشعور به، وفجأة وعندما اقتربت من الباب لأخرج توقف رجل ضخم من المقاتلين أمام الباب والتفت إلينا وقال هناك فائز واحد فقط وسيكون أنا أيها الحمقى الضعفاء ثم أغلق الباب بيده ووقف أمامه وقال سأقتلكم جميعا ثم سأخرج وأكمل القتال ولكن يجب علينا أولًا أن نقلل عددنا وهذا ما سأفعله الآن.. يا إلهي لقد احتجزنا داخل الممر معه، والممر مظلم جدًّا لا نستطيع أن نرى شيئا داخله ولا يمكننا فعل شيء سوى القتال ولكن كيف في هذا الظلام الحالك؟

لقد نزع أحدهم الغطاء من فوق الممر ليقتحم ضوء الشمس الظلام من داخل الثقوب التي كانت في سقف الممر، ولكنها أنارت الممر ولكن بشكل مخيف جدًّا ومرعب تشعر من خلاله بأنها النهاية وبأن هذا المكان هو مقبرتك ولن تخرج أبدًا.

بدأ هذا الضخم بالتقدم نحونا وكان عملاقا بكل معنى الكلمة تهابه وتخشاه منذ النظرة الأولى، لقد كنا نقف أمامه خائفين لقد كان عددنا لا يتجاوز العشرة ولكن لا يجرؤ منا أحد على التقدم ومواجهته، لأن من سيواجه هذا الكائن سيكون مصيره الموت السريع والمؤلم أيضًا.. وفجأة سقط أمامه سلاحا كبيرا يشبه السيف ولكنه أضخم قليلا، لقد رماه له شخص من الأعلى من الثقوب التي في سقف الممر وكأنه يساعده على قتلنا بسرعة وبلا رحمة.

حمل السلاح ثم شق قميصه ليمزقه ويرميه بعيدا وليطلق العنان لعضلات جسده والشعر الذي يملؤها ثم نظر إلينا وصرخ صرخة قوية وبدأ اللعاب يتطاير من فمه كالأسد الجائع تماما، ثم انطلق نحونا يلوح بسلاحه تجاهنا يا إلهي إنه منظر مخيف جدًّا لن ينساه عقلي أبدًا ولكن يجب عليَّ التماسك والتحلي بالقوة والإيمان لكي أعبر من هذا المأزق.

ركضنا إلى الخلف جميعنا من هول المنظر فوجدنا أمامنا الباب الذي دخلنا منه وكان مغلقًا أيضًا فتوقفنا حينها فلا يوجد لنا مكان آخر نذهب

إليه، اتجه الضخم نحونا فتجرأ شخص منا واتجه نحوه لمواجهته وقتاله ولكنه لم يسعه فعل شيء فلقد رأينا رأسه تطير في الهواء وتسقط علينا لتملأنا بالدماء.. فتقدمت بسرعة وقلت لهم إن ظللنا هكذا سيقتلنا كلنا يجب علينا الهجوم جميعا لكي نستطيع قتله، فتقدم الجميع بجانبي وتحلوا بالشجاعه ووافقوا فركضنا نحوه بسرعة وبكامل عددنا فانقضضنا عليه بسرعة وأسقطناه أرضًا فإنه لم يتوقع هذه الحركة فسقط سريعا، ثم أخذ شخص منا السلاح وقطع رأسه بسرعة قبل أن يقاوم وينهض مجددا.. فبدأنا بأخذ أنفاسنا فلقد أهلكنا هذا الرجل كثيرا، فنظرت إلى الشخص الذي بجانبي وقلت هيا لنذهب، ولكنني لم أكمل كلمتي فوجدت سلاح يخترق رأسه وعينه من الخلف فتفاجأت وعدت إلى الخلف.. وبعد أن سقط أرضًا وجدت حامل السلاح يقول أنا آسف ولكنها حرب ويجب أن أفعل هذا، ثم بدأ الجميع في القتال للفوز والنجاة وكانت معركة شرسة بين ثمانية أشخاص داخل مكان ضيق جدًّا لك أن تتخيل المنظر وأنا متأكد بأنك سترتعب من مجرد التفكير في هذا.

بدأت أتفادى ضربات السلاح الموجهة لي، ثم انقضضت عليه فجأة وأخذت السلاح منه وقتلته وحينها ومنذ ذلك اللحظة لا أعرف ما الذي حدث لي لقد احمرت عيناي بمنظر الدماء ولم أعد أرى شيئا سوى القتل فبدأت أقتل فيهم واحدا تلو الآخر دون أي وعي أو تفكير لقد كان الجانب السيء داخلي هو من يتحكم بي وهو من يوجهني، وبعد أن انتهيت منهم

جميعا بلا أي رحمة فتحت الباب لكي أخرج إلى الميدان وأكمل القتال وكانت معركة كبيرة لقد كان العشرات يركضون حولك ويقاتلون بعضهم البعض ولا تدري ماذا تفعل؟ ثم تكتشف بأنه يجب عليك القتال وترك الجانب البشري بك بعيدا واللجوء إلى الجانب المظلم جانب الجنون والشهوة العمياء جانب البقاء والدفاع عن النفس مهما كلف الأمر.. وهذا ما فعلته تماما وكانت أكبر غلطة اقترفتها في حياتي.

انطلقت وبدأت أقاتل مثلهم وكانت يدي تُسقِط منهم الكثير والكثير لقد كانت قوتي جبارة حينها، لم يكن أحد يستطيع الوقوف أمامي أبدًا وكان الكل يراني بذهول واندهاش حتى ملكهم لم يكن يصدق ما تراه عيناه، لابد وأنني حقًّا قائد الذئاب.

لم يعد هناك شخص على قيد الحياة سواي كلهم قتلى وموتى، وأنا أقف بلا وعي تماما تملؤني الدماء من قدمي إلى رأسي وتغير لوني وتغير كل شيء داخلي فأنا لم أعد بشري من الآن وصاعدا لقد تحولت إلى وحش بلا أية مشاعر فاقد لكل شيء، وفجأة شعرت بحركة خلفي فالتفت سريعا فوجدت شخص يزحف على بطنه أرضًا يحاول النجاة والهروب من الموت الذي يقف أمامه الآن،فضغط على قبضة سلاحي بقوة واتجهت نحوه لأقضي عليه، وعندما اقتربت منه ورفعت سلاحي لأقتله التفت إليَّ ونظر في عيني وحينها توقف كل شيء حتى الزمن قد توقف من حولي لقد صدمني المنظر وحرك بداخلي المشاعر التي كادت أن تموت وأعادتني إلى الحياة مجددا، لقد رأيت

شابا صغيرا لا يتعدى الأربعة عشر عاما مصابا في قدمة ويبكي من شدة الخوف وأنا كدت أن أقتله الآن بلا أي رحمة، إن منظره فقط وهو خائف ويخشى الموت ويخشاني كفيل أن يسقط آلاف الجبال من قوتها وتأثيره فما بالكم بالذي أحدثه داخلي وداخل عقلي، بدأت أستوعب كل شيء حولي وبدأت أنظر إلى المكان من حولي لكي تعمل حواسي مجددا وتحاول فهم ما أنا فيه الآن، لكني لم أرَ سوى القتلى ومنظر الدماء، فسقط سلاحي من يدي وجثوت على ركبتي وبدأت أبكي أمام الجميع وأمام الزعيم، يا إلهي لقد فعلت أبشع شيء من الممكن أن يقترفه الشخص من وجهة نظري وأيضًا في نظر الوطن، لقد قتلت أبناء وطني وإخوتي يا إلهي أنا لا أصدق ما أراه الآن وما فعلته أنا.

بينما أنا أبكي بكل حرقة وألم شعرت بيد تتحرك على كتفي لتواسيني وتخفف عني هذا العذاب، ففتحت عيني لأرى من هذا فوجدت الشاب الصغير الذي كدت أن أذبحه هو من يواسيني، فنظر إليَّ وقال لا تيأس ولا تحزن وأصلح ما فعلته فكل شيء يمكنك إصلاحه أن تماسكت وعدت إلى رشدك، تحلى بالإيمان والقوة وتذكر بأن الوطن دائما معك، والآن انهض وأكمل ما بدأته، أكمل ما أنت قادم لأجله وما ولدت لتحقيقه.. تعجبت من كلامه إنه شاب صغير على هذا الكلام لابد وأنه الوطن هو من كان يكلمني الآن وليس مجرد شاب صغير.

❁ ❁ ❁

الفصل العشرون

"الكرسي"

نهضت من مكاني بكل قوة وعزم وثقة ونظرت حولي لأرى المئات والمئات من الناس المذهولين والغير مصدقين لما رأوه وكان ويترأسهم زعيمهم القاسي الذي يسمح بهذا القتال وهذه الدماء بلا أية رحمة، وظللت هكذا لفترة طويلة أنظر إليهم وهم ينظرون إليَّ، لقد أردت حقًّا أن تلامس عيني أعينهم جميعا وأن تكلمهم وتتواصل معهم ومع قلوبهم ولكنني قررت التحدث لكي يسمعني كل شخص فيهم ويفهم هذا الكلام جيدا الذي لابد وأن أقوله لكي تستوعبه وتفهمه عقولهم وقلت: لمَ تفعلون هذا؟ ألديكم سبب مقنع حقًّا تصدقة عقولكم لكي تبيح هذه الدماء المنهمرة على الأرض؟

ألديكم سبب مقنع حقًّا لكي يموت هذا الصبي بلا أية رحمة أو شفقه؟ لا ليس لديكم أي سبب سوى أنكم تشبعون رغباتكم البشرية التي ستجعل منكم وحوشا وستجعلكم بلا أية رحمة، أفيقوا فإن الوطن على وشك السقوط أعلم بأنكم انقسمتم منذ زمن بعيد وظننتم بأنه أصبح لكم وطنكم الخاص، لكن لا إنه وطن واحد ولكنكم لا تعلمون ولا تدركون خطورة المصيبة التي أنتم فيها، أن الوطن يسقط أمامكم ولكنكم منشغلون بمتع الحياة وجمالها ورغباتكم ونسيتم من يحميكم ومن يشعركم بالأمان

صدقوني فأنا قائد الذئاب كما تقولون لقد مررت بأشياء لم يمر ولن يمر بها أي منكم وأنا أعي حقًّا ما أقوله لكم، إن سقط هذا الجدار سيسقط معه وطنكم لأنه وطن واحد لا يمكن تقسيمه أبدًا مهما حاولتم، لأن هناك سؤال سأسأله لكم وإن وجدتم له إجابة فافعلوا ما يحلوا لكم وإن لم تجدوا فإنه يجب عليكم أن تصدقوني حينها، هل روحك التي داخل جسدك يمكن أن نقسمها وتستطيع أن تعيش بجسدين في وقت واحد؟ إن ما فعلتموه بالوطن تماما كالسؤال الذي أسألة الآن، لقد أنهيت كلامي وفعلت كل ما بوسعي لكي أنقذ هذا الوطن من الضياع سأذهب لأجلس في زنزانتي وعندما تجدون جوابا لسؤالي فقط أعلموني.

ثم تركت الميدان المليء بالدماء والمليء بالعقول التي تفكر فيما قلته والتي تحاول استيعاب الأمر وهذه المشكلة الكبيرة.. ذهبت إلى زنزانتي وأغلقت بابها عليَّ وارتميت على السرير لأريح عضلات جسدي وأريح عقلي من هذا المجهود الذي بذله اليوم ولكني مهما حاولت الراحة فإن عقلي لا ينفك أبدًا عن التفكير.

وبعد قليل دخل عليَّ الحارس وقال: إن الزعيم يريد رؤيتك في خيمته، فنهضت لكي أذهب معه وأعرف فيما يريدني الزعيم ولكنني كنت آمل في أن يكون قد وافق على إعطائي الحجر لكي أكمل ما أتيت لفعله.. دخلت الخيمة فوجدته واقف عند الحجر ينظر إليه بكل تمعن وحنين، فسرعان ما انتبه لوجودي هنا وغير تعابير وجهه ونظر إليَّ وقال: تفضل يا جيمس اجلس وأشار

إلى كرسي مغطي بغطاء أسود لامع غريب.. فنزعت الغطاء ووضعته على الأرض وحينها وجدت كرسي غريب حقًّا إنه أجمل كرسي قد رأته عيني يوما ما، إنه كرسي أسود قاتم وبه بعض الزخرفات الذهبية كأنها من الذهب الخالص وكانت أذرعه بيضاء اللون ومكتوب عليها بعض الكلام الغريب الذي لم أفهمه أبدًا، فنظرت إلى الزعيم وقلت له أمتأكد بأنني من الممكن أن أجلس على هذا التحفة الفنية الجميلة؟

- طبعا ومن غيرك سيجلس عليه يا قائد الذئاب؟!

ففرحت كثيرا وجلست عليه بسرعة فإن به جاذبية غريبه جدًّا لا يمكن لأحد أن يقاومها أبدًا مهما كانت إرادته قوية، حتى وإن كان أعمى فإن هذا الكرسي يجذبك إليه بلمسه ومنظره ورائحته وهيبته وكل شيء فيه يجذبك إليه لكي تجلس، وصدقوني أول ما وضعت جسدي عليه ولامست يدي ذراعيه الذهبيين لم أعد أشعر بأي شيء على الإطلاق، لم أشعر سوى بنشوة كبيرة جدًّا وراحة تكاد أن تكون أبدية، لقد أنساني كل شيء وكل التعب الذي أمر به الآن وكل ما كنت أفكر فيه، إنه شعور غريب حقًّا لا أدري ما هو ولا أستطيع وصف ما أشعر به الآن وحتى أنني لا أستطيع التحدث، فنظر إليَّ وقال: هل تعلم ما هذا الكرسي الذي تجلس عليه الآن يا جيمس إنه كرسي الزعامة والحكم لا يمكن لأي أحد خلقه الله على وجه الأرض أن يقاوم سحر هذا الكرسي إنه كرسي القوة والعظمة وكرسي الخلود وإن من يجلس عليه ويجربه مهما كانت قوته وإرادته ونقاء روحه وقلبه لا يمكنه التخلي عنه أبدًا

حتى وإن كان الثمن روحه، وأنت الآن يا جيمس في آخر اختبار لك ولا يسعك النهوض من هذا الكرسي إلا أن تجتاز هذا الاختبار.. وعندما سمعت منه هذا الكلام لقد حاولت حقًّا النهوض ومقاومة هذا الشيء ولكنني لم أستطع فهناك شيئا يقيدني في الكرسي ويمنعني حتى من الحركة، فبدأت عيناي بالدموع وبدأت بالانهيار والضعف لا أدري ما يحصل لي ولكنني أول مرة لي في حياتي أشعر بهذا الكم من الضعف وهذا الكم من الألم.. ثم أشار الزعيم بيده إلى الرجال التي بداخل الخيمة فانصرفوا وخرجوا، ثم اقترب مني ونظر في عيني وقال أأنت مستعد لآخر اختبار لك هنا؟ وصدقني إنه أهم وأعظم اختبار على الإطلاق.. ثم وضع يده على رأسي لكي أصرخ صراخا شديدًا جدًّا وفجأة لم أعد أشعر بأي شيء، أصبح كل شيء أسود اللون وهادئ كهدوء الليل تماما.

أفتح عيني لأرى نفسي جالسًا على كرسي كبير وأشعر بأنني مرتفع عن الأرض قليلا وفي وسط مكان مزدحم بالناس، لا أدري أين أنا حقًّا وكيف جئت إلى هنا ثم نظرت تحتي فوجدت العشرات من الأشخاص يحملون الكرسي الذي أجلس عليه وهناك حارس على يميني وعلى يساري وهناك أناس حولي يحموني، وعلى ما أعتقد بأنني وسط سوق كبير أو مدينة أو مكان لا أدري ما هو ولكنني هنا لمراقبة ما يحدث، وبينما أحاول أن أفهم وأترجم ما يحدث أتى شخص بجانبي فجأة ليوقف كل هذا ويقول يا مولاي أنا أريد مباركتك على زواج ابنتي وابن الحداد مايكل اليوم فإني حقًّا أتشرف بذلك

وسيكون يوما رائعا إن باركتهما.. وبينما هو يتكلم أنا أنظر إليه وعقلي ما زال يعمل ويفكر ويحاول استيعاب كل هذا حتى أنني حقًّا لا أدري من يكلم هذا الشخص أيكلمني أم يكلم شخصًا آخر؟ ولا أدري ماذا يجب عليَّ أن أقول له؟ إنني أشعر بتعب شديدا ولا أستطيع حتى التحدث، فقلت له بكل تردد وخوف حسنا أنا أباركم فليحفظكم الرب ويرعاكم.. أردت النهوض من مكاني فأتى شخص من خلفي سريعا وقال أمرك يا سيدي، فنظرت إليه بكل تعجب وقلت أين أنا؟ فقال أنت في مملكتك العظيمة يا سيدي.

- هل لي أنا ملك هنا؟ كيف حدث هذا ومتي؟.
- منذ زمن بعيد يا سيدي وأنت تحكم هنا أنت تحكم هنا منذ صغرك وهذه كلها مملكتك حتى نحن ملكك يا سيدي فلتأمرني وسأنفذ ما ستطلبه مني يا سيدي.
- حسنا أنا أريد الذهاب إلى بيتي لأرتاح.

فابتسم هذا الرجل ثم قال بصوت عالٍ هيا أيها الحراس إلى قصر الملك فإنه يريد الراحه قليلا لأنه متعب، ثم تحرك موكبي هذا وتحرك معه الأشخاص الذين يحملونه وكان يقف حولهم الحراس بالأسواط السوداء يضربوهم بها لكي يتحركوا أسرع ولكي لا يتخاذلوا في حمل الكرسي الكبير، وأنا كنت مندهش من كل هذا ولكنني أيقنت بأنه اختبار من اختبارات الوطن فآخر شيء أتذكره هو الخيمة والكرسي الساحر وعندما اقتربت من

الزعيم ولامسني لأصرخ وأغيب عن الوعي لأجد نفسي هنا، إنه اختبار صعب وشديد كما قال الزعيم تماما وبما أنه آخر اختبار لي هنا يجب على أن أبذل قصارى جهدي لأجتازه وسأفعل المستحيل لتحقيقه.

أدخلوني قصري الكبير ثم توجهوا بي إلى غرفة عملاقة مكتوب عليها غرفة الملك، ثم دخلوا هذه الغرفة، ويا إلهي إنه من الصعب جدًّا أن تفرق بينها وبين الجنة التي طوال حياتك تحلم بها وأقسم بكل شيء جميل أنك مهما تخيلت وحلمت بجمال الجنة لن يأتي ببالك أبدًا جمال كجمال هذه الغرفة العملاقة التي أنا بها الآن ولا أدري هل أنا الآن في الجنة حقًّا؟ أم إنها مجرد غرفة.

توقفوا أمام كرسي كبير جدًّا ومكتوب أسفله بالذهب الخالص، عرش الملك العظيم، فنزلت من فوق الكرسي الذي كنت أعتقده كبير لأقف أمام ما هو أكبر وأعظم، ثم خرج الجميع من الغرفة وتركوني وحدي بها مع هذا الكرسي الضخم جدًّا، فبدأت أصعد السلالم التي توصلني إليه وقد كانت سلمة من فضة وسلمة من ذهب، إلى أن وصلت إلى الكرسي وجلست وحينها شعرت بشعور غريب، كأنني أشعر بالعظمة والقوة المطلقة مع إنني أول مرة أجلس على هذا الكرسي وأول مرة أحكم أو أكون ذو منصب حاكم لكنني شعرت بكل هذا منذ أن جلست، وكان أمام هذا العرش الضخم مرآة كبيرة جدًّا أستطيع رؤية نفسي بها ورؤية مكانتي وعظمتي وقوتي، لقد ابتسمت لرؤية نفسي هكذا وبدأت في ملامسة التاج الفضي الذي يعلو رأسي لقد

كنت سعيدًا جدًّا وراضٍ تماما بما أنا فيه، ولكن مع كل هذه العظمة والقوة والجمال والسحر نسيت ما أنا هنا لأجله ونسيت حلمي ونسيت وطني ونسيت كل شيء ولم أعد أفكر سوى في عرشي وحكمي لقد أصبحت مغيبا وأعمى تماما عن الحقيقة والصواب ولا أدري متى سوف أعود إلى طبيعتي وإلى رشدي لم أكن أتوقع يوما بأنني ضعيف هكذا وأن مجرد كرسي استطاع السيطرة عليَّ وعلى أفكاري ومشاعري إنني تائه الآن ولا أعلم أين هو طريق العودة.

جالس على عرشي رافع رأسي إلى الأعلى وأتكلم مع خادمي ولا أستطيع النظر إليه حتى لأنه لا يستحق أن ينظر إليه الملك العظيم جيمس وهو أنا ولا يوجد سواي من يستحق أن يملك هذا الكرسي، ثم دخل علينا أحد الحراس وقاطعنا وقال: يا سيدي هناك شخص يريد رؤيتك فورا ولا يريد الذهاب دون أن يراك ولقد طردناه مرات عديدة ولكنه يعود باستمرار ولا ييأس أبدًا ماذا نفعل معه يا سيدي؟.. فنظرت إليه وقلت بكل هدوء أدخلوه الآن، فأدخلوه فوجدته رجلًا عجوزًا مسكينًا فقيرًا جدًّا ملابسه مقطعة وتظهر عليه علامات الفقر الشديدة، فنظرت إليه بكل احتقار وقلت له ماذا تريد أيها الفقير؟

- لقد أتيت إلى هنا يا سيدي لأشكي لك حالي ولأعلمك بما يجري فإنك الملك وتستحق أن تعرف ما يجري.

- وهل تظن بأن ملكك لديه وقت كافي ليسمع منك مشاكلك أيها الفقير؟
- أنت ملك يا مولاي ومن واجبك أن تستمع إلى مشاكلنا وتنصت إليها بكل اهتمام، ومن غيرك يفعل هذا يا سيدي؟ نحن بحاجة ماسة إليك ونحتاجك ولن يساعدنا سواك.
- أأتيت إلى هنا لكي تعلمني كيف أقوم بواجبي وكيف أحكم؟ لماذا لا تأتي لتحكم أنت هذه المملكة بدلا مني؟ عسى أن تكون أفضل مني وتستطيع أن تحكم جيدا.
- لكني لا أستطيع يا مولاي لأن الحاكم لابد وأن يملك المواصفات الازمة للحكم وليس أي شخص يستطيع أن يحكم، حتى أنت يا سيدي من الممكن أن لا تكون صالح بأن تحكمنا ولكنك أيضًا لا تعطي فرصة لأحد فعسى أن يكون أفضل منك ولكنك تأخذ هذا الكرسي في أحضانك ولا تسمح لأحد بلمسه ومن يفعل ذلك تقتله كأنك ولدت لهذا وستموت في هذا المكان.

فغضبت كثيرا مما قاله لي ونهضت من مكاني وناديت على الحراس جميعا، وعندما أتوا أخبرتهم بأن يعدموا هذا الشخص وبأنني أريد مشاهدة هذا المنظر الجميل، فأخذوه الحراس خارج الغرفة وتوجهوا به إلى مكان الإعدام وهو مكان خارج القصر تماما بعيدا عنه لكي ينفذوا ما طلبته منهم ولكي ينسقوا المكان لحضوري ويجهزوا كل شيء ليليق بالملك العظيم.

جلست على كرسي المتنقل وذهبت إلى هذا المكان لأشاهد إعدام الشخص الذي أزعجني بكلامه وعكر صفوي وأفسد عليَّ يومي الجميل، وصلت إلى المكان ونظرت إليه وهو مربوط في خشبتين كبيرتين ويقف وراءه سياف يغطي رأسه بخرقة سوداء وكان المنظر مرعبًا لأي شخص إلا أنا، كان منظرًا مبهجًا وسعدت كثيرا عندما رأيته، نظر السياف إلى الرجل العجوز وقال هل لديك طلبات أخرى قبل أن تموت، فنظر إليَّ العجوز وقال لا تترك السلطة تعميك عن الحقيقة وكن أنت ولا تكن غيرك، وفجأة ضرب السياف رأسه لتسقط على الأرض أمامي وأمام الجميع، ولكني لم أكن معهم ولم أرَ هذا المنظر، فأنا الآن لا يجول بخاطري سوى هذه الكلمة التي قالها قبل أن يموت، لقد حركت داخلي الكثير من الأشياء وبدأت أرى نفسي كما كنت وبدأت أستعيد كل شيء فقدته فوق هذا الكرسي اللعين، وفجأة قلت بصوت عالٍ مليء بالغضب اتركوني الآن وحدي في هذا المكان، فذهب الجميع مسرعين من أمامي لكي لا يغضبوا ملكهم العظيم... ثم جلست وحيدا على الكرسي أنظر إلى هذا الرجل المسكين الذي أمرت بقتله، فأغلقت عيني قليلا وبدأت آخذ بعضا من الأنفاس لكي أتمالك نفسي ثم فتحت عيني وإذا بالجدار أمامي مباشرة لا يفصلني عنه سوى عشرات الأمتار، فبدأت بالبكاء ونهضت من على الكرسي بسرعة ركضا إليه لاحتضانه لقد اشتقت إليه حقًّا، ولكنني وقبل أن ألمسه شعرت بأن شيء قد أمسكني من يدي فجأة فنظرت فوجدته حبل أسود غليظ مربوط في يدي، فنظرت خلفي

فرأيته موصول بالكرسي الذي كنت أجلس عليه، يا إلهي إنه حقًّا لا يريد تركي ولن يتركني بسهولة، ثم ربطت من يدي الأخرى ومن قدماي ومن رقبتي وبدأت أسحب إلى الخلف ناحية الكرسي، ولكنني كنت أقاوم بشدة ولكن دون أي جدوى لقد كان الحبل غليظا جدًّا كما كان حبي وتعلقي بهذا الكرسي تماما، وبينما هو يسحبني وجدت السيف الذي كان يمسكه السياف مرمي على الأرض فأمسكته وقطعت هذه الحبال كلها وانطلقت مرة أخرى ناحية الجدار بسرعة لألمسه ولكنه عاد وربطني مرة أخرى ولكن هذه المرة بحبال أكثر وأشد غلظة وقوة، فسقط السيف من يدي وبدأت أسحب بلا أية مقاومة ، جلست على الكرسي مرة أخرى ولكن هذه المرة وأنا مربوط فيه بالقوة وليس بإرادتي كما تعودت.

جالس على الكرسي أنظر إلى الجدار لا أستطيع فعل شيء ولا أستطيع التحرك، إن الوطن أمامي ولكنني لا أستطيع الوصول إليه، يا إلهي أنني أخطأت في حقه كثيرا وها أنا الآن أدفع ثمن أخطائي.

الفصل الحادي والعشرون

"نهاية كل شيء"

أظن أنها نهاية كل شيء وبأنني خذلت وطني وخذلت نفسي، وخذلت جدي الذي كان يثق بي ويثق بقدرتي على فعلها، ولكني الآن لست سوى فاشل ضعيف جالس على كرسي مربوط به بلا أي قيمة ولا أي حيلة، من ثم أغلقت عيني قليلا لأتذكر كل شيء مررت به هنا وأشعر بكل شيء، فلعل هذه اللحظة من آخر اللحظات لي هنا في هذا المكان وهذا العالم.

وبينما أنا أتذكر المواقف الجميلة والبطولية التي قمت بها والتي سأفتخر بأنني فعلتها إلى آخر لحظة في حياتي، تحدث شخص فجأة وقال: أهذه النهاية يا جيمس؟ أستستسلم الآن؟.. ففتحت عيني لأرى من هذا، ويا إلهي إنه جدي هو من يكلمني ويتحدث إليَّ الآن إنه واقف أمامي بلحمه ودمه وأقسم بأن هذا ليس خيالا بل إنه حقيقة، وكان ينظر إليَّ بكل حرقة وألم وأسف على حالي وعلى ما وصلت إليه الآن، فنظرت إليه أنا أيضًا ولكني ابتسمت له ابتسامة اشتياق وحنين، إنني أشتاق إليه حقًّا وأتمنى لو أعانقة ولو لمرة واحدة فقط، ثم قلت له: ماذا تفعل هنا يا جدي؟ لا تتعب نفسك لقد خذلك حفيدك وخذل ثقتك به لذا أنا لا أستحق أن تأتي إلى هنا من أجلي وتتعب نفسك.

- لا يا جيمس أنني هنا لأجلك وسأظل دوما جانبك، وإنك تستحق كل هذه الثقة، أنت تعلم بأنني مررت بكل شيء مررت به أنت هنا لقد شاهدت كل شيء مثلك وعانيت وكما عانيت أنت ولكن الفرق الوحيد هو بأنني كنت ضعيفا ولم أتحمل ولم أستطع أن أكمل، إن قدمي التي ظللت أخبركم بأنها قطعت في الحادثة لا يا جيمس إنه لم يحدث، لقد قطعت هنا في هذا المكان ولكنني كنت أضعف من أن أتحمل ألم كهذا لذا طلبت من الوطن أن يعيدني لأنني لن أستطع فعلها ولقد أعادني الوطن حقًّا ولكنني عشت كل هذا الوقت بهذا الذنب وهذا الحمل الثقيل لقد خذلت وطني يا جيمس، لك أن تتخيل كم الألم الذي تحملته طوال هذه السنوات، وكم الليالي التي لم أستطع أن أنامها بسبب هذا الكابوس المرعب، لذلك لا تكرر ما فعلته أنا وتعيش بهذا الذنب للأبد وصدقني لن تستطيع أن تتحمله يا جيمس، لا تكن مثلي أنت تستحق أفضل من هذا بكثير، إنك قوي الإيمان وثقتك بالوطن ليس لها حدود.. ثم تركني وتوجه ناحية الجدار وعندما اقترب منه ولامسه نظر إليَّ وقال أنا الآن روح من أرواح هذا الوطن العظيم أنا الآن حجر من أحجاره وبالرغم من أنني خذلته واخترت الذهاب وتركه إلا أنه قدر خدمتي له طوال حياتي وضمني واحتضنني فإن الوطن لا ينسى أبدًا من تعب وضحي لأجله، لا تخذله يا جيمس "فإنه دائما حولك ودائما يحميك".. سأنتظرك

لذا عندما تأتيني أريد أن أراك روحا عظيمة ليس في عظمتها روح ولن تحقق هذا إلا بالتفاني في خدمته وفعل كل ما بوسعك لأجله، لذا كن واثقا من نفسك.

وفجأة أضاء جسده كله وأصبح ينير المكان بأكمله وكان يشع نورا جميلا، ثم اتحد جسده مع الجدار ليضيء الجدار بأكمله وليضيء الصحراء ومن فيها، فعرفت بأن هذا الضوء هو أرواح أبناء الوطن مجتمعة وتسكن هذا الجدار العظيم.

ثم اختفى تماما ولم أعد أراه لقد اختفى داخل هذا الضوء الشديد وأصبحوا شيئا واحدا.. لا بد وأن أنهي هذا الآن وأن أنضم إلى جدي داخل هذا الضوء وداخل الوطن، إن مكاني ليس هنا ليس على هذا الكرسي الأحمق، فبدأت بالنهوض ومقاومة الحبال بصعوبة كبيرة، وتوجهت ناحية الجدار وكانت مع كل خطوة أخطوها تشتد على الحبال وتمنعني من المواصلة والتقدم وكانت تؤلمني ألما شديدا لا يمكن لأحد تحمله، ولكنني وقتها لم أكن أشعر بأي شيء أو أفكر في أي شيء سوى الوصول إلى الجدار ولمسه واحتضانه بيدي لأنهي كل هذا، وعندما اقتربت منه ولامسته بيدي انقطعت كل الحبال وتركتني ولم يعد هناك إلا أنا والوطن فقط، وكان الجدار يشع نورا من بين أحجاره المتراصة كأن الذي يحمي الوطن والذي يثبت هذه الأحجار مكانها ويرصها رصا هكذا ويجعلها متكاتفة وقوية هي أرواح أبناء الوطن المخلصة الذين ضحوا لأجله، ثم شعرت بشعور غريب جدًّا ولكنه

جميل أيضًا، فنظرت إلى الجدار بعيني التي يملؤها بضوئه العظيم وقلت له: ها أنا هنا أيها الوطن فلتجعلني جزءا منك ومن روحك لأنال هذا الشرف العظيم.

ثم أغمضت عيني وحينها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسقط أرضًا من فوق الكرسي وجسدي يرتطم بالأرض بقوة وأمامي زعيم قبيلة الشمس الذي وضعني على هذا الكرسي وأدخلني هذا الاختبار الصعب من البداية.

- ما الذي حدث أيها الزعيم؟
- تهانينا يا جيمس لقد نجحت في آخر اختبار، والآن هذا الحجر لك فلتأخذه ولتذهب إلى قومك عند الجدار ولكن لتسرع لأن هناك عاصفة رملية كبيرة آتية بضخامة الجدار تماما متوجهة نحو الجدار، وإن لامسته بقوتها هذه سيسقط الجدار أرضًا ولن ينهض مجددا أبدًا وسنسقط كلنا معه.. فذهبت لكي آخذ الحجر وكان يضيء بشدة فالبكاد أستطيع النظر إليه، فوضعته في قماشة بيضاء اللون واحتضنته وانطلقت خارجا الخيمة متوجها إلى الجدار.

امتطيت أسرع الأحصنة لكي ألحق بهم قبل أن تبيدهم العاصفة تماما وتبيد كل شيء قد بنيته أو قد تعبت في بنائه، إنني الآن أشق الصحراء بحصاني هذا بلا توقف ولكنني تأخرت قليلا فأنا أرى العاصفة هناك أمامي

تسبقني وتتوجه ناحية الجدار بقوة، فتوقفت بالحصان لكي أفكر في ما سأفعله الآن ولكنني أدركت بأنه لا يوجد وقت للإنتظار والتفكير، لقد انتهى وقت كل شيء فانطلقت في اتجاه العاصفة لا أدري ما أفعله ولكن لا يوجد شيء آخر أفعله سوى هذا.

يقفون عند الجدار بصحبة جوناثن خائفين جدًّا مرتعبين من هذا المنظر المخيف، تخيل لو أن الموت قادما إليك وأنت تراه أمام عينك وتعرف بأنها نهايتك ماذا كنت لتفعل حينها سوى البكاء والخوف والدعاء.

لقد كنت أسمع صوت دقات قلوبهم يرج الصحراء كصوت طبول الحرب تماما إنه موقف مخيف أتمنى أن لا أرى نفسي فيه مجددا.

يمسكون أيدي بعضهم البعض ويتحلون بالثقة والإيمان ومتيقنين بأنهم ميتون لا محالة ولا يوجد هناك أي أمل، ولكن إن كانت هذه نهايتهم فلتكن نهاية مشرفة نهاية عظيمة، يكفي أنهم سيموتوا وخلفهم جدار الوطن العظيم.

وفجأة رأوا نورا يضيء العاصفة من الداخل وكأن هناك شيئا داخلها، فدققوا النظر مجددا فوجدوني أمتطي حصاني ويدي مرفوعة وبها الحجر الناقص الذي سيصلح كل شيء والذي سيحمي الجدار من السقوط وسيحمينا معه.

لقد كان الوطن هو من يحركني وهو من يعطيني هذه السرعة وهذه القوة لكي أقاوم هذه العاصفة المميتة التي كانت تفتك بأي شيء أمامها ولكنها لم تستطع أن تفتك بي أو حتى تمسني لقد عبرت من خلالها بكل سهولة ويسر..

سبقت العاصفة ووصلت إلى الجدار بأمان، فقفزت بسرعة من فوق حصاني واتجهت إلى مكان الحجر الناقص ووضحت الحجر الذي معي داخله بسرعة، ولكن لم يحدث أي شيء ولم يتغير أي شيء، فتوقفت مكاني بلا حراك لا أدري ما أفعل وكيف أتصرف.

ولكن لا يسعني فعل شيء سوى الانتظار والتحلي بالثقة، ولكن وبعد ثوانٍ معدودة سقطت العاصفة الرملية أرضًا وهدأت تماما وأصبح الهواء نقيا وصافيا كأن لم يحدث شيء على الإطلاق، ففرح أهل القبيلة وهللوا وبدأوا يركضون هنا وهناك من شدة الفرح، ولكن وكما تعلموا بأن هذا المكان لا يمكن أبدًا أن تكتمل فيه الفرحة.

شعرنا فجأة بأن الأرض تهتز من تحتنا وكأن هناك زلزال شديد يشق الأرض من تحتنا ثم بدأ الجدار يسقط كأن ستار كبير جدًّا كان يحجب الرؤية عن كل شيء وفجأة سقط كان يسقط في الرمال ويغوص أسفلها وكأن الرمال هي من تسحبه وتحتضنه ولكنها لم تكن تسحب الجدار وحده

بل كانت تسحب أي شخص وأي كائن حي في هذه الصحراء ما عدا أنا وجوناثن..

وكان المنظر عجيبًا جدًّا ومخيف جدًّا أيضًا فكان الكل يصرخ من حولك ويتساقطون أرضًا والرمال تسحبهم ناحية الجدار ليسقطوا معه، ولكن أنا وجوناثن كنا ثابتين في أماكننا ولا نتحرك أو نسقط كالآخرين كانت الرمال تتحرك من حولنا ومن فوق أقدامنا ولكنها تأبى أن تسحبنا أو حتى تحركنا.. ثم حاول جوناثن مساعدة أي شخص أو الإمساك به ومنعه من السقوط مع الجدار ولكنني أمرته بالتوقف عن ذلك لأنني أيقنت حينها عندما شاهدت كل هذا علمت بأنها النهاية، نهاية الطريق ونهاية كل شيء.

الفصل الثاني والعشرون

"لقد فهمت"

كل شيء انتهى وكل شيء ذهب، كل الأشخاص ماتت ودفنت أسفل التراب ولم يعد هناك غيري أنا وجوناثن، ولكن الجدار ما زال يسقط في الرمال إلى الآن لم ينتهِ بعد، إنه حقًّا جدار عظيم وكبير جدًّا لا أعلم كيف ابتلعته هذه الصحراء داخلها، ولكنه كلما قل ارتفاعه كنا نرى السماء وزرقتها وجمالها وكنا نرى الشمس التي لم نكن نراها كثيرا بسبب ارتفاعه الكبير والذي كان يمنعنا عن رؤيتها في وقت الغروب الجميل.

انتظرنا قليلا لا نستطيع فهم أي شيء ولا نعلم ما يمكننا فعله لذا انتظرنا في مكاننا لنرى ما الذي سيحدث، وبعد أن انتهى سقوط الجدار أخيرًا وجدنا باب خلفه، كان لونه أسود قديم ومليء بالرمال والغبار ولكننا أدركنا حينها بأنه طريق الخروج من هنا وبأننا نجحنا في الاختبار ووصلنا إلى النهاية معا.

ولكن فجأة سقط جوناثن أرضًا بلا أي سبب أو مقدمات، فأمسكته بكل خوف وقلق لأعرف ما به وما الذي حدث له، ولكنني سمعت صوتا قادما من أمامي يخبرني بأن أتركه،

فنظرت فرأيت رجل عجوز ذو لحية بيضاء كثيفة جدًّا ومنمقة بطريقة رائعة في حياتي لم أرَ في جمالها وروعتها، ولكن شكله أيضًا كان يوحي بالطمأنينة وعدم الخوف، فقلت له ما الذي حدث له؟ هل هو بخير؟

- نعم لا تقلق إنه غائب عن الوعي لفترة لا أكثر، فأنا أريد أن نتمشى بمفردنا فهناك كلام كثير أود إخبارك به.
- ومن أنت يا ترى أيها الرجل العجوز؟
- أنا من جعلك تفعل كل هذا لأجله، أنا من تألمت وجرحت وضربت من أجله، أنا من كنت تنام في أحضانه بلا خوف وتطلب منه المساعدة فيساعدك، أنا الذي وضعتك في كل هذا وهيأت كل هذا من أجلك لكي أعرف ما تستطع أن تفعله لأجلي، ولقد نجحت وأثبت لي بأنك تستطيع حمايتي وتستطيع أن تكون ابنا من أبنائي المخلصين.
- يا إلهي أأنت هو الوطن حقًّا؟
- نعم يا جوناثن أنا هو الوطن، والآن أنهض لتتمشى معي قليلا.

فوضعت رأس جوناثن على قطعة قماش كانت على الأرض، وذهبت مع هذا العجوز الذي يخبرني بأنه هو الوطن وهو من كان يفعل كل هذا.

بدأنا نتمشى أنا وهو ولكنني بدأت في سؤاله بكل لهفة وسرعة وقلت له إن كنت حقًّا أنت الوطن فأنا أريد أن أفهم كل شيء حدث لي هنا الآن وكل ما تعرضت له من اختبارات ومِحن شديدة أريد أن أفهمها جيدا.

- ولكن لو أنك لم تفهما كيف عبرت من كل هذا ووصلت إلى هنا الآن؟
- نعم إنني أفهم بعضا منها وأيقنت الكثير خلال رحلتي وبجانب ثقتي بك وإيماني عبرت ونجحت وها أنا الآن واقف أمامك وأتحدث معك.
- حسنا سأعلمك ما لم تفهمه ولكن استمع جيدا لما ساقوله وكن منصتا، لقد وضعت هذا الاختبار وهيأت هذا المكان لكي أعلم من هو الجدير بثقتي ومن هو مؤمن بي حقًّا لذا أي شيء كان يحدث غريبا في هذا المكان أو تظن بأنه مرتب أو مهيأ، نعم لقد كان موضوعًا هناك لأجلك لكي يرشدك ولكي ينجيك في بعض الأحيان، لذا اعلم بأن كل شيء شاهدته ومررت به هناك ما هو إلا خطة موضوعة لك بإحكام لتمر من خلالها وتنفذ كل شيء فيها، في البداية يا جيمس أتيت إلى هذا العالم فاقد للذاكرة تماما لا تتذكر أي شيء وكان هناك سبب لهذا بالتأكيد فأنا كنت أريد أن أتأكد بأن شعورك تجاه الوطن وحبك له وإيمانك من داخلك حقًّا، أم أن جدك كان يؤثر عليك لا أكثر وبأنك لم تأتِ إلى هذا المكان فقط من باب التسلية ومن باب التجربة، ولكنك أثبت حقًّا بأن شعورك تجاهه كان حقيقا وكان ينبع من داخلك وكان هو غايتك الوحيدة، ومن ثم تزوجت إليزابيث ولقد سهلت لك كل شيء لأمتعك قليلا

قبل أن تذهب في رحلتك لأنك لم تكن لترتاح أبدًا بعد ذلك، ومن ثم بدأت الرحلة وبدأت أنا في اختبارك ومراقبتك، وكان أول اختبار لك هو القدرة على التحمل والتحلي بالأمل دائما وعدم الاستسلام، لقد كنت أختبركم وأعلمكم في نفس الوقت لهذا أخفيت المياه والطعام عنكم وعذبتكم لأيام لأضع فيكم القوة والجلد والتحمل ولأري أيضًا إن كنتم ستستسلمون أم لا ولكنكم بحثتم ولم تيأسوا، لهذ أظهرت لكم البئر فجأة لكي تشربوا ولكي تنجوا وكان مهيئًا لكم تماما لقد كان ضخما جدًّا ومن الداخل به أحجار لتساعدكم على الصعود، وكان حقًّا هدية جميلة بعد هذا الكم من العذاب والألم، وكان كل شيء تلامسوه داخل هذا المكان كنت أضع فيه جزء من روحي لذلك شعرت بي أنت وجوناثن عندما لامستم البئر ولامستم ماءه وشعرتم بدفئه وطمأنينته وأيضًا عندما لامستم أكبر وأعظم شيئا هنا إنه الجدار العظيم الذي كنت أضع جزءا كبيرا من روحي داخله لأكون بجانبكم دائما ولكي أشعركم بالأمان والراحة، لذلك كنتم تجالسوني ليلا لأدفئكم بحرارتي وأدفئكم بروحي التي كانت فرحة باحتضانكم، وعندما أنقذتك من الذئب يا جيمس وأخفيتك عن ناظريه وأبعدته عنك لقد كنت أريد أن أخبرك وأعلمك بأنك ما دمت معي وفي أحضاني وقريبا مني لا تخف أبدًا من أي شيء فأنا مأوى لك دائما وحماية لك من كل شيء وأي شيء، وعندما أظهرت

لكم الجدار الذهبي على إنه موطن آخر لكم أكثر جمالا وأكثر لمعانا لكي أجذبكم نحوه وأذبذب شعوركم نحو الجدار الآخر ونحو موطنكم الأصلي، لقد كنت أريد أن أرى هل حقًّا ستتركون وطنكم لأنه قديم أو شكله يوحي بالضعف لأجل موطن آخر أكثر جمالا وأكثر قوة؟ لكن أنت وجوناثن لم تفعلا هذا فحبكم وإيمانكم بي قد تغلغل داخلكم وأصبح جزء منكم وأدركتم بأن الأوطان ليست بمن الأقوى أو بمن الأجمل بل بمن تتعلق به روحكم ومن هو ولدت على أرضه وأصبحتم جزءًا منه وهو أصبح جزءًا منكم ولقد سعدت كثيرا لأنكم أدركتم هذا، ولقد كنت أمدكم بالقوة والطاقه طوال هذه الأيام وكانت مياه البئر أيضًا تساعدكم على هذا ولولا مساعدتي لكم لكنتم هالكين الآن لا محاله، وعندما وضعت لكم النخلة والفأس لقد كنت أريد أن أرى حقًّا مقدار حبي وثقتي داخلكم وأيكم وصل إلى مرحلة الإيمان التام بي ولقد كنت أنت أكثرهم يا جيمس وأنت من وصل إلى هذه المرحلة أولًا، وعندما أتى الفرسان إليكم وكادوا على وشك قتلكم ولكن أنت طلبت مساعدتي وناجيتني لذلك أرسلت لكم المساعدة وأبعدتهم عنكم وكنت أريد بهذا أن أمهدكم لأشياء كثيرة قادمة وأخبركم بأنكم لستم بمفردكم من الآن وصاعدا وأصبح لكم عدو يريد قتلكم، وعندما أصبت في كتفك والرمح لم يلمسك حتى كنت أريدك أن تدرك بأن ما يصيب

الوطن يصيب أبنائه أيضًا مهما كان الضرر والألم وقد أصابك ما أصابني، وعندما ارتميت في أحضاني ليلا وأنت مصاب وضعيف وفاقد للأمل والقوة وكل شيء لذلك لم أتركك لأنك بمثابة ابن لي وجزء مني ولا يمكنني أن أتركك هكذا أبدًا مهما حدث فهذا من واجبي ولهذا خلقت لأمد أبنائي دائما بالقوة والثقة، لذا شفيتك وأمددتك بالقوة والإيمان سريعا لكي تعاود فعل ما أنت هنا لأجله، وأيضًا لكي أعلمك بأنني الوحيد الذي يمكنه مساعدتك هنا حقًّا وليس هناك أحد غيري، وعندما غمرت الصحراء بالمياه وكان أمل العيش بالنسبة لكم ضعيفا جدًّا وكنت مستعدون للموت في أي لحظة ولكنني أظهرت لكم الأمل ولكنه كان أمل مخادع لكي أعرف من منكم سيتخلى عني ومن ستهتز ثقته بي في قدرتي على مساعدتكم ونجاتكم فأنا وطنكم الوحيد ويجب عليكم الثقة بأنني سأظل جانبكم في أي وقت وأي مكان وأنا نجاتكم الوحيدة من الموت ولكن السفينة أفقدت بصيرة شخص منكم وأعمته عن الحقيقة وظن بأن السفينة آمنة أكثر مني وأكثر قوة ولكنه لم يكن يعلم بأنه إذا تمسك بي ولم يتركي لكنت أنقذته ولكنت أعطيته الأمان ولكنه أخطأ وكان يجب أن يتحمل عاقبة خطئه، وأنت كنت أول من وثق بي ولم يتركني مع أن الفرصة كانت متاحة لك ولكنك لم تفعل، احتضنتك داخلي وأمسكت يدك بأحجاري وأنقذتك

فقط لكي أدعك تشعر بي وتشعر بأنني هنا لأجلك وسأظل دوما هنا بجانبك أن احتجتني في أي وقت، وعندما ذهبت البيت لحماية العجوز والفتيات كنت أريد أن أرى إن كنت ستحمي أبناء وطنك وتساعدهم حتى لو تكلف الأمر حياتك أم أنك ستتخلى عنهم وتتركهم، ولكنك نجحت وأدركت سريعا بأنك يجب أن تظل بجانبهم، وعندما زرعت مايكا الزهور في الأرض حينها أردت أن أريك جمالي الذي لا يمكن وصفه أو أن تراه كله، ولكنني أريتك بعضا منه فقط ولقد رأيت في عينيك الدهشة والسعادة حينها عرفت وتأكدت بأنك ستصبح عظيما جدًّا، من ثم أنقذتهم وذهبت في طريقك لكي تكمل باقي الاختبارات، من ثم أتى اختبار المتاهة وكان من أهم الاختبارات بالنسبة لي لقد وضعتك داخل متاهة ووضعت الجدار أمامها ولكي تصل إليَّ يجب أن تمر من خلالها ولوحدك دون مساعدة أي شخص، ولكنك في البداية استعنت بأناس لا تعرفها لكي يوصلوك إليَّ ولكنهم غدروا بك وأصابوك، حينها أدركت أنت أنك يجب إلا تثق بأي أحد سوى نفسك لذلك أعطيت الإذن لقلبك أن يرشدك إليَّ دون مساعدة أي شخص أنت وحدك يا جيمس من تستطيع الوصول إليَّ، وبعدها مباشرة أدخلتك داخل حرب مميتة لا تعرفها وليس لك علاقة بها لكي أعرف ما الذي ستفعله،

من ثم أُطلقت الأحجار عليَّ من أناس لا تعرفها وأنت فعلت الصواب وقاتلتهم وتحليت بالشجاعة، من ثم ظهر أحب الناس إلى قلبك وحاول إغوائك وأخذك معه والهروب بعيدا وأن تترك وطنك محتاجًا إليك، وبالفعل أنت تأثرت قليلا لأن الاختيار كان صعبا جدًّا وهو إما أن تختار أحب الناس إلى قلبك ومن تخاف عليهم من الموت وإما أن تقف بجانب وطنك وتضحي بكل شيء وأي شيء، وأنت اخترت أن تقف بجانبي وأن تتركه، ولكني جعلت الاختبار أكثر شدة وحولت جدك ضدك وضدي وبأنه يريد تدميري، وأنت قتلته بلا تردد لأنه أصبح عدوا لي ومن يصبح عدوا للوطن ومهما كانت علاقتك به وحبك الشديد له يا جيمس يجب عليك حينها أن تترك أي شيء خلفك وتمحي جميع الذكريات وتقاتله لأنه أصبح عدوك وليس حبيبك، من ثم عاد إليك جوناثن بعد اختفائه وحذرك بأن هناك جيشا قادما نحوك لذا سهلت لك الأمور وأعطيتك جيشا كاملا من المظلومين المأخوذ أراضيهم والمستعدين للموت من أجل استردادها، من ثم أعطيتك الذئاب يا قائد الذئاب ولكن طبعا كل هذا ما كان ليحدث لولا ذكائك وقدرتك على استيعاب الأمور وقبل أي شيء هو إيمانك بالوطن وثقتك به اللامتناهية، من ثم انتصرت في الحرب وعادت الأمور إلى مجراها وإلى طبيعتها.

ولكنني كان يجب أن أختبرك آخر اختبار، لذا قابلت العجوز وأخبرك عن الحجر المفقود وحينها بدأت رحلتك الأخيرة، وذهبت إلى قبيلة الشمس واحتجزوك لكي تشارك معهم في القتال، وحينها لقد حزنت كثيرا يا جيمس

لأن اختيارك كان خطأ وقاتلت معهم وقتلت الكثير والكثير من أبناء وطنك نعم إنك عدت إلى صوابك في النهاية ولكنك ارتكبت خطأ لا يغفر ولكن أهم شيء وما جعلني أسامحك هو أنك عدت إلى رشدك وأصلحت الأمور، من ثم أعطيتك الحكم والكرسي والسلطة تحت يدك، ولكنك أخطأت أيضًا وأعماك الكرسي عن كل شيء وغطى على قلبك وطرد منه حبك للوطن، ومن ثم حكمت على العجوز بالموت وأنهيت حياته بكل بساطة لأنه أزعجك وأخبرك الحقيقة.

ولكنك أيضًا عدت إلى رشدك في النهاية واستوعبت كل شيء يدور حولك وأصلحته وعدت إلى هنا وها أنت الآن تقف أمامي بطل وابن من أبنائي المخلصيين وأنا سعيد بك كثيرا لأنك أثبت لي حقًّا بأنك تستحق العيش على أرضي وأثبت لي حقًّا كم الحب الذي تكنه لي وكم الإيمان والثقه، ويجب أن تعلم جيدا وهي المفاجأة التي كنت أحملها لك وأحملها لأي شخص يصل إلى النهاية، بأن هذا ليس اختبارا بل إنه مكان للتعلم مكان لكي تتعلم به كيف تكون وطنيا حقًّا بكل معنى الكلمه ولكن لا أحد ينال هذا الشرف العظيم ولكنك نلته لأنك كنت تتحلى بالصفات المناسبة وكنت تتحلى بحب الوطن من صغرك، وآخر نصيحة سأنصحها لك يا جيمس، أرجوك لا تتسرع أبدًا في اتخاذ قراراتك، واعلم بأنني دائما حولك ودائما أحميك وأنت دائما في قلبي ودرع لي لكي يحميني من أي شيء والآن انطلق إلى هذا الباب لتخرج منه ولينتهي كل شيء، ولكنني سأتركك بعضا من الوقت لكي ترتاح وتنسى ما

مررت به من ألم ولتكن هدية مني لك فإنك تستحق هذا، واعلم بأننا دائما في اختبار فالاختبار لا ينتهي أبدًا ما دمت حيا.

ثم ابتسم لي وأشار إلى الباب فنظرت إليه ثم عاودت النظر مجددا إلى هذا العجوز ولكنني لم أجده، فابتسمت ونظرت لأعلى لأرى السماء وجمالها ثم نظرت إلى الشمس وهي تغرب لقد كان المنظر جميلا جدًّا ورائعا من المستحيل أن أنساه إنه منظر الانتصار بعد حرب طويلة جدًّا كنت أظن حقًّا بأنها لن تنتهي.

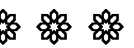

الفصل الثالث والعشرون

"أيامي الأخيرة"

أفاق جوناثن من إغمائه هذا، فذهبت إليه لأساعده على النهوض، ثم نظر إليَّ وقال ماذا حدث هل انتهى كل شيء هل سنعود أخيرًا إلى الوطن؟

- نعم يا جوناثن سنعود، وسترى أولادك أخيرًا، ولكننا لن نعود إلى الوطن لأننا لم نغادره من البداية لقد كان معنا طوال الوقت.

من ثم توجهنا ناحية الباب لكي نخرج ونودع هذا المكان الجميل الرائع، نعم كان مليء بالعذاب والألم ولم نرتح فيه يوما ولكن بالنسبة لي كان من أسعد أوقاتي التي قضيتها في حياتي.

وفي الجانب الآخر من الباب كان يقف الساحر ينتظرنا وكان يملؤه اليأس والإحباط، لقد أوشكت الشمس على الاختفاء ونحن إلى الآن لم نظهر، ولا أستطيع أن أعد لكم كم مرة وقف الساحر هذه الوقفة ينتظر العائدين ولكنهم لم يخرجوا ولم يعودوا وعاد بخيبة أمل موجعة كالتي يشعر بها الآن.

امتطى الساحر حصانه مستعدًّا للذهاب وكان ينظر إلى الباب بكل حزن وضعف آخر نظرة قبل أن يذهب عسى أن يحدث أي شيء يغير كل شيء متوقع، وفجأة فتح الباب وخرجت منه أنا وجاناثن وكانت ردة فعل الساحر

غير متوقعة لقد صعق تماما مما رآه ونزل من على حصانه وركض إلينا بسرعة شديدة لا يستطيع أن يركضها أي شخص في مثل سنه ولكن الفرحة الشديدة هذه أعطته القوة وأنسته كل شيء وأعادته إلى مرحلة الشباب مجددا، ومن ثم عانقنا بشدة وقال حمدا لله على عودتكما سالمين أنتم لا تتخيلان كم الفرحة التي أشعر بها الآن أو الذي سيشعر بها أهل القبيلة ولكن الغريب أنكما خرجتما أنتما الاثنين ولم يخرج واحد فقط، فقلت له:

- لا يهم الآن من عاد ومن لم يعد أيها الساحر المهم أننا عدنا وحققنا حلمنا وحلم القبيلة الذي لم يتحقق إلا الآن.
- نعم صحيح المهم أنكما عدتما فقط، والآن هيا لنذهب فأهل القبيلة ينتظرونكما بكل شغف ولهفة ولا نريد أن نتأخر عليهم أكثر.

امتطينا الأحصنة وذهبنا مسرعين لكي نعود إلى القبيلة وبسرعة لأن أهل القبيلة سيظلون خارج منازلهم طوال الليل ينتظرون ظهور البطل وظهور الزعيم الجديد لذلك لا نريد التأخر عليهم والذهاب بأقصي سرعة وأيضًا لكي أرى إليزابيث التي اشتقت إليها حقًّا ولم أعد احتمل أن أظل بعيدا عنها أكثر من ذلك.

في الجانب الآخر من القبيلة تقف الأم بين الجموع المحتشدة وفي يدها ابنتها الصغيرة تنتظران عودة البطل عودة الزعيم الجديد مثل كل عام وهم على أمل أن يأتي هذه المرة.. تنظر الفتاة الصغيرة إلى الصحراء إلى أن ينتهي

بها حدود نظرها تأمل فقط أن تلمح بعينها ظل الزعيم الجديد، وينمو بداخلها الأمل ويزداد في كل ثانية وفي داخلهم كلهم أيضًا سواء كانوا فقراء أم يجتاحهم المرض أم على وشك الموت فالأمل هو من يصمد أمام هذه الأشياء كلها ويقضي عليها ويجعلك تعيش رغم مصائب الحياة العديدة وآلامها.. إن الليل اشتد على الناس وهم ينتظروا لقد تأخرنا كثيرا، وقد بدأ اليأس ينشتر بينهم ويسيطر عليهم.

النيران ما زالت مشتعلة لاستقبال الأبطال وما زالوا واقفين منتظرين بكل أمل ولكن فجأة خرج رجل بينهم وقال بصوت عالٍ ليسمعه الجميع "لا فائدة من الانتظار إنهم لن يعودا أبدًا أن الساحر دائما يعود بمفردة لقد كُتب علينا أن نعيش هكذا للأبد، لا فائدة من الانتظار والأمل عودوا إلى منازلكم".. فبدأ الناس بالرحيل لكن الفتاة الصغيرة أبت أن تذهب وأرادت الانتظار لأنها أكثرهم أملًا وإيمانا فتركتها أمها وعندما تيأس ستعود للمنزل بمفردها..

ظلت الفتاة تراقب الصحراء متحلية بالأمل والصبر وفجأة وبلا أي مقدمات ظهروا من بعيد ومن الواضح جدًّا بأن الساحر ليس بمفرده هذه المرة فصرخت الفتاة صراخا شديدا وكانت تقول "لقد أتوا لقد أتوا" لقد عاد الزعيم فالتفت الجميع ورأوهم وركضوا نحوهم بسرعة غير مصدقين أعينهم وما يروه الآن.

التفوا حولنا وبدأوا بالصياح والتهليل ثم حملوني أنا وجوناثن على أكتافهم ركضا إلى القبيلة فرحين بعودة الزعيم الجديد سواء أكان أنا أم جوناثن.

أرى جوادا أبيض يمشي وسط الناس أستطيع شم رائحته والشعور بخصلات شعرة تتطاير على وجهي لتداعب فمي وأنفي فأحاول الابتعاد عن الناس لكي أستطيع أن أراه بوضوح وبعد أن انتهى الزحام والصياح وتوقفت أمامه مباشرة..

وكان يقف بكل تألق وجمال كالنجوم ويبتسم لي وتدمع عيناه وينظر إليَّ بكل عشق واشتياق فبدأت أخطو إليه وكان يركض إليَّ فبدأت أركض وكانت روحه تطاير مع الريح وتسابقه إليَّ، ثم قفز في أحضاني وعانقته بقوة وقبلت شفتاة أخيرًا، وأمسكت شعره ولففته حول أصابعي، شعره هذا الذي ظننت بأنني لن ألمسه مجددا أبدًا، هذا الجواد اسمه إليزابيث وهي حبيبتي وسر سعادتي في هذا العالم وكان ينتظرني بابتسامته وروحة الجميلة التي أعادت إليَّ الحياة مجددا، إنني بدونه افتقر إلى معنى السعادة الحقيقة.

وبعد أن كنت مستعدا للذهاب إلى البيت مع جميلتي وأميرتي أجبرني الساحر أن أتركها وأذهب إلى المنصة فيجب أن يتوج زعيم القبيلة الجديد الليلة والآن فالناس انتظرت هذه اللحظة لعشرات السنين ولن تنتظر أكثر من ذلك.. فوافقته وذهبنا أنا وجوناثن إلى المنصة لتتويج الزعيم الجديد.

صعد زعيم القبيلة ونظر إليَّ نظرة غريبة لم أفهمها كأنه غير سعيد بعودتي وبما حدث الآن وبدأ يخطب في الناس ويقول: لقد انتظرنا هذه اللحظة لسنوات وحان الآن تتويج الزعيم الجديد وسوف نختار بينهما.. وقبل أن يكمل كلامه قاطعته بجملة "أريد أن أقول شيئا أيها الزعيم"، فسمح لي فنظرت إلى الناس وقلت:

أنا أيضًا انتظرت هذه اللحظة بفارغ الصبر ومن وسنوات عديدة وأنا أحلم بها، ليست اللحظة التي أصبح فيها زعيمًا أو اللحظة التي أعود فيها من هناك قائدا لكم، لا هذه لم تكن أمنيتي الحقيقة على الإطلاق بل كانت أن أذهب إلى هناك وأثبت للوطن بأني أستحق العيش على أرضه بفعل أي شيء حتى ولو التضحية بنفسي وبالفعل ذهبت وفعلت كل ما في وسعي وها أنا الآن بينكم سليما معافا ويكفيني أن أكون واحدا من أبطال هذا الوطن وابن من ابنائه، أما زعميكم الحقيقي فهو جوناثن إنه يستحق ذلك، لقد قاوم وتحمل الألم الشديد وكان زعيما وقائدا حقيقا، وبما أنني كنت معه هناك وواجهنا كل شيء سويًّا وتعتبروني بطلا وقائدا دعوني أقدم لكم زعيم القبيلة الجديد جوناثن.

فبدأوا بالصياح الشديد، والفرح عم المكان فجأة، ونظر إليَّ جوناثن لا يفهم لم فعلت ذلك فهو يعلم جيدا من هو الزعيم الحقيقي ومن يستحق هذا المنصب جيدا، ولكنني نظرت إليه وعبرت له بوجهي بأن يهدأ فأنا من أريد هذا وأنت حقًّا تستحق هذا.

بدأوا بسكب النبيذ والرقص على ضوء القمر لقد بدأوا بالاحتفال لكني لم أستطع الانتظار والاحتفال معهم كثيرا فنزلت من على المنصة وأمسكت يد إليزابيث ذاهبا لكوخنا الصغير فأوقفنا الزعيم وقال: إلى أين أنت ذاهب يا جيمس ألن تحتفل معناه أم ماذا.

- معذرة أيها الزعيم ولكن عندي طريقتي الخاصة في الاحتفال.

فابتسم وانطلقنا إلى كوخنا لا أستطيع الانتظار لكي أختبئ في أحضان إليزابيث لقد اشتقت إليها كثيرا.

دخلت معها إلى الكوخ وبدأت في تقبيلها بشدة ثم تذكرت بأن رائحتي لا تحتمل وبأن شكلي وجسمي متسخان جدًّا، فتوقفت عن تقبيلها وطلبت منها تنظيفي فأنا متعب جدًّا وذراعاي يؤلماني بشدة، أتت بحوض معدني كبير ووضعته في منتصف الكوخ وقالت فلتنزع ملابسك كلها وتجلس في الداخل، ففعلت ما أمرتني به وجلست وأنا عارٍ ومتعب جدًّا وكان جسدي مليء بالجروح والخدوش والكدمات وكان متسخ إلى أقصى حد ممكن، من ثم أتت هذه المرة بحوض آخر لكنه صغير بعض الشيء وبه مياه كثيرة ووضعته بجانبي ثم أتت بكرسي وجلست عليه خارج الحوض وبدأت في وضع الماء على جسدي لكي أشعر أنا أخيرًا بالراحة والسعادة اللا نهائية.. تمسك بخرقة صغيرة ثم تبلها بالماء الدافيء وتضعها على جسدي لتنظفني جيدا ولكنني أشعر بأنها غير مرتاحة أو إنها غير متمكنة بعض الشيء، ولكني لا أشغل

تفكيري كثيرا فأنا أسند رأسي على رجلها مغمض العينين لا أدرك شيئا وأدعها تفعل ما تريد.

وفجأة وبلا أية مقدمات وقفت وخلعت ملابسها كلها وشاركتني نفس الحوض الصغير الذي لا يساع إلا شخص واحد فقط ولكنه الآن يحملنا نحن الاثنين عاريان تماما ولا أدري كيف، ولكن ما يهمني الآن أنها مرتاحة هكذا وتستطيع تنظيفي وأيضًا لكي أرى هذا الجسد الجميل الذي اشتاقت عيناي لرؤيته، نظرت إليَّ وقالت الآن أستطيع تنظيفك جيدا، ثم بدأت في تنظيفي وهي تنظر إليَّ بكل لهفة وشغف واشتياق كأنني ما زلت هناك ولم أعد أو أنها لا تصدق نفسها بأنها أمامي الآن، وفجأة لم أعد أحتمل هذا المنظر فأنقضضت عليها وأخذتها في أحضاني وبدأت أقبلها بشدة وأقبل كل مكان وقطعة في هذا الجسد الغير موجود والتي لا تملكه أي امرآه سوى إليزابيث حبيبتي وزوجتي، ثم حملتها بكل قوة ذاهبا إلى سريرنا لنكمل عليه باقي ليلتنا والتي أعتقد بأنها ستكون ليلة طويلة وجميلة جدًّا لنا نحن الاثنين.

يا إلهي هل أنني أحلم الآن، أم أنني مت وهذه الجنة التي بين يدي لا أستطيع وصف شعوري وأنا نائم في أحضانها، إنني لا أريد أي شيء في الدنيا ولا أحتاج شيئا سوى أن نكون سويًّا هكذا يا إلهي لا تحرمني من هذه النعمة الجميلة التي أنعمت بها على، لقد علمت الآن نعمة النساء جيدا لقد

جعلتني أنسى تعبي وألمي كأنها خدرت أعصابي وهدأتها وسيطرت على قلبي وعقلي تماما لتكون هي ملكتي وأنا عبدا وملكا لها ولجمالها.

استيقظت في منتصف الليل عطشا جدًّا فلم أجد بجانبي إليزابيث، فنهضت لكي أشرب وهي بالتأكيد آتية الآن لابد وأنها تقضي حاجتها أو تشرب أو تفعل أي شيء، فشربت الماء وعدت وجلست على السرير قليلا أنتظرها لكنها لم تأتِ، فبدأت أنادي عليها متحير أين تكون قد ذهبت فوقفت عندما سمعت صوتا قادما من ناحية غرفة صغيرة بها ملابس إليزابيث كلها فرأيتها قادمة نحوي بكل جمال ونعومة وكانت ترتدي شيئا عجيبا لا أستطيع وصفه حقًّا ولكنه أثارني جدًّا، وفجأة انقضت عليَّ لتسقطني على السرير وتقول لقد اشتقت إليك كثيرا إنني أصبحت اشتاق إليك حتى وأنت معي ثم بدأت تقبلني بشدة وتعصر شفتاي عصرا من شدة اشتياقها لي وأمضينا هذه الليلة سويًّا تتلاصق أجسادنا ببعضها لا نريد ترك بعضنا أبدًا.

الفصل الرابع والعشرون

"النهاية"

إن الأيام تمر بسرعة كبيرة ولكنها حقًا من أسعد لحظات حياتي، معي إليزابيث التي أعشقها وحولي أناس يحبونني ويحترمونني ويعتبروني قائدا ورمزا لهم وقدوة، إن كل شيء حلمت به يوما حققته الآن بل وأعيش داخله وأستمتع بكل لحظة فيه.. جوناثن أصبح هو الزعيم وكان حقًا زعيمًا رائعًا جدًا، وكان أحيانا يسألني في أشياء كثيرة وأمور يفكر بها وكنت أساعده حقًا ولا أبخل عليه بأي شيء، وأصبحت هذه القبيلة الآن من أجمل وأقوى القبائل لقد أصبحت آمنة أكثر وتوسعت جدًا وأصبح كل بيت داخلها لا يخلو من الطعام والشراب لقد تحقق كل شيء كان يحلموا به وأصبحوا في سعادة دائمة وراحة وأمان.

مغمض العينين مستلقٍ على سريري وفي أحضاني أجمل امرأه في هذا الكون فتطايرت بعض من خصلات شعرها على وجهي ففتحت عيني وفركت أنفي ونظرت إليها فوجدتها نائمة فقبلتها على جبينها وضممتها إلى بقوة، فاستيقظت وفتحت عيناها الجميلتان ونظرت إليَّ وقالت إنني سأشتاق إليك حقًا يا حبيبي وأنت أيضًا ستشتاق إليَّ ثم قبلتني قبلة كانت جميلة حقًا ودافئة، ومن ثم نهضت وتوجهت ناحية غرفتها وتركتني ولكنني كنت متعجبا

حقًّا من كلامها ولمَ تخبرني بذلك ولم الآن بالتحديد؟.. نهضت ووقفت عند الشباك لأنظر إلى القبيلة وهي خاوية تماما لا يوجد بها سوى الظلام والنيران المشتعلة في الطرقات لتنير المكان بعض الشيء، فرأيت جوناثن آتٍ من بعيد يتمشى في القبيلة ويتكلم مع نفسه لقد كانت هذه إحدى عاداته وهي التمشية ليلا في القبيلة ليرى إن كان هناك أحد يحتاجة أو هناك أي شيء يمكنه إصلاحه أو فعله وأيضًا لكي يصفي ذهنه قليلا ويستمتع بهذا الجو الرائع، وبينما أنا أنظر إليه توقف فجأة وتغيرت تعابير وجهه وكأنه يتألم ثم سقط أرضًا وكان ظهره به خنجرا كبيرا جدًّا وكان يقف خلفه الزعيم القديم لهذه القبيلة ونظر إليه بكل حقد وغضب ثم نزع خنجره من ظهره وذهب، فخرجت مسرعا أركض إليه ولكنني لم ألحق حتى أن أخرج من كوخي فعندما خطت قدماي خارج الكوخ ضربت بشيء على رأسي بقوة جعلني أفقد توازني وأسقط أرضًا ولا أرى الصور التي حولي بوضوح، وفجأة رأيت أمامي رجلين أحدهم يحمل سيفًا كبير من ثم رفعه في الهواء وانقض به عليَّ، وكانت هذه آخر صورة أراها قبل أن يغشي عليَّ وأفقد الشعور بأي شيء.

هناك ظلام في كل مكان حولي ولا يسعني رؤية أي شيء ولكني أستطيع سماع هذا الصوت بوضوح جدًّا، وكان يقول "مهما كان الوطن هادئا وأبنائه يحبونه ويعيشون في سعادة دائمه لابد وأن هناك خائن في مكان ما لا يرضي بهذا الحال أبدًا، إن هذا آخر درس أعلمك إياه يا جيمس، وهو بأنه مهما

كان كل شيء جميل حولك وعلى ما يرام فاعلم بأنه ليس سوى إنذار باقتراب الخطر نحوك ونحو الوطن".

فتحت عيني ونظرت إلى السقف وكأنني رأيته مسبقا كأنني كنت أعيش هنا فنهضت بجسدي وبدأت أنظر حولي يمينا ويسارا فتذكرت هذا المكان وعرفت بأنني في غرفتي في منزلي وعلى سريري، ثم نظرت إلى يدي فوجدت كتاب جدي ما يزال ملتصق بها فتركت الكتاب ونهضت من على السرير ووقف أمام المرآة وبدأت تراودني فكرة بأن كل ما عشته هناك مجرد حلم بسيط دام لثلاث ساعات لا أكثر، ثم تذكرت شيئا سيثبت لي إن كان حلم أم لا فخلعت قميصي فوجدت أثر الطعنتان في بطني وأثر الرمح في كتفي فعرفت بأنه لم يكن حلمًا وبأنني حققت أمنية حياتي التي طالما سعيت لها، ولكن قلبي يؤلمني كثيرا وأشعر بحزن شديد بسبب آخر شيء قد حدث وهو موت جوناثن وموتي، إنني ما زلت أفكر حقًّا بأن هذا العالم حقيقي وبأنني قلق حيال القبيلة من بعدي وبعد جوناثن، ولكن ما هدأني قليلا وأراح قلبي، بأن هذا مجرد عالم من اختلاق الوطن لا أكثر.

نزلت إلى أبي ودخلت عليه مكتبته وأغلقت الباب خلفي وجلست بجواره فنظر إليَّ وقال:

- ألم تقرأ كتاب جدك.

- بل قرأته.

- وما الذي حدث.

- لقد نجحت يا أبي.

- يا إلهي إن جدك لم يستطع أن يكمل وأنا لم أقدر على فعلها ولكنك أنت فعلتها كم أنا فخور بك يا بني، فخور بأن يكون لي ابن عظيم وبطل مثلك.

- حتى أنا فخور بهذا جدًّا يا أبي، لكني أريد إخبارك شيئا.

- ما هو؟

- أنا آسف يا أبي على كل كلمة قلتها لك في الماضي تتعلق بجدي وأنني كنت أعتقد أنك تكرهه ولا تحبه وأنت كنت تعلم طول الوقت ما به وما الذي كان يمر به ولم تقل وأنا ظلمتك، فلتسامحني أرجوك يا أبي أنا لا أستطيع مسامحة نفسي.

- أنا سامحتك من يومها يا جيمس لأني كنت أعلم بأنك يوما ستكبر وستتفهم الأمر، أنا فخور بك كثيرا يا بني.

عانقني بشدة وأدمعت عيناه وأمضينا سويًّا لحظة جميلة جدًّا، ثم تركته وصعدت إلى أختي المسكينة التي لم تخرج من غرفتها إلى الآن منذ أن دفعتها وأسقطها أرضًا.. " وقفت أمام بابها وقلت بصوتٍ عالٍ أنا جيمس أرجوكِ افتحي فلم ترد عليَّ ولم تأذن لي بالدخول فاضطررت لأن أفتح الباب وأدخل

وعندما دخلت نظرت إليَّ وقالت بكل غضب اخرج أنا لم آذن لك بالدخول أنا لا أريدك هنا.

- أرجوك اسمعيني، فقط سأقول لك بعض الكلمات ثم سأذهب وأدعك بمفردك.

- حسنا بسرعة، فأنا لا أريد رؤيتك حتى.

- أنتِ لا تعرفي كم أتألم داخلي لأني دفعتك البارحة ولأنني لم أحضر عيد ميلادك الذي طالما تواجدت به وطالما جلبت لك الهداية وأسعدتك، لقد تركت حزني وضعفي ويأسي يتملكوني ويجعلوني أنسى أحب الناس إليَّ وإن أعاملهم بقسوة أرجوكِ سامحيني على ما فعلت أقسم لكِ بأني تغيرت وأصبحت شخصا آخر أقوى حتى من ذي قبل.

فنهضت من على سريرها وتقدمت نحوي ومسحت دموعي بيدها الناعمة ثم عانقتني بشدة وسامحتني على ما فعلته بها لأنها صدقتني حقًّا ولأن قلبها طاهر وجميل ولا يعرف معنى الكره.

ومرت الشهور والأيام وأنا أشتاق حقًّا إلى إليزابيث وإلى هذا العالم الجميل الذي كنت به بطلا من الأبطال.. .عدت مرة أخرى إلى الجامعة ولكن هذه المرة كان الكل يعرفني هناك ويحبني فلقد نشرت كتاب عن رحلتي هذه وسميته "حلم لن يعود" وأصبحت مشهورا في الجامعة ومشهورا خارجها وقد حقق الكتاب مبيعات كبيرة جدًّا وأصبحت من الكتاب الكبار داخل

بلدي.. والآن هناك خطاب سألقية أنا على الطلبة المتخرجين هذا العام والمفروض أنني منهم ولكني متأخر عام كامل لذا سألقي أنا هذه الكلمة تكريما لي ولهم، وأيضًا لأحفزهم للحياة والمرحلة القادمة وأعطيهم دافعًا وأملًا للاستمرار فأنا رمز للشاب الناجح المحقق لكل أحلامه.

بينما أنا أتكلم والكل منتبها لي وأحرك عيني بين الطلاب وأفحص وجوههم رأيت وجها جعلني أتلعثم في الكلام وأتوقف لبرهة لأتحقق منه ولكني تمالكت أعصابي لأكمل هذه الخطبة، هل تعرفون وجه من رأيت إنه وجه إلبيزابيث الذي كان تحرسه عيناي طوال الوقت خوفا من أن يذهب مجددا ويتركني في هذا العالم وحيدا، لقد تذكرت بأنني قد رأيتها مرة من المرات داخل الجامعه لذا حفر داخل رأسي تعابير وجهها الجميلة ولم أتذكر هذا سوى الآن كأن الوطن ما زال معي وحولي وما زال يريد سعادتي.. وفي النهاية ختمت خطبتي بكلمة صغيرة وهي:

"إن الوطن هو أجمل شيء في هذه الحياة في هذا العالم فحاول أن تنعم بجماله وحاول أن تكون أنت أيضًا جزءًا من هذا الجمال".

إنه أنا "جيمس ألبرت الذي عشت أجمل حلم على هذه الأرض وهو الحلم الذي لن يعود، وأتمنى حقًّا أن تعيشوه مثلي يومًا ما"